صادق مرجان
المحامى

تولستوى

حياته - فلسفته - إعترافاته

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية
٣٣ شارع قصر النيل القاهرة

صادق مرجان
المحامي

تولستوي

حياته - فلسفته - إعترافاته

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية
٣٢ شارع قصر النيل القاهرة

« نحن حقيقة فى حاجة الى ثورة ، ولكنها ليست ثورة دموية ؛
بل ثورة فى ضمائر الأغنياء وفى قلوبهم » .

تولستوى

الى تلك العاطفة التي علمتني

أن أحب الناس .

صادق مرجان

المحامي

« لن تستطيع أبداً أن تستغنى
عن قراءة تولستوى ».

برنارد شو

مقدمة

كان تولستوى رجلا قوى العاطفة والعقل . مخلصاً إلى أقصى حد ، فكانت الكلمات التى يكتبها قوية نفاذة ، تصل إلى قلوب الناس ، وتعتمل فى نفوسهم . وتتفاعل مع تفكيرهم ، فتجعل منهم أشخاصاً آخرين متجددين ، وكان هو الفيلسوف الذى طابق قوله فعله .

ولم تنشر أو تترجم كتب أى فيلسوف فى حياته إلى لغات أخرى كثيرة مثل كتبه .

لقد كان أعظم رجل شغل أذهان الناس فى عصره ، ذلك لأنه كان موهوباً أميناً مجتهداً دقيقاً شجاعاً صابراً ، متمتعاً ببديهة عظيمة فى الملاحظة وجمال فى فن الاخراج ، مخلصاً كل الاخلاص فى خدمة الخير والحق ، منكراً ذاته ، مهتماً بأهم المسائل البشرية العويصة ، محاولا أن يضع آراءه فى سهولة ووضوح ، ويكاد يكون من المستحيل أن تجد شخصاً آخراً مثل تولستوى ، أو حتى فى الدرجة التالية له ، رغم أن بعض آرائه فى بعض المسائل الاجتماعية تخالف آراء غيره ، وقد توصف بالغرابة والشذوذ أحياناً .

لقد سجل هذا الفيلسوف إسمه وأثره فى قلوب الملايين من الناس ، وقد آمن إلى آخر لحظة فى حياته «بمبدأ المحبة» ، وظل يعمل بهذا المبدأ حتى مات ، ولا يوجد شخص يمقت الثورات والشيوعية العنيفة مثله ، وكان أكبر معارض لآراء « لينين » .

وإنها لسعادة بالغة للهيئة البشرية أن نجد فى تولستوى ، الفيلسوف الذى يمثل فعلا الخلق السامى الرفيع ، والذى لم يخضع إلى سلطان ما سوى سلطان ضميره الصالح .

صادق مرجان
المحامى

اعترافى

لماذا أعيش ؟ ....

ما الغرض من خلق وخلق كل الناس ؟ ....

ما الهدف الذى يجب أن أضعه أنا وغيرى للحياة ؟ ....

ما معنى هذا الصراع فى نفسى بين دوافع الخير ودوافع الشر ؟ ....

لأى غاية وجد هذا الصراع ؟ ....

كيف يجب أن أعيش ؟....

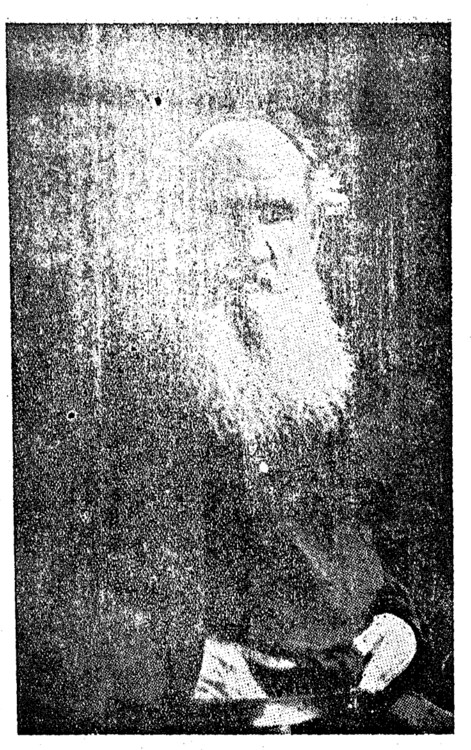
ما الموت ؟.... كيف أنقذ نفسى منه ؟....

لقد عثر المؤرخون على ورقة مكتوبة بخط « تولستوى » وهو فى سن الخمسين تقريبا ، وعليها الاسئلة السابقة التى كانت تشغله أيما انشغال ، لمدة سنين طويلة ، إبان كتابة كتابه المشهور « اعترافى » ، فعالجها هى وغيرها من بعض مشاكل الحياة الشخصية العميقة ، ووضعها فى هذا الكتاب بكل دقة وإخلاص ونزاهة ، دفعت بعض مشاهير كتاب هذا العصر إلى أن يقولوا :—

« هذا كتاب كل ما فيه عظيم ، يجدر بالناس قراءته ، ولو لم يكتب « تولستوى » غيره لظل أعظم كاتب وأعظم مفكر خدم الانسانية » .

لهذا ترجمته بتصرف ووضعته فى نهاية هذا الكتاب .

صادق سرجيان



تولستوى فى السنة التى توفى فيها (عام ١٩١٠)

١

ولد « ليو تولستوى » فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٢٨ بقرية (ياسنايا بوليانا) من أعمال ولاية تولا على بعد ١٣٠ ميـــلا من موسكو .

وقد قيل بأن جده القديم «اندريس Indris» كما دلت سجلات أشراف روسيا نزح من الامبراطورية الرومانية المقدسة (المانيا) الى بلدة شرنجوف بأكرانيا سنة ١٣٥٣ مع ابنه « اندرو Andrew » الى موسكو حيث رحب به الحاكم وخلع عليه لقب «تولستوى» .

وأحد أجداده هو بيتر تولستوى ولد سنة ١٦٤٥ وقام بخدمات جليلة للحكومة الروسية فى عهد القيصر بطرس حتى وصـــل الى أكبر المناصب وأخطرها فمنح الكثير من الضياع والأراضى . ثم منح لقب «كونت» فى سنة ١٧٢٦ وصار أحد سبعة كانوا يحكمون روسيا .

وحدث أن قام خلاف بينه وبين « منشكوف » على من يخلف الملكة « كاترين » فقاومه «منشكوف» وانتصر عليه وتمكن من تجريده من لقب «كونت» ومن أملاكه وتمكن سنة ١٨٢٢ من نفيه الى جزيرة فى البحر المتوسط وهو فى الثانية والثمانين من عمره حيث مات هناك منفياً بعد عدة سنوات . ومن مصادفات القدر أن منشكوف مات أيضا فى هذا العام منفياً فى (سيبريا) بواسطة نفس

الملك الذى أعانه على الجلوس على العرش .

وقد احتفظ بلقب « كونت» الى ابن ابنه اندروAndrew الذى تزوج وأنجب ٢٣ ابناً منهم الكونت «ايليا» الجد المباشر لتولستوى الذى تزوج بالأميرة جرشكوف . وكان رجلا لين العريكة كريم الطباع موثوقاً به ، ولكنه كان مبذراً مسرفاً أضاع ثروته وثروة زوجته فاضطر الى قبول وظيفة محافظ « كازان » ، ولكنه بسبب خصومة بينه وبين أحد كبار الاشراف عزل ظلما فحزن ومات .

وخلف من بعده ابنته الكبرى عمة تولستوى التى تزوجت بأحد الكونتات كما ترك إبناً آخراً هو «نيكولا» والد تولستوى الذى التحق بالجيش وأخذ مرة أسيراً فى باريس وظل يرقى حتى وصل الى درجة « لفتننت » فى نهاية حرب القرم . ثم تقاعد فى سنة ١٨١٩ واشتغل بالأعمال المدنية حتى سنة ١٨٢٤ مجاهداً فى سبيل أسرته الكبيرة بعد أن ترك له والده تركة مثقلة بالديون .

وقد قال عنه تولستوى :

« ما أهان والدى نفسه من أجل كبير وما طأطأ رأسه لعظيم وقد ظل محتفظا بروحه المرحة وبثقته بنفسه وكرامته مما ملأ نفسى محبة له واعجاباً به ».

أما أم تولستوى فهى ابنة أمير كبير منحدر من أول حاكم على روسيا وتزوجت فى سنة ١٨٢٢ فى الثانية والثلاثين من عمرها بوالد تولستوى وهو فى الثامنة والعشرين وقدمت له بائنة قوامها ٨٠٠ عبداً وضيعة « ياسنايا » وكانت عالية الثقافة تتحدث خمس لغات

وتجيد العزف على البيانو . كما اشتهرت بسرد القصص والحكايات بأسلوب رائع وبالرغم من أنها كانت عصبية المزاج فقد كانت تملك زمام نفسها دائما وتظهر بالحلم والأدب والكياسة . وقد امتازت بفضيلة عظيمة هى أن لا تنتقد أحدا وأن لا تدين أحدا كما عرفت بالتواضع الجم لدرجة أنها كانت تحاول أن تخفى فضائلها حياءاً وخجلا . وقد توفيت فى سنة ١٨٣٠ وتركت ابنها ليو تولستوى صاحب هذه السيرة وهو فى الثالثة من عمره ثم توفى أبوه سنة ١٨٣٧ وهو فى التاسعة ثم توفيت جدته سنة ١٨٣٨

وعندما توفى الوالدان كانت هناك سيدة عظيمة مخلصة اسمها « تاتيانا برجولسكى» ولدت يتيمة فعنى بها جدا تولستوى وأحبت هى « نيكولا» حبا صادقا نزيها وتعمدت أن لا تتزوجه لكى تهىء له الفرصة من الزواج بأم تولستوى لأنها كانت غنية . ولما توفيت زوجته عاد نيكولا يطلب يد هذه السيدة فاعتذرت خشية أن يقضى الزواج على حبهما الا أنها بعد وفاته أصبحت فعلا فى مقام الأم البارة بأولاده الخمسة .

وكانت هذه السيدة حازمة رقيقة مضحية معنية كل العناية بتربية تولستوى حريصة على راحته وسعادته وكان يحبها ويحلها محل والديه ويراسلها فى غيابه بخطابات رقيقة طويلة وقد ذكر فضلها فى مذكراته وفى احدى مؤلفاته قال :

« لقد كان لها أكبر أثر فى حياتى فمن فجر الطفولة علمتنى جمال الحب الروحى لا بمجرد الألفاظ والكلام ولكن بسلوكها الفعلى وبمثلها الأعلى» .

وكان تولستوى يحب أخوته وكان حريصا على محبة واحترام أخيه الأكبر «نيكولا» الذى قال عنه «ترجنيف» أنه لا ينقصه إلا بعض الرذائل حتى يصبح كاتبا كبيرا !! وكان أخوه الثاني «سيرجى» أرستقراطيا أمينا مستقيما معجبا بنفسه وبهندامه وطالما قلده تولستوى فى سنى شبابه الأولى .

أما الأخ «ديمترى» فكان يقرب به فى السن وقد قضيا وقت الطفولة معاً فى سلام ومحبة . ولم يذكر تولستوى شيئا كثيرا عنه .

وقال عن الطفولة : —

« سعيدة . سعيدة بلا حد هذه الأيام ... أيام الطفولة ... كيف لا يحنو الانسان على ذكرياتها الجميلة ... انها تجدد وترفع نفسى ... وانها أكبر نبع أستمد عنه مسراتى ... ما أسعد أيامها التى لا يتخللها سوى أفراح الطفولة البريئة وعواطف المحبة والصداقة الخالصة .. »

وقد قالت أخت تولستوى عنه أنه كان مرحا للغاية كثير الابتسام كثير الأدب رقيق الاحساس ولم يكن مرة واحدة فظاً مع أحد . وعندما كان يغتاظ لأمر ما كانت تتساقط الدموع من عينيه . واذا ضايقه أحد من أخوته فانه كان يجرى بعيداً عنهم ويأخذ فى الصراخ طويلا وإن سأله أحد لماذا تصرخ ؟ يجيب «انهم يعاكسونى » . وكان كثير الصراخ لأقل الأسباب حتى عرف بكثرة صياحه . إلا أن حياة طفولته كلها كانت على العموم سعيدة . ومن وقت طفولته الى شيخوخته كان مغرما بالموسيقى وقد انتقل وهو فى الثامنة مع أخوته الى موسكو لتلقى العلم وذلك فى سنة ١٨٣٧

إلا أنه فى صيف هذا العام مات أبوه وهو فى طريقه الى تولا فى عمل خاص وخيل الى تولستوى أن والده لم يمت وأنه سيراه حياً ثانياً فى أحد شوارع موسكو . ثم بعد شهور توفيت جدته متأثرة بموت ولدها فكان تعدد الوفيات سببا فى انتباه تولستوى الى الموت والشعور به خصوصا بعد أن رأى جدته مدرجة فى أكفانها وقبّل يدها.

وبعد ذلك بقليل وهو فى الحادية عشر التقى هو وأخوته بطالب آخر جاء ليحدثهما فى أن مدرسته اكتشفت أن الله غير موجود فتناقشوا فى ذلك وارتاحوا لتلك الفكرة .

وكان كثير الانفعال ويحكى عنه أنه غضب مرة فى حفلة من حفلات عيد الميلاد لأنه هو وأخوته أخذوا هدايا أقل قيمة مما أعطى لأبناء الوزراء . وكانت تؤذيه أية ملاحظة عن شكله لأنه كان قبيح الصورة جدا . وكان مغرما بكلاب والده وبالصيد والركوب .

وقد لاحظ مرة على ابنة صديق لوالده وهى طفلة أنها تتحدث إلى أحد الأشخاص وتتودد اليه كثيراً فشعر بالغيرة ودفعها مرة من الشرفة فسقطت وأصيبت بعرج لمدة أيام طويلة ومن المصادفات الغريبة أنه تزوج بعد ذلك بابنة هذه الفتاة وأصبحت بعد ذلك حماته .

وقد أجمعت جميع المصادر على أنه كان فريداً غريباً لايعمل مايعمله غيره من الأولاد .

وقد قال عنه أحد المربين الفرنسيين المعروف : «إن هذا الصغير له عقل كبير ... إنه موليير الصغير ... »

أما الكتب التى أثرت على تولستوى حتى سن الرابعه عشرة فهى : حكاية يوسف الصديق فى التوراة — حكاية الأربعين حرامى والأمير قمر الزمان من كتاب الف ليلة وليلة وبعض حكايات شعبية أخرى . وبعض قصص من بوشكين وحكاية الدجاجة السوداء .

ومن سنة ١٨٤١ عاش الأولاد مع عمتهم فى «كازان» يتعلمون فى مدرستها لمدة خمس سنوات ونصف عدا أيام الصيف فانهم كانوا يعودون منها الى« ياسنايا ».

وفى سنة ١٨٤٢ اختار هو مدرسة اللغات الشرقية ونجح نجاحا ملحوظا فى اللغات العربية والتركية والألمانية والانجليزية ، كما فاز فى المنطق والحساب ولكنه خاب فى اللغة اللاتينية وفشل فى الجغرافية والتاريخ ونال فيها أضعف الدرجات. وقال أخيرا متهكما على نفسه « لقدسئلت أن أذكر الموانىء الفرنسية فلم أعرف ولا واحدة ! » .

وقال فى كتاب (الطفولة) عن نفسه : -

«إنى عندما بلغت السادسة عشرة وقد وصلت إلى نهاية الطفولة أحسست أن أحلامى تدور على المشاعر الأربعة الآتية :—

أولا .. حبى (لها) التى كنت متوقعا فى كل وقت أن ألقاها وأن أعرفها وأن أحبها .

ثانيا — أن أكون أنا أيضا محبوبا فقد رغبت أن يعرفنى وأن يمدحنى أكثر الناس وأن أكون مستحقا لثنائهم بسبب ما أقدمه لهم من خدمات.

ثالثا — شعور قوى لدرجة الجنون برغبتى فى حظ وافر عظيم فى شىء ما .

رابعا — وهو الأهم إحساس مستمر بعدم الرضاء عن نفسى ورغبة ملحة فى السعى إلى الكمال الخلقي ولعل هذا الشعور هو الذى كان أساسا لمبادئي المستقبلة وداعيا لتفكيرى فى نفسي وفى الجنس البشرى وفى عالم الله كله » .

وكان فى مدة إقامته فى الجامعة بكازان متمتعاً بسائر ملذاته وشهواته خصوصا وأن الوسط فى هذه البلدة كان يدعو الى اللهو والرقص وسائر المتع حتى أقبل على هذه الجامعة كثير من أبناء الأغنياء والأشراف ممن كانت تتسامح الادارة فى قبولهم فاتخذوا هذه البلدة مسرحا للهوهم وفسادهم ، وقد رسب فى نهاية العام ونسب رسوبه الى عنت من جانب أحد المدرسين الممتحنين .

وفى هذا العام التحق بكلية الحقوق فلم يعن بالدراسة طول نصف السنة الأول لانشغاله بملاهيه وشهواته المحيطة به فى كازان ولكنه بدأها بعد ذلك بشىء من الاجتهاد ؛ وكان ميالا الى القانون المقارن والقانون الجنائى ، وقد عنى عناية فائقة بدراسة عقوبة الاعدام ؛ إلا أنه كان يهمل العلوم الأخرى ، ووجد أن الأساتذة الألمان لا يجيدون اللغة الروسية ، وأدرك عدم فائدة دراسة التاريخ القديم فأهمله وأهمل كذلك سماع محاضرات الدين . إلا أنه كان شغوفا بالعلوم والكتب الأخرى

٢

وفى مايو سنة ١٨٤٧ ترك الجامعة ووقف عند هذا الحد من التعليم الجامعى .

وكتب بعد ست عشرة سنة من هذا التاريخ بأن عملية الامتحانات سخيفة وأن مناهج التعليم ليست فقط غير مفيدة بل هى ضارة وكان معنياً فى هذا السن بلباسه وهندامه ومظهره الارستقراطى .

وفى سنة ١٨٤٦ قسمت التركة بينه وبين أخوته فكان نصيبه ضيعة (ياسنايا بوليانا) وأربع ضياع أخرى مساحتها ٣٤٠٠ فدانا روسيا و ٣٣٠ فلاحا عدا زوجاتهم وبناتهم فانصرف الى ادارة هذه الأموال مهتما دائما بأبهته ومقام أسرته الكبير .

ومن مارس سنة ١٨٤٧ بدأ تدوين مذكراته الخاصة وفى أول صفحة منها يقول عندما كان فى مستشفى كازان :ـ

« إنى وحيد وإنى أرى الوحدة جميلة لمن يعيش طويلا وسط الجماعات ... إنه لأيسر للشخص أن يكتب عشرات المجلدات من الفلسفة والأخلاق من أن يطبق مبدأ واحدا منها فى الحياة العملية » .

وبعد شهر نجده يكتب : ـ « . . أحس أن سؤالا يواجهنى عن هدف الحياة ... وإنى أظن أن الهدف هو أن نساعد وأن نعمل بأقصى قوة فى الوصول الى « الرقى العام » و« المدنية العامة » .

وأن هذا السؤال نفسه قد أزعجه بشكل عنيف عندما بلغ الخمسين من عمره فبحثه بحثا مستفيضاً عميقاً نزيهاً فى كتابه «اعترافى» ووجد له جواباً آخر كما سترى .

ثم قال « إني أحسب نفسى أتعس إنسان ان لم أجد لنفسى هدفاً عاماً رفيعاً أهدف اليه ولكنى متى وجدته فستصبح حياتي نشيطة عاملة بكل قوة فى سبيل بلوغه » .

وقد وضع لنفسه فى هذا الوقت القواعد الآتية وكتبها ليحاول السير بمقتضاها قال : —

(١) على أن أقوم بما أنوى عمله رغم كل الصعوبات .

(٢) أن أقوم به على أحسن حال .

(٣) أن لا أرجع الى الكتب فيما أنساه بل ألجأ الى ذاكرتى .

(٤) أن أعمل بكل عقلى فيما أقوم به .

(٥) أن أقرأ دائما بصوت مرتفع .

(٦) أن ألفت نظر الغير ممن يحاولون مقاطعتى فى دراساتى وتفكيرى وأن أرجوهم أن لا يقاطعوني .

وبعد ترك الجامعة مباشرة أقام فى « ياسنايا » عامين وأعد قائمة بالكتب التي يجب الاطلاع عليها وهى : —

القانون — الطب العملى — اللغات — الزراعة علما وعملا — التاريخ — الجغرافيا — الاحصاء — الحساب — الموسيقى — الرسم — العلوم الطبيعية . وقرر أن يكتب مذكرات عما يقرأ وأن يضع لنفسه قواعد خلقية معينة الا أنه أهمل ما تعلمه قبل سن

الرابعة عشرة من قواعد التدين . وقد كتب عن ذلك فى « اعترافى » كتابة مفصلة غاية فى الدقة والجمال والصدق ولكنه رغم ذلك كان يلجأ الى الصلاة بحكم العادة فى ساعات ضيقه وحاجته ليطلب من الله المعونة كما دلت على ذلك مذكراته فى هذا الوقت .

واليك بعض الكتب التى كان يطلع عليها بين سن الرابعة عشرة والعشرين :ـ

موعظة المسيح على الجبل و «روسو» وديكنز و بوشكين وشيلر وجوجول وترجنيف.

وقد تأثر جدا بكتب روسو وفولتير :

وظل فى «ياسنايا» يدرس ويعمل فى حقوله ويفكر فى إصلاح فلاحيه الى أن سافر الى موسكو سنة ١٨٤٨ ثم ذهب الى بطرسبرج سنة ١٨٤٩ فأحبها وأقام فيها اذ وجدها أحسن البلاد مقاما للشبان وانغمس فى سائر الملاهى وانصرف بكليته الى الخمر والقمار والنساء وبدد الأموال الطائلة حتى اضطر الى الاستدانة عدة مرات والى أن يطلب من أخيه «ديمترى» أن يسدد عنه الديون . ثم أحس بالخمول حتى ساءت صحته.

وفى سنة ١٨٤٩ أنشأ مدرسة لتعليم الفلاحين فى ياسنايا وأنفق عليها من ماله الخاص ولكنها أغلقت بعد عامين بسبب سوء حالته المالية . وكان شبقا فى حبه للنساء حتى قال :ـ «لاشىء أشد وأشق على من مجاهدة ميلى الى النساء » .

ثم قال :«انى أعيش كالبهائم وأصبحت حالتى فى غاية الانحطاط»



تولستوى فى الثانية والعشرين من عمره

وفى سنة ١٨٥١ عاد أخوه الأكبر « نيكولا » الذى كان ضابطا فى الجيش فهاله حال أخيه الأصغر تولستوى وأحزنه أن يراه غارقا لهذا الحد فى لعب القمار وسائر أنواع الملذات فحبب اليه الرحيل معه الى بلاد القوقاز واستصحبه فعلا فى سنة ١٨٥١ الى هناك بعد أن قضيا حوالى شهرا فى طريقهما اليها يتنقلون من بلد الى أخرى.

وفى هذه البلاد أقام عامين ونصف وأعطى عهداً على نفسه أن لا يعود الى القمار وأن لا يمسك هذه الأوراق الملعونة ولكنه وان لم يف بالعهد الا أن صحته تحسنت تحسنا ظاهراً وشعر بالنشاط يعود اليه فقام بعدة رحلات للصيد وأعجب بموقع هذه البلاد وبمناظرها الجميلة كما أعجب بأهلها وبأخلاقهم وأحوالهم .

وفى سنة ١٨٥١ ألف كتابه « الطفولة » .

وقد عرض عليه أخوه أن يلتحق بجيش القوقاز فوافق على ذلك وانخرط فى سلك الجندية فى فبراير سنة ١٨٥٢ والتحق فعلا بفرقة المدفعية بجيش القوقاز بوساطة أحد أقاربه الذى كان يشغل مركزا كبيرا فى الجيش وقد تعرض للموت والأسر عدة مرات ولكنه لم ينقطع عن النساء والقمار والخمر وان كان قد أدرك شرها وخطرها وعيبها . وقد أحب مرة حبا عذريا فتاة فقال فيما بعد : —

«ان أعظم ماجعل لهذه العاطفة سحرا جميلا فى نفسى هو أنى كنت أجهل الحب ولا أعرفه وانى لم أذكر لهذه الفتاة ولا مرة كلمة حب واحدة» .

وقال عن هذه العلاقة عندما كبر : — «ان هذه الذكريات ظلت عزيزة لدى»

وكان يعمل فى القوقاز بين آن وآخر فى الكتابة والترجمة ثم أحس أن عناية الله هى التى دفعته الى هذه الأمكنة حيث شعر بتحسن كبير فى جميع النواحى وبدأ يتجه اتجاهات صالحة .

وكان يحب لعبة الشطرنج ويلعبها كثيرا بشغف واهتمام .

وقد دوّن فى مذكراته فى هذا العام هذه العبارة : ـ « ان الغرور هو أقل الرذائل أذى للغير ولكنه أكبرها افسادا لنفس المغرور» .

وفى سبتمبر سنة ١٨٥٢ نشر كتابه « الطفولة » فى إحدى المجلات فصادف اقبالا هائلا وشهرة فائقة حيث أعجب به كبار كتاب روسيا مثل «دستوفسكى» و«ترجنيف» وغيرهما واعتبروه من أنفس المؤلفات وأعذبها لفظا وأوسعها خيالا .

ويلاحظ أنه استطاع طول عام ١٨٥٢ أن يمسك عن لعب القمار . وقد طافت بعقله أحيانا بعض تأملات عميقة وأفكار دينية متناقضة ولكنها كانت عرضية ومؤقتة فلم يعرها اهتمامه وعنايته فى هذا الوقت .

وإليك بعض مذكراته فى سنة ١٨٥٢ :

٣٠ مارس : ـ « ان أهم آمالى أن يكون لى ايمان فى شىء ما » .

٢٩ يونيه : ـ « الضمير هو أحسن مرشد نستطيع الاعتماد عليه ولكن أين العلامة التى تميز صوته الحقيقى عن بقية الأصوات الضالة ؟ ان الكبرياء والكرامة تتحدث أحياناً بصوت مثل صوت الضمير ... »

«ان الذى يهدف الى سعادة نفسه ردىء والذى يهدف الى ثناء الناس ضعيف والذى يهدف الى سعادة الآخرين فاضل كريم وأما

من كانت غايته مرضاة الله فهو عظيم » .

كل ما كان رديئا لغـــيرى فهو ردىء لنفسى وكل ما كان حسناً لغيرى فهو حسن لنفسى...

« ان الضمير الصالح ينادى بأن غاية الحياة هى الصلاح » .

« ان مجرد وجود النفس لهو دليل على خلودها ـ اننا نرى الدليل القاطع على فناء الجسد ولكننا لا نجد دليلا واحدا على فناء الروح ».

١٨ يوليو : ـ « ألا أستطيع أن أدرك الله بوضوح ؟ تلك أعظم أمانى...».

«لماذا أعطى للانسان أن يفكر فى الله وفى عظمته اللانهائية وفى الخلود ؟ ! ! » .

كل هذه الأفكار تدل على سبق انشغاله بهذه التأملات وبهذه الشكوك فى فترات متقطعة فى مدى ثلاثين سنة أخرى كما سترى .

وفى مارس سنة ١٨٥٣ نشر قصته « الغارة » . ويلاحظ أن الرقابة على الصحف والكتب لازمته من أول عهده حتى آخر حياته فكانت الحكومة كثيرا ماتمنع مقالاته وكتبه وتصادر مؤلفاته .

وفى هذه السنة عاد إلى القمار وإلى اللهو وحتى شهر يونيه من هذا العام كانت حياته غير منتظمة ولكنه فى أواخر العام عاد إلى العمل فى جد واجتهاد وقدم استقالته من الجيش لأنه كرهه ولم ينل فيه رتبا عالية ولأنه حن إلى حياة السلام والهدوء . وفى ديسمبر سنة ١٨٥٣ كتب إلى أخيه وهو فى الجيش يقول :

« إني أتوقع أن أغير حياتي هذه التى لاترضينى فى السنة القادمة ...

ضباط سخفاء .... وأحاديث سخيفة .... ولا شيء غير ذلك ... آه لو أجد ولو شخصا واحدا أفتح له قلبي .... إني أقضي طول يومي لوحدي في الصيد ـ هذه هي تسليتي الوحيدة ولكنها لا تمدني بالسرور الحقيقي الذي أنشده ....»

وعلى العموم فقد كان وهو بالقوقاز في آخر مدة إقامته بها متنبهاً إلى عيوبه شاعراً بعدم الرضاء عن نفسه .

وعلى أثر إطرائه بمناسبة كتاب « الطفولة » أحس بالتشجيع فأخرج «صباح المالك » و «الصبا» و « الشباب » و « الفاتحين » التي وصف فيها بلاد القوقاز وأهلها وحياته فيها .

وفي ٢١ أكتوبر سنة ١٨٥٢ كتب في مذكراته ـ: « إن الخير في الفلاحين وفي عامة الناس لهو أكثر من شرهم وليس من المروءة أن نتحدث عن فضائلهم كما نتحدث عن فضائل الموتى » .

ثم كتب في نوفمبر : ـ « لا بد أن أسعى وراء الشهرة مهما كلفني ذلك» .

وكتب : ـ « إني أعجب لهؤلاء الناس الذين يرضون ويقنعون بمجرد التحدث في الكلام الفارغ الخالي من التفكير والتعقل ».

وكان يلاحظ نفسه ويتنبه إلى سيره بدقة حتى وضع هذه القواعد:ـ

«عندما تشعر بالضيق أو الغضب ابتعد عن الناس خصوصا أهل بيتك والمقربين منك .

اجتنب الأشخاص الذين يحبون المسكر ولا تشرب النبيذ ولا الخمر .

اجتنب معاشرة السيدات الفاسدات .

قاوم شهواتك بالعمل الجسمانى الطويل .

أكتب عدد المرات التي تفشل فيها فى تطبيق هذه القواعد» .

وقال فى ديسمبر سنة ١٨٤٣ : — « إن كل كتاب لكى يكون صالحاً نافعاً يجب أن يكون خارجاً من قلب المؤلف» .

وفى يناير سنة ١٨٥٤ غادر الجيش وعاد إلى ياسنايا حيث وصلها فى ٢ فبراير وقضى بها ثلاثة أسابيع هادئاً مع قريبته المحبوبة Tatiana وأخوته الثلاث وبعض الأصدقاء . وفى أثناء رحيله اليها صادفته زوبعة ثلجية شديدة كان لها الفضل فى إخراج أحد كتبه المسمى « الزوبعة الثلجية » الذى طبع بعد ذلك بعامين والذى كان له أثراً كبيراً فيما كتبه بعد ذلك بأربعين سنة .

وفى مارس سنة ١٨٥٤ التحق بالجيش ثانياً ووصل الى بخارست وحضر موقعة سلسترا أثناء حرب روسيا وتركيا وعاد الى بوخارست حيث وصف حياته فى الثلاثة شهور الماضية حتى ١٥ يونيو قائلا :

« لقد وقعت مع النساء عدة مرات وكذبت كثيراً وقامرت كثيراً حتى اضطررت إلى اقتراض المال عدة مرات» . وبعد ذلك يقول :

« عند ما أخلو إلى نفسى أشعر بندم على سوء حالتى وأحس برغبتى فى الكمال ولكن معنى الكمال مختلط على غير مفهوم لدى وغير مستقر ... » .

وفى ٧ يوليو كتب : —

« يعوزنى التواضع . من أنا ؟ . أنا ابن يتيم لضابط متقاعد .

تركت وأنا فى السابعة (الحقيقة التاسعة) لعناية السيدات والأجانب لامركز اجتماعى . ولا درجة علمية تشرفنى . ولا مبادىء لى ولا أصدقاء . ولا أعرف كيف أواجه الحياة . قضيت أيامى فى العبث وأنفقت أموالى فى المجون . وهربت الى جيش القوقاز لأتخلص من ديونى وعاداتى القبيحة . ثم إنى قبيح الشكل كثير الانفعال غير متسامح كثير الحياء قليل الشجاعة كسول للغاية . لم أتعلم إلا القليل من هنا ومن هناك ومع ذلك كله فانى متكبر القلب شامخ الأنف مغرور بنفسى .....».

ويلاحظ أنه قد بالغ فى إظهار عيوبه شأن الذين يحسون بالندم أما الحقيقة فانه كان متحليا بكثير من الفضائل كما كان معيباً بكثير من الرذائل.

وفى ٧ نوفبر نقل الى سيفاستبول قائداً لفرقة المدفعية فحارب بكل بسالة وإقدام وبعث روح الحمية والشجاعة فى زملائه كما كسب محبة الأصدقاء والاخوان ولم ينكر على الانجليز شجاعتهم بل أطراها وأثنى عليها.

وان تلك الأيام التى قضاها تولستوى فى هذه الحرب وفى الوقوف على سائر نواحيها ورؤية الجرحى وآلامهم وسماع أناتهم خصوصا أثناء إجراء العمليات بغير مخدر ـ كل هذا شحذ ذهنه وقلبه الى تأملات عميقة ملأت عليه نفسه بعد ذلك بفيض من المشاعر والعواطف المختلفة .

وفى سنة ١٨٥٥ ظل فى سيفاستبول يشكو من القمار والنساء

وعلى أثر موقعة حربية ناجحة فى البحر الأسود حاول كثير من الضباط والجنود أن يؤلفوا أغنية كالعادة ولكنهم لم ينجحوا إلا أنه فى اليوم الثانى قدم لهم أغنية جميلة فرحوا بها وأخذوا يرددونها الى أن انتشرت فى كل أنحاء روسيا . .

وما انتهت حرب القرم فى حوالى أكتوبر سنة ١٨٥٥ حتى عاف الحرب وثار عليها وعلى مبرراتها ثم عاد فى نوفبر الى بطرسبورج بعد أن قضى فى الحرب التركية عاماً ونصف . وفى أثناء حصار «سيفاستبول» الذى دام إحدى عشر شهرا والذى كان عنيفا مزعجا قام فى ديسمبر سنة ١٨٥٤ باخراج روايته المشهورة « سيفاستبول » التى نال بسببها شهرة عظيمة جداً حتى أن القيصر نيكولا الأكبر أعجب به وخشى على حياته فأصدر أمراً خصوصياً سرياً بملاحظة إبعاده عن مواطن الخطر ليحتفظ بهذا الرجل العظيم .

وقد قال ترجنيف عن هذه الرواية مايأتي :

« إنها مدهشة ... إن الدموع كانت تتساقط من عينى حين كنت أقرأها . وكنت أصيح بين آن وآخر بصوت مرتفع بعبارات الاعجاب مما فيها » .

وفى ٥ مارس سنة ١٨٥٥ كتب :— « إنى أرجو أن يجمع الناس جميعا فى سائر أقطار الأرض معتقد واحد ودين واحد لاأثر للتعصب فيه ، دين لايقصر سعادة البشر على الحياة الأخرى المرجوة. ولكن دين يمنح السعادة ويهيىء أسبابها للناس فى هذه الحياة الدنيا » .

وبعد أن أقام قليلا فى بطرسبورج ظهرت حركة إصلاح كبيرة

شغلت أفئدة معظم الناس فى بدء حكم اسكندر الثانى كانت تدور على تحرير العبيد والفلاحين والغاء الرق فانتصر لها عظماء الكتاب بكتابة المقالات الشائقة والقصص الرائعة فى معظم صحف روسيا مطالبين بمنتهى القوة بالغاء هذا الرق وما كان من تولستوى إلا أن هب فى نشاط وغيرة فذة يكتب قصته المؤثرة التى سماها « بوليكوشكا » يشرح فيها مساوىء الاستعباد وما يعانيه الأرقاء من عنت وعنف وتعس مما كان له وقعاً هاماً وأثراً فعالا انتهى بصدور أمر عال فى سنة ١٨٦١ بالغاء الرق من روسيا.

وفى حوالى نوفمبر تعرف تولستوى فى بطرسبورج بالشاعر «فت» الذى كان ضابطاً شاباً متحلياً بكثير من الصفات الجميلة فأصبح من أعز أصدقائه وأقربهم اليه.

وكان إخوان تولستوى يلاحظون عليه أنه يحب المعارضة ولا يثق باخلاص الناس ولا بحركاتهم الاصلاحية ماداموا هم غارقين مثلا فى القمار أو اللهو أو النساء وماكان هو ليدعى أنه مصلح مادام مثقلا بأهوائه وبعيوبه.

وفى اليوم الذى وصل فيه الى (بطرسبورج) من (سيفاستبول) ذهب فى التو الى (ترجنيف) الذى رحب به واستقبله استقبالا كريما وعرفه بكبار الكتاب والمؤلفين مقدراً كفاءته الفائقة فى الكتابة والأدب والفن.

وفى سنة ١٨٥٦ مات أخوه دمترى فلم يحزن عليه كثيراً وكان لازال الى الآن يلعب القمار ويخالط النساء ويشرب الخمر الا أنه كان

معنياً بفلاحيه وبراحتهم وبالتفكير فى طرق معاشهم وتملكهم الأرض.

وفى مايو غادر « بطر - بورج » الى «ياسنايا» وفى طريقه نزل الى موسكو وزار الدكتور (بهرز) ولبث عنده ضيفاً بعض الوقت. وقال على أثر انتهاء الزيارة : ـ « إن الأطفال والفتيات كانوا يخدموننا باخلاص ومحبة ... ما أجملهم وما أعزهم؟؟ ».

وبعد ست سنين كانت احدى هاته الفتيات هى زوجته.

وفى هذا الوقت وهو فى موسكو أحب احدى الأميرات أخت أحد أصدقائه وتعلق بها بعض الوقت.

وقبل زواجه اتصل بفلاحة اتصالا غير شريف وأنجب منها طفلا صار فيما بعد سائسا عند أحد أبنائه.

وكان تولستوى كثير التفكير فى الزواج راغبا فيه ليستطيع أن ينجو من كفاحه مع نفسه ويتخلص من سقطاته الكثيرة مع النساء.

وأشيع قبل زواجه بأن فتاة اسمها (فاليرا) كان هو وصيا عليها كانت مخطوبة له لوجود علاقات ود ظاهرة بينهما وتبادلهما الخطابات الغرامية المختلفة ولكن هذه الاشاعة كانت غير صحيحة وقد قال فى خطاب لأخيه فى ١٧ ابريل سنة ١٨٥٧ أنه لم يكن يحبها حبا حقيقيا ولم يكن راغبا أبدا فى الزواج بها.

وفى أثناء اقامته بياسنايا سنة ١٨٥٦ لازم الفراش مريضاً وقتاً طويلا وفى ٢٠ نوفمبر من هذا العام ترك الجيش نهائياً برتبة (ليفتننت).

أما الكتب التى كان لها عليه تأثير فى هذا الوقت بعد تركه

الجامعة وقبل زواجه فهي مؤلفات «جوته وفيكتور هوجو وأفلاطون» والألياذة ثم موليير وثكرى. أما «شكسبير» فلم يكن على العموم من الأشخاص المحببين اليه مخالفا فى ذلك تقدير معظم الكتاب والناس .
وقد كان أيضا لارتباطه بصداقة « فت » كثير من الأثر على نفسه .

أما دوستفسكى فكان فى هذا الوقت فى منفاه بسيبريا فلم يقابله تولستوى ولم يتعرف اليه .

وفى مرة بينما كان يسير مع «ترجنيف» رأيا حصانا يرعى فى الحقل فتخيل تولستوى حياة هذا الحصان واعمال غرائزه فيه ووصف ذلك وصفاً دقيقاً بديعاً فعلق «ترجنيف» على ذلك مازحا بأن تولستوى لا بد أن كان فى وقت ما حصانا ..

وكان معنياً بأن يكون قوى البدن فارس كل أنواع الرياضة البدنية وظل كذلك الى آخر أيامه كما كان مغرما الى حد كبير بالعزف على البيانو .

وقد وصف أعوامه العشرة من بعد سن الرابعة والعشرين بأنها كانت سنين فساد وضلال وزيغ .

وقد سافر الى باريس فوصلها فى ٢١ فبراير سنة ١٨٥٧ حيث قابل «ترجنيف» واختلفا وكانا على وشك المبارزة لولا أن صديقاً تدخل بينهما . وبقى فى باريس لمدة خمسة أسابيع يتردد فيها على القهاوى والمراقص والتياترات كما زار فرسايل وكلية البوربون وكلية فرنسا وبعض أمكنة الفن والموسيقى والأندية وسائر محال اللهو . وفى مارس سنة ١٨٥٧ تحسنت علاقاته مؤقتا مع «ترجنيف» فصحبه الى ديجون



تولستوى فى الثامنة والعشرين من عمره

وفى ٦ أبريل سنة ١٨٥٧ شاهد تنفيذ عقوبة الاعدام فى ميدان عام بباريس فألهب ذلك خياله وحزن حزناً عميقاً حرمه النوم لبضع أيام وكتب عن ذلك فى كتابه (اعترافى) يصف تأثره البالغ ورأيه فى هذه العقوبة وقد بلغ به الحزن والألم أن كره باريس وهجرها .

وقال : — « ان الحكم الواحد باعدام شخص يشترك فى إصداره وتنفيذه الكثيرون من الرجال المثقفين لهو أشد إفساداً وأدعى الى التوحش من مئات وآلاف الجرائم التى يرتكبها القتلة العاديون غير المثقفين وهم تحت تأثير انفعالات شخصية جامحة » .

وفى ٩ ابريل ذهب الى (جنيف) حيث التقى ببعض أقربائه وقضى بينهم بعض الأيام مسترجحا متنزها متنقلا على البحيرات والجبال مستمتعا بسائر مناظر الطبيعة البديعة ولكنه كان يشعر حيال ذلك بشىء هام ينقصه فقال : —

« إلا أن هناك شىء بعيد ... بعيد جدا ... جميل ... جميل للغاية مختف وراء السحب يحرمنى شعورى ببعده عنى أكبر مسراتي لأنى أحس بأني لست جزءاً منه ولأني أحس بأني لست منسجما مع هذا الجمال الفائق للطبيعة ... إنى غريب عنه ... »

وفى يونيه ذهب الى تورين ثم الى برن ثم زيورخ وبادن بادن حيث لعب القمار وفقـــد كل ما كان معه من المال حتى اضطر الى الاقتراض من آخرين من بينهم « ترجنيف » . ثم ذهب الى فرانكفورت ودرسدن وبرلين وقرأ فى هذه المدة الالياذة والانجيل وتأثر منهما للغاية ثم عاد الى روسيا فوصل الى قرية « ياسنايا » فى ٨ أغسطس وبقى

بها بعض الوقت مستريحاً يعزف على البيانو ويستمتع بالموسيقى .

إلا أنه كان يحس بين آن وآخر بالحزن واليأس لأنه لم يعرف بعد غاية لحياته ولا هدفا لآماله ورجائه مما دفعه الى مغادرة القرية الى بطرسبورج .

وكان لا يزال رشيقاً معنياً بوجاهته وارستقراطيته معتمداً على مقام أسرته يصرف معظم الوقت فى المسارح والمراقص وسائر أنواع الملاهى .

وفى فبراير سنة ١٨٥٨ عاد الى « ياسنايا » ليقضى فيها فصل الربيع الذى كان يحبه من أعماق نفسه وتردد فى الوقت نفسه على موسكو مهتما فى هذه الأيام بفلاحيه وبالعطف عليهم وعلى مصالحهم وعلى حرياتهم ومهتما بشئونه الزراعية ومحتفظاً بمظهر السيادة والسلطة .

وفى هذا العام كتب كتابه (السعادة العائلية) الذى طبع فى سنة ١٨٥٩ . واهتم اهتماماً خاصاً بالموسيقى وفى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٥٨ كاد دب يقتله ويقضى على حياته .

وقضى أوائل سنة ١٨٥٩ فى موسكو حيث أصبح عضواً فى جمعية هواة الأدب . وفى خريف هذا العام قام بانشاء المدارس لتعليم الفلاحين والعناية بتربيتهم .

وكان معروفا فى وسط أصدقائه بأنه شاذ شديد التمسك بأفكاره وبمحاولة تنفيذها .

وفى ٣ يوليو سنة ١٨٦٠ غادر بطرسبرج الى أوربا ليبحث عن أحسن وسائل التعليم التى تناسب روسيا فزار برلين وزار سجوبها

وعجب لوضع الناس فى السجون ووصف هذا العمل بأنه عمل مادى ميكانيكى صرف يراد به إصلاح نفوس الناس وأرواحهم !!

ثم غادر برلين الى ليبزج وتفقد مدارسها ولم يرتح اليها فسافر الى درسدن وقابل هناك الروائي الشهير (أورباخ) وأعجب به كل الاعجاب وبعد ثلاثة أيام ذهب الى (كيسنجين) حيث كان أخوه نيكولا يقيم مريضا وهناك قرأ (بيكون) و (لوثر) وتعرف الى (فروبل) الذى كان معنيا بشئون الثقافة المدرسية مثل عمه واضع نظام (رياض الأطفال).

ثم زار خصيصا بعد ذلك بلدة « ورنبرج » ليرى البلدة التى حجز فيها «لوثر» العظيم عندما بدأ حركته الاصلاحية.

وفى ٦ أغسطس لحق بأخيه نيكولا المريض فى « هيرز » الذى ساءت حالته أكثر ثم توفى فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٦٠ بين ذراعيه وكان لوفاته أثر كبير فى نفوس الجميع لأنه كان حقيقة طيبا كريما محبوبا من جميع عارفيه.

وبمناسبة هذه الوفاة شغل عقل تولستوى بالتفكير فى الموت ولماذا مات أخيه مبكراً ؟ وإلى أين ذهب ؟ وكتب إلى صديقه « فت » فى ١٧ أكتوبر :

« ان كان الموت لايبقى على شيء ما فما أسوأ هذه الحياة ... لماذا السعى ؟ ولماذا الجهد إن كان كل أثر لأخى نيكولا قد زال .....؟ »

وبعد ذلك بشهر كتب : — «ان لم تكن هناك حياة أخرى

فليس هناك عدالة » .

ومع ذلك فقد انشغل عن هذه التأملات بأعماله الكثيرة ولم يرددها بينه وبين نفسه إلا فى فترات متقطعة فى مدة ربع قرن عاد بعد نهايته اليها ووجه اليها أقصى عنايته وأقصى جهده .

وستقرأ كثيراً فى « اعترافى » عن هذا المعنى الجليل .

وبعد وفاة أخيه ظل تولستوى فى « هيرز » بفرنسا مع أخته وأولادها الثلاثة فى دار كانت تسكنه عائلات أخرى تجمعهم الصداقة وظل هو يصرف معظم وقته مع الأطفال يلاعبهم ويبادلهم الأحاديث ويلاحظهم ويحبهم .

ثم ... البلدة الى « جنيف » والى « نيس » ثم الى « لوسرن » « روما » و « نابلى » .

١٨٦١

ثم ذهب إلى « باريس » للمرة الثانية فى يناير سنة ١٨٦١ عن طريق مرسيليا وكان وهو فى كل هذه البلاد يدرس أنظمة التعليم فى المدارس وسائر المعاهد ثم غادر فرنسا إلى لندن مع ترجنيف حيث أمضى هناك ستة أسابيع متأثراً معظم الوقت بآلام فى أسنانه . وبالرغم من طول ماقاسى من الآلام فانه لم يعرض نفسه على طبيب لأنه كان يرى أن طب الأسنان غير طبيعى ، كما أن أطباء الأسنان لا يمكنهم أن يقوموا بعملهم بكل دقة وأن الناس منذ أقدم الأزمنة عاشوا بغير أطباء أسنان . وأن من يستطيع أن يتحمل الألم فلا بد أن يشفى بغير طبيب أسنان .

وقد زار فى لندن مجلس العموم وسمع اللورد « بلمرستون » يتحدث ثلاث ساعات متوالية الى النواب . وزار المؤسسات التعليمية ودرس أنظمتها . وفى لندن علم أنه عين قاضيا على اقليمه للفصل فى المنازعات بين الفلاحين والسادة . ولعل تلك الوظيفة كانت هى الوحيدة الرسمية التى شغلها تولستوى بعد تركه الجيش .

وفى ٣ مارس سنة ١٨٦١ وهو اليوم الذى أصدر فيه اسكندر الثانى مرسوما باطلاق الحرية للفلاحين فى روسيا ؛ سافر تولستوى الى « بريسل » حيث تعرف إلى « برودهن » المؤلف لكتاب « ماهى الملكية » ؛ ثم (ليلول) البولندى المشهور الذى اشترك فى ثورة سنة ١٨٣٠ والذى كان يعيش وقتئذ فى حالة فقر شديد .

وفى أثناء إقامته فى « بريسل » كان يكتب فى روايته (بوليكشكا) التى مر ذكرها والتى ندد فيها بالاستعباد وسلطان الملاك على فلاحيهم وظلمهم لهم .

٤

وفى ٢٣ ابريل سنة ١٨٦١ عاد الى روسيا ماراً ثانياً بالمانيا بعد رحلة دامت عشرة شهور باحثاً عن خير الوسائل التعليمية التى يمكن تطبيقها وإدخالها فى روسيا . ولقد أعجب فى النهاية كل الاعجاب بالنظم الألمانية فأمعن فى دراستها وزار جامعاتها وسجونها وأندية العمال فيها وتأثر إلى حد كبير بآراء (أورباخ) عن التعليم القروى وراقه جداً مارآه فى رياض الأطفال من العناية بإنماء قوى الأطفال من سن الثالثة الى السابعة من النواحى الثلاث الجسمية والعقلية والأدبية .

وبعد عودته استقر به المقام فى «ياسنايا» وبعد قليل اجتمع فى منزل صديقه «فت» بترجنيف فى مايو سنة ١٨٦١ فاحتدم الجدل بين الاثنين على موضوع متعلق بالتربية ، فما كان من ترجنيف إلا أن خرج عن طوره وأهان تولستوى وقال له « ان لم تكف عن الكلام فانى أهشم رأسك » فخرج الصديقان غاضبين متكارهين ثم تبادلا بعد ذلك خطابات شديدة وتبادلا الدعوة إلى المبارزة ثم اعتذر ترجنيف إلى تولستوى إلا أنهما ظلا مترددين بين الخصام والسلام مدة طويلة رغم توسط صديقهما « فت » عدة مرات .

وقال ترجنيف أثناء هذه الخصام عنه : —

« انه بنى القومية الروسية فيجب على أن أحبه وأن أحترمه إن

لم يكن من أجله فمن أجل روسيا المعبودة » .

ولم تكن أسباب هذا الخلاف هى الحسد ولا الحقد ولا المنافسة لأن ترجنيف كان يكبره بعشر سنوات وكان كاتبا مشهورا ، فى حين أن تولستوى لم يكن يعد منافسا له ولا مشتركا معه بنصيب وافر فى الحركة الأدبية ولكن السبب كان لأن تولستوى كان يتطلب الكمال من عظماء الكتاب والرجال وكان يهاجمهم ويحقد عليهم إن سلكوا سلوكا يهبط بهم عن المستوى الرفيع اللائق بمراكزهم رغم أنه هو نفسه كان غارقا فى الرذائل ولكن عذره فى ذلك أنه لم يحسب نفسه عظيما ولم يدع ذلك ولم ينظر اليه أحد هذه النظرة فى ذلك الوقت . ومما لاشك فيه أن ترجنيف كان هو المخطىء فى المشاجرة الأولى التى حصلت فى منزل صديقهما «فت» والتى اعتذر عنها ترجنيف عدة مرات بأنه كان تحت تأثير انفعال وقتى شديد غلبه على أمره .

أما عن وظيفة القضاء فقد وليها بمنتهى الهمة وعمل فيها بمنتهى الحق والعدل والصبر والحلم والأدب فى سائر المنازعات بين الفلاحين والملاك رغم ما كان يثيره الفلاحون من عناد ووقاحة أحيانا : ورغم ما كان يثيره الملاك من صعوبات كثيرة مختلفة ، ورغم إرسالهم خطابات عديدة له بالتهديد إلا أنه لما رأى أن معظم أحكامه تلغى فى الاستئناف بغير حق لمصلحة الملاك طلب إقالته لأن القضاء أصبح عليه مستحيلا فاستقال من هذه الوظيفة ولكن الحكومة عللت الاستقالة بسبب سوء صحته فى ٣٠ مايو سنة ١٨٦٢ .

وفى الشتاء كان مشغولا بادارة حركة تعليم أولاد الفلاحين فى مدرسة « ياسنايا بوليا » وغيرها .

١٨٦٢

كما عنى فى فبراير سنة ١٨٦٢ بانشاء صحيفة « ياسنايا بوليانا » نشر فيها آراءه عن التعليم ولكنها كانت محدودة التوزيع فضحى فى سبيل نشرها بكثير من المال . ولكنها لم تصدر أكثر من اثنتى عشر مرة .

وكانت أهم أهدافه فى التعليم هى (أولا) أن يتعلم الطفل بدون أن يعاقب . (ثانيا) أن يتعلم لينال شيئا من الجزاء . (ثالثا) أن يتعلم ليصير أفضل من غيره ممن لا يتعلمون . (رابعاً) أن يتعلم ليحصل على عمل مفيد ينتج من ورائه خير للعالم .

وقد انتقد فكرة أداء الامتحانات وكان يرى أن يعطى الحرية للطلبة لكى يتعلموا ما يشاءون وليس للأساتذة أن يكرهوهم على تعليم أمر معين بذاته . ورأى الخير فى الاستغناء عن هذه الأنظمة واللوائح التى تجعل من المدارس أمكنة للارهاق والتعذيب : كما أنه لم يكن ليرضى عن النظام الداخلى للطلبة .

لقد بدأ عمله وتفكيره فى التعليم حين ترك الجامعة وحين أنشأ أول مدرسة فى قريته ليعلم فيها أبناء الفلاحين إلا أنه فى سنى ١٨٦٠ و ٦١ و ٦٢ انصرف إليه بكل همة ونشاط ووصل فيها إلى نتائج هامة بعد أن استقدم أستاذا معه من ألمانيا وبعد أن عمل بنفسه مع ثلاثة من المعلمين بجد واجتهاد . وقد وصف الحالة فى المدرسة كما يأتى : —

لا يدفع الطالب أجراً ـ لا يحمل معه الى المدرسة كتابا أو كراسا ـ لا يؤدى واجبات فى المنزل ـ لا يكلف بأن يستذكر شيئاً من عمل الأمس ـ لا يفكر إلا عند دخوله الفصل ـ لا يقيد بساعة معينة يصل فيها الى المدرسة ـ لا يسأل عن تأخيره ـ لا تختلط البنات مع الأولاد ـ يجلس التلميذ فى أى مكان سواء على بنك أو كرسى أو نافذة أو الأرض أو المنضدة ـ لا يجبر الطلبة على الاصغاء ـ وليس للمدرسة حق العقاب .

وكان تولستوى يرى أن هذا النظام الذى يسميه البعض فوضى هو الذى يؤدى مع الزمن إلى إعداد أحسن الرجال وأن الناس لا يعارضونه إلا تعصباً منهم لتعليمهم القديم بأسلوبهم القديم .

وكانت المدرسة تغلق فى الصيف ليتمكن الأولاد فيه من مساعدة والديهم فى أعمالهم . وفى أول الأمر كان الاقبال على هذه المدرسة قليل إلا أنه بعد ذلك زاد وتحسن وأحب الكثيرون هذا النظام فالتحق بالمدرسة حوالى أربعين تلميذاً بينهم خمس بنات فى وقت كان فيه تعليم أبناء الفلاحين يكاد يكون معدوما . وكان تولستوى يحبهم ويدربهم بنفسه على الألعاب الرياضية .

وقد وجد أن تعليم التاريخ والجغرافيا قبل الانخراط فى الجامعة أمر ضار .

وقد حاول تولستوى إنشاء جمعية لنشر التعليم الصحيح فى روسيا ولكن الحكومة كانت تقاوم هذه الحركات بشدة فظل عاملا فى جمعية سرية متجها الى هذا الغرض حتى سنة ١٨٦٢ حين أعتق الفلاحون

فأنشأ هو بجوار « ياسنايا » حوالى ١٣ مدرسة .

وفى سنة ١٩٠٣ قال : « إن أسعد أيامى هى التى أحببت فيها لا المرأة ولـكن الناس عموماً والأطفال خصوصاً » .

وفى مايو سنة ١٨٦٢ أحس بالتعب والملل فظن أنه مريض بالربو فسافر إلى موسكو مع خادمه ونزل ضيفا عند عائلة الدكتور « بهرز » التى أحبته وأعجبت به ثم غادرها إلى « سمارا » عن طريق نهر الفولجا وقضى فيها شهرى مايو ويونيه انتجاعا للراحة ، وهناك علم أن قوة من البوليس هاجمت منزله فى « ياسنايا » وفتشت جميع ما به بحجة كاذبة أبلغ بها زورا أحد الجواسيس ، فغضب تولستوى أيما غضب وأعلن أنه سيغادر روسيا نهائياً لأن المقيم فيها لا يعلم ما ينتظره بين آونة وأخرى .

واحتج إلى الامبراطور اسكندر الثانى الذى اهتم بالأمر وأرسل له محافظ « تولا » ليبلغه أسفه الشديد على ما وقع .

وعاد إلى موسكو وتردد كثيرا على أسرة الدكتور « بهرز » وتبادل الأسرتان الزيارات عدة مرات لأن مدام « بهرز » كانت صديقة لأخته . ثم أشيع خطأ أنه سيتزوج من إبنة « بهرز » الكبرى « ليزا » لأنها كانت ذات صوت جميل وطالما رغب فى أن يسمعها . أما هو فكانت رغبته متجهة الى الزواج من أختها « سونيا » فتارة كان يشعر بالحب الشديد لها ، وتارة كان يخشى الزواج منها ويعد العيوب عليها . وتارة يذكر عدم وسامته وقبح شكله فيحس بنقصه وعدم استحقاقه .



تولستوی وقت زواجه



الكونتس تولستوى فى السنة السابعة لزواجها

وقد كتب خطابا أعده ليقدمه الى « سونيا » يطلب يدها وأودعه جيبه مدة أيام ولم يقدمه لها بسبب تردده إلا أنه فى ١٦ سبتمبر ١٨٦٢ قدم الى الدار وطلب الى أختها الكبرى أن تغنى وطلب الى سونيا أن تعزف على البيانو وجلس هو بجوارها باديا عليه وعليها بعض الانفعال ولعله كان لازال متردداً . ولكنه بعد قليل حزم أمره وسلم لها الخطاب فأخذته وأسرعت به الى إحدى الغرف فقرأته ثم عادت وأبلغته موافقتها الا أن والدها لم يرتح لزواج إبنته الصغرى قبل الكبرى .

ولما تمت الخطبة سلم الى مخطوبته مذكراته بما فيها من اعترافات بنقائصه وعيوبه الشنيعة ومن آمال وملاحظات وصلوات وما أن قرأت «سونيا» ماضى تولستوى حتى حزنت وبكت وأرقت طول الليل لأنها ما كانت تظن أنه مثقل بكل هذه الرذائل ولكنها فى الصباح أعادت له المذكرات وغفرت له ماضيه . وبعد اسبوع فى ٢٣ سبتمبر ١٨٦٣ تزوجت منه فى موسكو وعلى اثر انتهاء حفلة الزواج سافرا فى عربة نوم خاصة الى ياسنايا حيث كان بعض أفراد الأسرة فى انتظارهما

وبعد أسبوعين من الزواج ارسل الى صديقه فت يخبره بأنه سعيد بزواجه ويود أن يراه .

وبعد هذا الزواج أبطل اصدار صحيفته وكف عن العناية بالمدرسة وانصرف الى الاهتمام بسائر شئونه المالية الخاصة ومصالحه العائلية .

ورغم بعض الخلافات والمنازعات البسيطة فقد ظلت العلاقة الزوجية سنينا طويلة سعيدة تقوم على المحبة والود . حتى أن والدى الزوجة قالا إنهما لم يكونا ليحلما لابنتهما بسعادة أكثر مماهى فيه . وقد قامت الزوجة بواجبها خير قيام وساعدته فى كتابة بعض مؤلفاته إلا أنها فى هذه الأيام كانت تغار عليه لما كان هو يغار عليها .

وبعد الزواج بأسبوعين أمسكت الزوجة مذكرات تكتب فيها تأثيراتها . ويلاحظ أنها كانت من بادىء الأمر لحد ما كثيرة الحساسية ينقصها الاتزان . وأول ما كتبته فى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٦٢ هو : —

انى أشعر شعوراً قوياً بحبى له . ولكن إذا اختلفنا معاً أو لاحظت عليه أى ريبة فكل هذا الحب سيزول ... انه عظيم .. انه يكره الشر ولا يطيقه .. »

وقد كانت تغار من حبه للفلاحين ومن اهتمامه بالمدارس التى أنشأها لهم وتطلب كل حبه لها لوحدها ، ثم تعود فتكتب فى يناير سنة ١٨٦٣ مايأتي : —

أنه يحبنى .. انه عظيم وكلماته رقيقه ، فيجب أن أعنى وأن أحرص على سعادتنا» .

وفى مايو ١٨٦٥ كتبت أنها تغار من أختها عندما كانت تلاحظ شيئا من الود بينها وبين تولستوى وعندما لاحظت أنهما يخرجان لوحدهما للصيد ولكنها بعد قليل سكتت عن الغيرة وظلت حياتهما على العموم سعيدة فى الخمسة عشر سنة الأولى .

ولأن حياة المدن لم تكن لتعجبه فلم يذهب الى موسكو هو والكونتس إلا فى آخر العام الذى تزوجا فيه ، ثم عادا جالا فى فبراير سنة ١٨٦٣ حيث زارهما صديقهما العزيز « فت » فوجدهما فى فيض من المرح والسرور والسعادة .

وفى ٢٨ يونيه سنة ١٨٦٣ ولد لهما أول الابن «سيرجى» ثم أنجبا بعد ذلك ثلاثة عشر طفلا فى مدى ست وعشرين سنة من الزواج .

أما عن مؤلفاته فى هذا العام فقد أخرج رواية « القوزاق » ثم « بوليكشكا » السابق الاشارة اليها .

وكان فى هذه الأثناء مغرما بدراسة النحل وحياته وطالما قضى الساعات الطويلة فى ملاحظته ومراقبته ودراسة حياته .

وفى شتاء هذا العام بدأ الكتابة فى رواية « الحرب والسلم » .

١٨٦٤

وفى سبتمبر سنة ١٨٦٤ خرج راكبا حصانه ومعه كلابه ولم يقصد إلى الصيد إلا أنه سرعان ماراًى الكلاب تسرع وراء أرنب حتى صاح مردداً ألفاظ الصيد وأخذ يعدو بالحصان إلى أن سقط من فوقه فكسر ذراعه وأخذ يتألم بدون أن يجد من يغيثه ؛ وبعد جهد تمكن من الوصول الى طريق عمومى حيث ألقى بنفسه على أحد جوانبه وقتا طويلا حتى تنبه إليه أحد الفلاحين فحمله على عربة إلى دار سيدة مشهورة بجبر الكسور، إلا أن هذه السيدة فشلت فى علاجها، وسرعان ماعلمت الزوجة بالخبر حتى قدمت اليه ونقلته إلى الدار واستدعت له الأطباء الذين قاموا

بالعمليات اللازمة إلا أنه عاد بعد قليل فأحس بالألم يعاوده ثانيا فأعاد الأطباء عمليات الجبر من جديد إلى أن شفى تماماً.

وفى أكتوبر من هذا العام ولدت ابنتهما « تاتيانا ».

١٨٦٥ وفى يونيه ١٨١٥ ذهبت العائلة كلها إلى أحد ضياعه فعاشوا فى هدوء وسلام يلاعب تولستوى الأطفال ويحبهم ويكسب ثقتهم ومحبتهم فى أسرع وقت : كما أحبه الخدم والأتباع الذين كانوا يصفونه بأنه « طيب القلب ».

ولعل حبه للحياة القروية وكرهه لحياة المدن ناتج عن شغفه بالطبيعة فطالما قال :ـ « ما أكثر غنى الله إنه يمنحنا كل يوم شكلا مختلفاً جميلا للطبيعة متميزا عن سائر أشكال الأيام الأخرى ».

وقد اعتاد لحد كبير الحياة البسيطة الخالية من الترف حيث سكن منزله الريفى فى ياسنايا ولبس هناك اللباس البسيط ولم يحفل كثيرا بتعدد أنواع الطعام .

ولم يمسك من أكتوبر سنة ١٨٦٠ أى مذكرات خصوصية لمدة سنين طويلة .

ثم انتقلت الأسرة الى موسكو فى يناير سنة ١٨٦٦ وظلت هناك ستة أسابيع اجتمع فيها هو مرات كثيرة بأصدقائه المخلصين .

وفى ٢٢ مايو سنة ١٨٦٦ ولد الابن « ايليا »

وقد شعر بالمرض عدة مرات فى سنة ١٨٦٧ ورغم عدم ثقته بالأطباء واتفاقه مع « روسو » فى ذلك إلا أنه تحت إلحاح زوجته عرض نفسه على طبيب مشهور فوجده مصاباً بعسر الهضم وأشار عليه بشرب بعض المياه المعدنية وعالجه مدة طويلة .

١٨٦٩

وفى سنة ١٨٦٩ كان تولستوى معجباً كل الاعجاب بشوبنهور وذكائه وقرأ له معظم كتبه ثم ترجمها بمعاونة صديقه « فت » إلا أنه قال مرة : «أنا أثق اليوم بشوبنهور وأعتبره أعظم كاتب ولكنى لا أعلم ما سيكون رأيى فيه فى الغد » .

وكان فى تربية أولاده لا يعاقبهم بعنف ولا يشتد معهم بل كان يترك لهم الحرية ويعاملهم برفق ، وكان أكثر ما يكرهه أن يلاحظ أن ابنا من أبنائه يكذب. وكان يميل إلى استخدام المربيات الانجليزيات فى تربية أولاده لأنه كان يؤمن أن الانجليز يعنون بالحرية فى تربيتهم أكثر من غيرهم . وكان لا يبيح لأولاده أن يأمروا الخدم بل أن يطلبوا منهم ما يشاءون بتلطف فى وقت كان يعامل فيه الفلاحون فى روسيا كأنهم من طينة أخرى غير طينة البشر .

ومن أهم صفات تولستوى فى هذا الوقت أنه كان يضع كل قلبه وكل قوته فيما كان يعمله مهما كان نوعه ، وكثيراً ما نصحه الأطباء بالاقلاع عن الاغراق فى الاجهاد أو الاقلال منه فكان يجيبهم بأنه لا يستطيع .

وعمل بنفسه وبكل همة فى ملاحظة أمواله ومحاصيله وتربية مواشيه وبالأخص الخيول ولم يهمل الأدب إذ ظل مشغولا بالأمرين .

وقال فى هذا الوقت إن أصحاب الأمزجة الفنية فى الغالب لا يميلون إلى المبالغة فى الهندام والنظام وقال إن هذا الميل لا يوجد فى الغالب إلا بين الأشخاص ذوى التفكير السطحى . ومع ذلك كان

يعترف بوجوب النظافة ولكنه لم يكن منتظما فى غرفة ملابسه لأنه كان يترك مثلا الحذاء فى أى مكان ويخلع القبعة فى أى موضع ويضع ملابسه حيثما اتفق.

أما فى آخر حياته فقد قالت ابنته عنه فى مذكراتها أنه كان نظيفاً دقيقاً مرتباً ؛ ولعله اكتسب هذه الصفات أخيراً .

وكان حين ينام يحب أن لا يزعجه أحد كما كان هو لا يحب أن يوقظ أحداً أثناء نومه مهما كان السبب وقد قال بعد ذلك بسنين طويلة :ـ إن الانسان وهو نائم يكون على الأقل فى منأى عن الاثم ».

وفى ٢٠ مايو سنة ١٨٦٩ ولد الابن « ليو »

وكان فى سنة ١٨٧٠ يكره الصحافة والصحافيين ولا يقرأ الصحف ولا الانتقادات الموجهة اليه وكان يعتبر هذه الصحف ضارة بالقراء .

وأهم ما أخرجه من المؤلفات فى ذلك الحين هو رواية « الحرب والسلم » التى بدأ فيها من سنة ١٨٦٥ وظل أكثر من خمس سنوات يؤلف أجزاءها الستة يراجعها المرة تلو المرة بمساعدة زوجته نحو سبع مرات حتى انتهى منها بعد أن أصدرها فى ستة أجزاء متفرقة وبلغت صفحاتها ١٥٠٠ صفحة فحازت إعجاب جميع كتاب روسيا الأحرار منهم والمحافظين ثم ذاعت ذيوعاً لا مثيل له وترجمت إلى سائر اللغات الأوروبية وكان يقول وهو يكتب فيها أحياناً « إنى تركت قطعة من لحمى فى محبرتى » .

وقد أجمع العالم على أنها أفخم وأروع عمل فنى منذ ألياذة هوميروس . فقد كانت قصة عالم كامل تروى أحداث عصر بأكمله ،

عصر عظيم مثير حافل بكل صنوف التعقيد وكل صور الجلال وتتزاحم بما فيها من صور جمة مختلفة ومشاعر كثيرة متباينة عن الحياة نفسها وعن أطوارها ونزواتها وانفعالاتها وخيرها وشرها وما فيها من حمق وجهل ومن حكمة واختبار .

وكان هو نفسه فى هذا الوقت معجباً بها أيما إعجاب وكان كلما قرأ منها شيئاً على زوجته حرك رأسه قائلا : « سونيا ... وحق الله إن الشيخ يكتب حسنا .. » .

ولكنه فى أوخر أيامه لم يرض عنها ولا عن معظم الكتب السابقة على كتابه « اعترافى » .

وقد ذاعت شهرته فى هذه الأعوام كل العالم فى وقت كان فيه مفرط الثراء يملك المال والضياع والقصور والعبيد والخيول وكان فيه عريض الجاه واسع السلطان سليل أسرة هى من أكبر أشراف روسيا تتميز بأرستقراطيتها ونبلها .

١٨٧١

وقد انصرف تولستوى هذا العام بكل جهده إلى دراسة اللغة اللاتينية إذ أحس بحاجته العظمى لها لتفهم الأدب الاغريقى القديم وفنه الرائع وقد أغرق فى الاطلاع والقراءة فى الكتب الاغريقية القديمة .

وفى ١٣ فبراير ولدت له الابنة « ماريا » .

وفى يونيه ويوليه سنة ١٨٧١ سافر الى سمارا ليستشفى هناك بعد أن أجهد نفسه فى اللغة اللاتينية فذهب إليها بطريق السكة الحديدية التى لم يكن يحبها وقد اختار الدرجة الثالثة ليجد فيها

كثيراً من الفلاحين يتبادل معهم الأحاديث. ولما وصل الى هناك اختار بلدة « كاراليك » وأقام فيها راضياً سعيداً مكرماً محبوباً إذ قد اطمئن إلى سكان هذه البلاد وأعجب بكثير من عاداتهم وأخلاقهم لوجود طائفـــة كبيرة من بينهم تختلف فى عقائدها مع عقائد الكنيسة الأرثوذكسية الروسية لأنهم لايؤمنون ولا يتبعون إلا ماجاء فعلا فى الانجيل ولا يحفلون بشعائر وطقوس الكنيسة اليونانية، وقدوجدهم تولستوى فى مستوى عظيم من الأمانة والاستقامة وحسن الخلق. ومما ساعده على البقاء فى تلك البلاد والتمتع بها سبق معرفته باللغات الشرقية .

ولالمامه باللغة العربية فقد درس الديانة الاسلامية على يد بعض أصدقائه هناك وعند عودته إلى بلاده قرأ القرآن باللغة الفرنسية . واهتم هذا العام بدراسة علم الفلك .

ولفرط حبه لهذه البلاد اشترى فيها ضيعة واسعة ثم عاد إلى ياسنايا صحيحاً معافاً فبدأ فى سبتمبر فى وضع كتاب .A. B C ضمنه بعض المواد وقصصاً معينة لتثقيف وتربية العامة منها « سجين فى القوقاز » و « إن الله يرى الحق » وغيرهما .

١٨٧٢

وفى سنة ١٨٧٢ عاد إلى العمل من جديد فى مدرسة ياسنايا يعلم أبناء الفلاحين بهمة وإخلاص .

وفى هذا العام خطرت له بين آن وآخر بعض مشاكل الموت والحياة ولكنه كان كالعادة ينشغل عنها بمسائل أخرى فلا يصل فيها إلى الأعماق ليعرف حقائقها .

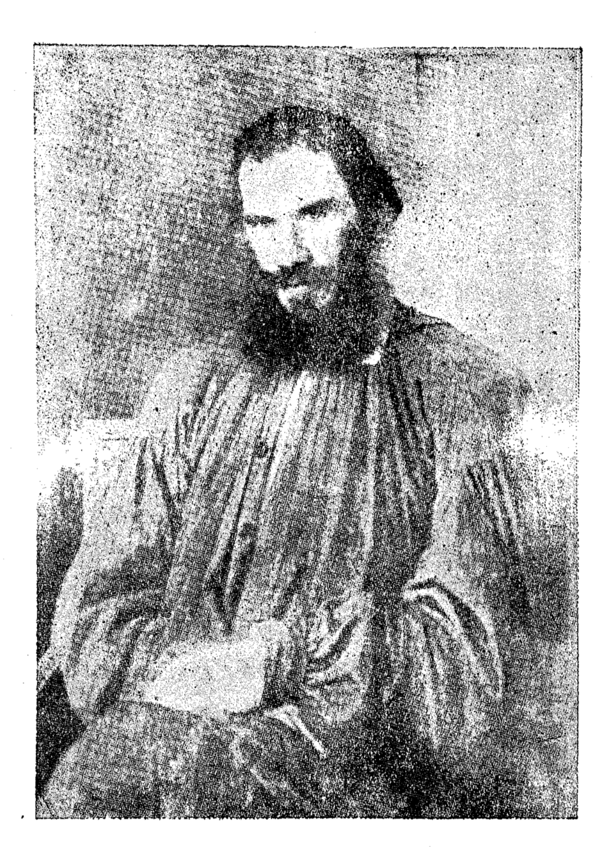
وفى مايو سنة ١٨٧٢ ولد له ابن سمى «بيتر».

ثم حدث فى هذا العام أن قتل أحد رجاله بواسطة ثور من ثيرانه فجاء أحد المحققين ليحقق فى الأمر واعتبر تولستوى مسئولا عن إهماله فى المحافظة على مواشيه وأصدر أمراً بعدم مغادرته مكانه وقد لاحظ عليه تولستوى أنه قليل الأدب وسيء التقدير فثار وغضب منه وأعلن قائلا: «أنا سأبيع كل مالى فى روسيا وسأذهب إلى انجلترا حيث يتمتع هنالك كل انسان باحترام شخصه وحريته». ولكن الأمر ألغى بعد ذلك وانتهت المسألة وبقى تولستوى فى روسيا.

١٨٧٣

وفى يونيه سنة ١٨٧٣ ذهب مع أسرته إلى سمارا حيث نشبت هناك مجاعة عظيمة لقلة ما نتج من المحاصيل فساء حال الفلاحين وما كان من تولستوى إلا أن برز فى هذا الميدان وساهم بنشاطه وماله حتى لهج الناس باسمه وعطفه وعلمت الامبراطورة بمجهوداته فأعجبت به وساهمت هى أيضاً فى ذلك ولم تمض بعد ذلك سنة أو سنتان حتى تحسن المحصول وزال أثر المجاعة الأولى. ولكنها لم تكن آخر المجاعات ولا أسوأها والتى ظهر فيها نشاط الرجل وعطفه ورحمته بالفقراء.

ونظراً لأنه كان يشعر ببعض القبح فى شكله فما كان يسمح لأحد فى هذا الوقت بأن يلتقط صورته وكان يأمر باعدام الأصل إذا صور لانه كان فى غاية الحساسية من هذه الناحية: واهما بان أحدا لا يحبه ولا يحترمه من أجل قبحه وطالما كان يتذمر ويشكو يائسا من هذه الحالة، ولكنه بعد ذلك بسنين عديدة عدل



تولستوي في الخامسة والأربعين

عن رأيه هذا فلم يعد يهتم بشكله ولا بصورته فانتشرت فى كل مكان فى روسيا وفى سائر أنحاء العالم .

وقد أخذت له أول صورة عندما كلف أحد الرسامين المشهورين بتصوير تولستوى وسائر كتاب روسيا لوضعهم فى متحف خاص ولكن الرسام وجد الأمر صعبا بالنسبة لتولستوى لأنه يعيش بعيداً فى ياسنايا ولا يسمح لأحد بتصويره نخجل ان يستأذنه فى ذلك واضطر أن يستأجر منزلا ريفيا يبعد ثلاثة أميال عن ياسنايا معتزماً انتظار تولستوى حين مروره راكبا حصانه فى طريقه المعتاد ليرسمه وبمجرد أن علم تولستوى بنية هذا الرسام وبما عاناه من تعب أرسل يدعوه لزيارته وسمح له برسمه فرسمه فى صورتين بقيت إحداهما فى ياسنايا .

وفى ٩ نوفمبر سنة ١٨٧٣ توفى ابنه الأكبر « بيتر » فأرسل الى « فت » صديقه يخبره بحزن زوجته ويقول :ـ« . . . . . إن قلب الأم ومحبتها لأبنائها هو أعجب واسمى مظاهر الألوهية فى الأرض وهو لا يخضع لحكم العقل والصبر حين تصاب الأم بفقد ولدها » .

وفى هذا العام بدأ روايته المشهورة « أنا كارنينا » .

١٨٧٤

وفى سنة ١٨٧٤ قام بجميع المساعى لنشر أفكاره التعليمية واشتغل بذلك يوميا من الصباح إلى المساء مهملا الكتابة بعض الوقت حتى لفت أنظار ذوى الشأن من الكتاب وغيرهم من المؤيدين ومن المعارضين .

وفى ابريل من هذا العام ولد ابنه « نيكولا » وماتت عمته

المحبوبة فى ٢٠ يونيه وهى أكبر أفراد العائلة فأحس بسلطان الموت وذكر عمته فى كثير من المناسبات بالمحبة والاعزازوالتقدير .

١٨٧٥

وفى سنة ١٨٧٥ أخرج كتاباً آخر اسمه A.B C. وعنى به كل العناية وعمل على أن يباع بأرخص الأثمان لتعليم العامة فبيع منه نحو مليوني نسخة ، وفى مارس من هذا العام توفى ابنه « نيكولا » وساءت صحة زوجته .

وكان يربى أولاده بواسطة مربية انجليزية وأخرى سويسرية أما اللغات فكانوا يتعلمونها على يد أساتذة من الألمان والسويسريين والفرنسيين ، وكان يهتم جداً بتعليمهم الموسيقى بواسطة أستاذ خاص كان يجيء اليهم من تولا ، وكان يقرأ بصوت مرتفع وكثيرا ما كان يقرأ لأسرته أو زائريه ، ورغم عدم ثقته بالطب والاطباء فانه كان يدعو طبيبا كلما مرض أحد من العائلة .

ثم توفيت عمته الأخرى فى هذا العام .

٧

١٨٧٥ بدأ في عام ١٨٠٥ يتردد على الكنيسة ويقوم ببعض واجباتها نحو سنتين مما أدهش الكثيرين ممن حوله .

وقد ظل فى حالة كفاح وصراع داخلى فى تفكيره عن الموت والحياة وبعض المشاكل الفكرية العويصة لمدة خمس سنوات عانى فيها أمر الساعات وأشق الانفعالات؛ وفى هذا العام بدأت روح تولستوى تتجدد وبدأت علامات التحول والتغيير تظهر عليه إلا أن زوجته لم تفهم حقيقة الحال ولم تفهم نفسيته فكتبت فى ١٠ اكتوبر من هذا العام تقول : —

«إني لا أطيق أن أراه كما هو الآن حزيناً يجلس طويلا وحيداً لايتحرك ولا يعمل ولا يتكلم . إنه يفكر ويفكر بدون أى مرح أو سرور وبدون أى همة أو نشاط لمدة أيام طويلة وأسابيع كثيرة . إنه فى حالة موت عقلى . وان مسؤوليات تربية الأولاد ستقع على رأسى مادام كل شىء فيه يظهر ميتا » .

١٨٧٦ وفى سنة ١٨٧٦ ازداد اهتمامه بالموسيقى وتعرف على أشهر رجالها مبتعداً عن السياسة ومشاكلها .

١٨٧٧ وفى يوليه سنة ١٨٧٧ زار دير أوبتن لأول مرة على بعد ١٣٥ ميلا من ياسنايا ثم عاد الى زيارته بعد ذلك ثلاث

مرات ووقف فيه على كثير من المعلومات وتعرف إلى مشاهير الرهبان .

وكان تولستوى يحب دائماً اللغة البسيطة والأسلوب السهل .

وفى أواخر سنة ١٨٧٧ زار بعض الأسرى الأتراك فى مكان مهجور فى روسيا وارتاح عندما وجدهم يعاملون معاملة طيبة كريمة ثم تحدث اليهم فى بعض المسائل الدينية مما كان له عليه بعض الأثر إذ وجد مع كل منهم قرآنه الخاص .

وفى ديسمبر ولد ابنه « أندرى » وفى هذا العام أخرج نهائياً روايته «أنا كرنينا» التى أعجب بها جميع الكتاب والتى لاقت ذيوعاً لانظير له، ثم ظهرت عليه علامات التعب والضعف من كثرة انشغاله وانزعاجه فى تأملاته العنيفة عن المسائل الدينية وقد بدأ يظهر بعض الخلاف البسيط بينه وبين زوجته .

١٨٧٨

وأهم ما بان عليه من التطور فى هذا الزمن نزوله عن مظهر الارستقراطية فاصبح وديعاً هادئاً مسالماً ، وقد اكتشف مبدأ اخلاقياً أساسياً اقتنع به كل الاقتناع فقد آمن بأنه لاينبغى أن يكون له عدو ما وتذكر فى ذلك الحين خصومته مع ترجنيف وكرهه له فانتزع الحقد من نفسه وكتب له خطابا رقيقا يمد له فيه يد الصداقة ويفتح له قلبه فأجابه ترجنيف على ذلك فى ٨ مايو سنة ١٨٧٨ من باريس بما يأتى :

« وصلنى اليوم كتابك وإني فى غاية السرور والغبطة لزوال ما بيننا من سوء تفاهم، وإنى أرحب من جديد بعلاقات الصداقة القديمة،

كما إنى أهز يدك التى قدمتها لى بملء المحبة ولن أنس صداقتنا الأولى كما أنى لن أنس أثرك فى نفسى فيما كتبته من كتب ومقالات كانت تجدد روعى .

أرجو أن نتقابل فى « أورل » فى الصيف، والى أن ألقاك أرجو لك كل خير » .

وفى أغسطس علم تولستوى بوجود ترجنيف فى تولا فذهب اليه ودعاه الى ياسنايا فأجاب الدعوة وقدم معه فى ٧ أغسطس وأمضى الصديقان القديمان يومين فى غاية السعادة والرضى يبحثان فى مسائل فلسفية ودينية متعددة .

وفى هذا العام بدأ يفكر فى كتابه أعظم كتاب من كتبه هو كتاب «اعترافى» .

وقد شرع فى الكتابة فيه سنة ١٨٧٩ وانتهى نهائيا منه فى سنة ١٨٨٢ وقد عنى فيه بكتابه كفاحه الشديد القاسى مع نفسه لمدة خمس سنوات من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٧٨ ؛ ولعل هذا الكتاب هو الحد الفاصل بين نوعين من كتاباته ، فكل ماكتبه قبله كان لايكشف إلا عن قوة ملاحظاته وذكائه فقط . فقد لاحظ مثلا حياته هو وحياة الآخرين وكيف يسير بهم العقل ثم شخص نفسه وحلل مشاعره وغيره على لسان أشخاص ذكر أسماءهم فى كتبه « الحرب والسلم » و « أنا كارنينا » وغيرها . أما كتاباته التى بدأت بكتاب «اعترافى» وما بعده فكانت تكشف عن آراء جديدة مختلفة وعما وصل اليه من حقائق عليا هامة وعن نتائج حاسمة وحلول

نهائيـــــة سليمة لأعظم المسائل ، ملقياً عليها كثيراً من النور الذى اهتدى اليه بشأن مشاكل الحياة الشخصية فاتسمت كتبه من ذلك العهد بهذا الميسم الجديد العظيم الذى قام على النزاهة المطلقة والصدق الخالص .

وقد قيل عن تولستوى بعد ذلك انه لم يوجـد فى كل التاريخ رجلا احتمل تضحيات كما احتملها هو من أجل قوله الصدق والحق .

وفى ربيع سـنة ١٨٧٨ قرأ تولستوى كتاب « رينان » الخاص ببعض المسائل الدينية وعلق عليه وبدأ يدّون مذكراته بعد أن أهملها ثلاث عشره سنة وأول ما كتبه فيها فى ٢٢ مايو هو :

« ذهبت إلى الكنيسة وقد ارتاحت نفسى ورضيت بما سمعت إلا عبارة « أهزم أعداءه » فأحسست بالاعتراض عليها وعدم الرضاء بها فانه لا يليق أن يصلى الانسان ضد أعدائه بل أن يصلى لأجلهم » .

وفى ٥ يونيه يوجد بها مايدل على حبه للطبيعة واكتشافه لنواميسها العجيبة الدقيقة .

وقد تبحر تولستوى فى كل أنواع العلوم واطلع على أربعة عشر ألف كتاب من مختلف اللغات وعلق على هوامشها .

وقد مرض لمدة أسبوع فى هذا الوقت وذهب إلى سمارا هو وأولاده وزوجته وفى أثناء سفره فى نهر الفولجا كتب فى مذكراته :

« قضيت الوقت فى النهر أستمتع بأحاديث الشيوخ الحكماء من الفلاحين وأستشف الحكمة والبساطة فى حياتهم .... ما كان أجمل أحاديثنا عن الايمان » .

وقد بان عليه فى بشكل ظاهر فى هذا العهد حبه للبسطاء من الناس ورغبته الصادقة فى معاشرتهم وفى خدمتهم بعد أن قضى أعوامه الماضية فى أبهة الأشراف وعزلتهم وترفعهم عن الاجتماع بالناس.

وفى ٨ نوفمبر سنة ١٨٧٨ كتبت الزوجة إلى أختها ما يأتى :

« لقد انصرف تولستوى بكليته إلى البحث الدينى والى الكتابة فيه . إن عينيه ثابتتان مستقرتان . ويتكلم نادراً . ويظهر كأنه ليس من هذا العالم وأصبح مستحيلا عليه أن يفكر فى أمور الحياة العادية التى تهم الناس عادة » .

وما جاء آخر هذا العام حتى ظهر على تولستوى التغيير العظيم الهائل فى نفسه وفى مبادئه. فقد أدرك أن المسافة التى قطعها من حياته كانت خاطئة وكانت باطلة فحول اتجاهه من جديد الى اتجاهات أخرى مختلفة كل الاختلاف .. كل شىء فيه قد تغير، فالعظمة والثراء والأبهة والشهرة أصبحت فى نظره شراً، أما التواضع والفقر وانكار الذات وخدمة الآخرين فهى كل الخير وقد وصل إلى هذه الحالة تدريجيا بوسائل خفية كانت تعتمل فى داخله بين آن وآخر .

« لقد ولد تولستوى الولادة الجديدة » .

١٨٧٩

وفى مارس سنة ١٨٧٩ كتبت الزوجة الى أختها أيضا : —

« إنه يقرأ . ويقرأ . ويقرأ . وإنه يكتب قليلا وأحيانا يقول: إنها سائرة فى طريق الوضوح والظهور .... آه يا إلهى إن ما سأكتبه سيكون هاماً جداً » .

وفى ابريل سنة ١٨٧٩ كتب الى صديقه «فت» يخبره أنه قاطع الصنف وانه ينصح غيره بكل إخلاص أن يقاطعها .

ثم كتب له فى ٢٠ مايو سنة ١٨٧٩ ، بعد ذلك يعتذر عن عـــدم زيارته بسبب امتحانات الأولاد وبسبب انصرافه إلى التمتع بجمال الربيع وقال عنه : «إن روحى لم تتمتع بدنيا الاله كما تمتعت بأيام الربيع الساحرة هذا العام » .

وفى يونيه سنة ١٨٧٦ ذهب إلى « كيف» حيث يحج كثير من المسيحيين ولكنه لم يسر بهذه الزيارة وعاد إلى ياسنايا بعـد أن زار صديقه «فت» .

وقد اهتم باللغة التى يتبادلها الناس والتى تصلهم ببعضهم فكان فى كل يوم يعنى بانشاء ودى جديد أو بتعبير جميل أو بكلمة طيبة وكتب إلى «فت » فى ١٣ يوليه سنة ١٨٧٩ :

« إنى أعذب نفسى ... إنى منزعج ... أحاول تصحيح ذاتي .. أحاول أن أتعلم .. » .

وفى ٢٨ يوليه سنة ١٨٧٩ كتب له : —

«أنا لا أكره الحياة العملية ولا أنكر وجوب العمل لكى يقوم الانسان بأود حياته ولكن الحقيقة أن معظم حياتى وحياتك منصرفة إلى سد حاجاتنا وشهواتنا الغير طبيعية والغير ضرورية والتى اخترعناها نحن ... وإنى أؤكد لك أنى أحب أن يكون مبدئى هو أن أعطى الناس أكثر مما آخذ منهم ... » .

وكتب له فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٩ ينصحه بقراءة سفر

الأمثال وهى حكم سليمان وآرائه باللغة اليونانية .

وكان فى هذا الوقت أكثر تعبداً وتديناً من القسوس أنفسهم وعند نشوب الحرب بين روسيا وتركيا وجد أن الكهنة يقيمون الصلوات والابتهالات إلى الله أن يهزم أعداءهم وأن يكسر شوكتهم وأن يحطم حياتهم وأن ينصر بلادهم فقط وأن يعينهم على تقتيل المئات والألوف من جيوش الأتراك فلم يرتح لهذه الصلوات الشريرة ولم يعجبه هذا التطبيق الخبيث الفاسد للدين فكره هذه التعاليم ونقم عليها كما رأيت .

وفى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٩ ولد له الولد العاشر « ميشيل » وكان عدد أولاده فى هذا الوقت سبع لأن ثلاثة منهم ماتوا فى طفولتهم

وإن أخلاق تولستوى الجديدة المبنية على التدين الحقيق والسماحة والصفح والصلاح قربته الى كل الناس وحببته اليهم إلا إنه هو رغب عن الالتصاق بالاغنياء وبالطبقات العليا .

وكن من عاداته أن لا يهتم بمصير كتبه بعد أن يفرغ من كتابتها وبعد أن تخرج من يده الى المطابع .

١٨٨٠

وفى سنة ١٨٨٠ عاد ترجنيف الى روسيا ليشترك فى الاحتفال بمرور ثمانين عاماً على ولادة بوشكين الكاتب الروسى المعروف فاستعانت به لجنة الاحتفال للتأثير على تولستوى ليشترك معهم فى هذا الاجتماع لأنه كان مفهوماً بينهم أنه كان يكره مثل هذه الاجتماعات وأمثالها المبنية على التظاهر والتفاخر وأنه يقاطعها فذهب ترجنيف الى تولستوى فى ياسنايا ومكث عنده

عدة أيام ليقنعه ولـكنه فشـل فى سعيه لأن تولستوى رفض الاشتراك معهم رفضاً باتاً حاسماً بعد أن قام بواجب الحفاوة والاكرام لصديقه ورغم أنه كان من المعجبين جداً بپوشكين . وطالما أظهر ترجنيف أسفه الشديد لأن تولستوى أبطل كتابة الروايات وانصرف الى المواضيع الآلهية العويصة .

ثم بدأ تولستوى يكتب اعتراضاته على العقائد الدينية الطقسية المتعصبية لأنه لم يكن ليؤمن ببعض تقاليد الكنيسة وتعاليم الكهنة ولأنه كان يهتم كل الاهتمام بالانجيل ذاته ففهمه فهماً صحيحاً ارتفع بواسطته بالديانة المسيحية الى مستوى سـام عميق بسيط واضح وقال « ان الايمان فضيلة عظمى ولكن الايمان الصحيح لا يدرك بحسن استعداد الانسان لتصديق كل مايلقى عليه ولـكن بالسعى والاجتهاد والعمل وإعمال العقل والبصيرة . وقال إن كثيراً من تعاليم الـكنيسة الروسية يؤدى بالناس الى عدم العناية بالفضائل الأساسية التى كانت هى « أهداف المسيح » والانصراف عنها الى مسائل ثانوية غير مفيدة. وقد كتب عن هذه المواضيع عدة كتب هى من أثمن ماوضع فى هذا الشأن . وقد كان لهذا أثره فى إيجاد العداء بينه وبين الـكنيسة كما سترى .

٨

وقد أدى تغير تولستوى وتمسكه بمبادئه الجديدة الى تعمد إهمال شئون أملاكه حتى نقص الايراد الى ٥٠٠ جنيه فى السنة فقد كره أن يكون غنياً ذا مال كثير وأطيان وافرة وأراد أن يتخلص من امواله التى كثرت ونمت واتسعت اتساعاً هائلا فكانت زوجته تقاومه وتستعدى عليه الحكومة التى لم توافق على رغبة تولستوى فى التنازل عن أملاكه للغير من الفقراء الروسيين . فوجد أن خير وسيلة تريحه هى أن يهمل هذه الأباعد وأن لا يعنى بتحصيل ايرادها .

١٨٨١

ولكن فى سنة ١٨٨١ تدخلت الكونتس وعنيت هى بادارة الأموال وكتبت مرة لأخيها تقول .

« ليتك تعرف أو ترى تولستوى الآن !! لقد تغير تغيراً كبيراً !! لقد أصبح مخلصاً ونزيهاً الى أقصى حد ولكنه قد شاخ وشاخت صحته وأصبح أكثر هدوءاً وأكثر صمتاً يميل الى التفكير الطويل فى الموت » .

وفى أول مارس سنة ١٨٨١ اغتيل القيصر الكسندر الثانى بواسطة أحد أعضاء جمعية ثورية فحزن تولستوى جداً من أجل هذه الجريمة ولكنه حزن أيضاً وانزعج انزعاجاً كبيرا من أجل الحكم بالاعدام على خمسة من التآمرين بينهم سيدة وقال « لو أن القيصر عفى عنهم لكان ذلك أفضل بكثير . . » .

وكتب بهذه المناسبة الى اسكندر الثانى خطاباً قال له فيه : —

« إنى شخص ضعيف مجهول لا أستحق شيئا، أكتب لأنصح امبراطور

روسيا الكبير . ورغم انى اشعر بأن هذا أمر غريب وغير لائق فانى لابد أن اكتب لك . . .

إنى أكتب لك لا لأني أريد أن أضع نفسي موضعاً رفيعاً ولكن لانى اخشى إن أنا سكت عن الكتابة أن ألاقى توبيخاً وتأنيباً من ضميرى لأني لم أعمل ما يجب على ان اعمله .

وانى لا أكتب لك قولا مزخرفاً منمقاً مما يعجب الملوك عادة ولكنى أكتب لك كما يكتب الرجل الى الرجل إذ أن احترامى الحقيق لك كرجل وكقيصر يظهر أكثر بغير هذه العبارات المزوقة الكاذبة . إن والدك كان رجلا شفيقا رحيما وقد قام بأعمال كثيرة مفيدة وطالما رغب فى خير الشعب ثم قتل ، ولكن لا من أجل عداء شخصى بينه وبين أحد ولكن العداء كان موجهاً الى النظام وإن هؤلاء الأعداء الذين قتلوا والدك لابد أنهم يعتقدون بأنك أنت أيضا عدوهم لأنك مثله ولأنك حللت محله ولابد أنهم ايضا يودون لو يقتلوك » .

ثم أخذ يشرح له فضيلة الصفح والتسامح ومحبة الأعداء طالباً منه العفو عن المحكوم عليهم بالاعدام لأن الشر سوف ينتج الشر. أما مقابلة الشر بالخير فهى تنتج دائماً الصلاح والسلام واستطرد الى أن قال :

« ليس من المهم أن تقتل عدداً من الأشخاص بل المهم أن نقدم المثل الصالح للناس » .

ومع ذلك فقد نفذ حكم الاعدام وحزن تولستوى من أجل ذلك حزناً عميقاً حتى حرم من النوم عدة ليال .

وفى ١٠ يونيه سافر إلى دير Optin «أوبتن» ومعه خادمه وقضى بعض الوقت هناك تفقد فيه بعض شئون الدير ومكتبته وهناك وجد سيدة تطلب أن تشترى الكتاب المقدس ذاته ولكن الراهب اختار لها كتاباً آخراً مبيناً فيه حاله الأديرة والعجائب التى قام بها القديسون فما كان منه إلا أن تعجب واشترى الكتاب المقدس نفسه وقدمه هدية لهذه السيدة وطلب إليها أن تقرأه وأن تدع ابنها أيضاً يقرأه ؛ وبمجرد أن عرفه أهل الدير نقلوه إلى أفخر مكان هناك رغم معارضته الشديدة فى ذلك وهناك تحدث إلى أحد الآباء المشهورين نحو أربع ساعات فى المسائل الدينية المختلفة .

ثم أخرج فى هذا العام كتاب « بماذا يعيش الناس ؟ » التى قالت عنه ملكة رومانيا : —

« إنه يشتمل على حكايات هى من أعظم ما كتب وكان له أقوى الأثر علىّ ومما سيكون كدانتى وشاكسبير والتوراة أثراً باقياً لأنه يحوى حقاً أبدياً . ولو أن تولستوى لم يكتب غير هذا الكتاب لظل معتبراً من أحسن كتاب العالم ؛ ولا شك أنه حين كتبه كانت كل أفكاره طاهرة سامية » .

وقد وضع الكتاب فى شكل قصص لفائدة الفلاحين والأطفال ولكن جميع الطبقات استفادت منه وترجم إلى عدة لغات .

وفى ٩ يوليو سنة ١٨٨١ حدث أن كان بولونسكى الكاتب المعروف ضيفاً على ترجنيف وظل ساهراً يكتب إلى الساعة الواحدة بعد نصف الليل إلى أن أحس فجأة بوقع أقدام الخيل تجر عربة

وأحس بدخول شخص عليه وسرعان ما رفع بصره ليعلم من الزائر حتى وجده تولستوى فتعجب منه حين عرفه لأنه لم يكن قد قابله منذ عشرين سنة خلت وقد رآه فى هذه اللحظة فى صورة غريبة من البساطة والتواضع يلبس لباس الفلاحين العادين ويظهر بمظهرهم فناداه تولستوى «أهذا أنت يابولونيسكى؟» ثم اجتمع ثلاثتهم حتى الساعة الثالثة صباحاً. وقد ذهل بولونيسكى عندما وجد تولستوى رقيقاً طيباً بسيطاً فى كلامه حكيماً فى تفكيره وفى تصرفاته متمسكا فعلا بما يراه وبما يعتقده حتى قال:

« يخيل إلى أن تولستوى ولد ولادة جديدة بإيمان جديد وقلب جديد ومحبة جديدة. إنه لا يحاول أن يفرض علينا آراءه ولا يحاول الضغط علينا فى سبيل إقناعنا بها... إنه يصغى بكل هدوء إلى اعتراضات ترجنيف. إنه ليس بالكونت تولستوى الذى عرفته فى شبابه أبداً... ».

وكان ترجنيف فى هذه الأيام يكثر من الحديث عن تولستوى ويصفه بأنه رقيق طيب كريم وبأنه مؤلف عظيم وقد خرج مرة وبيده كتاب لتولستوى « الحرب والسلم » وأخذ يقرأ فيه للناس فصلا من فصوله ويقول « إنى ما رأيت وصفاً فى حياتى للحرب أبلغ وأعظم من هذا - هكذا تكون الكتابة ».

وقد ذهب تولستوى فى شهر يوليو إلى عزبته فى سمارا وأقام بها راضياً مسروراً من أهلها ومن تفكيرهم ومن حياتهم ثم أحس بعطف وافر على الفقراء، وبحث مشكلة الملكية وفكر فيها تفكيراً

عميقاً فأنكر على نفسه الثراء وكره الغنى والمال .

ورغم أنه كان من غواة الخيل إلا أنه كتب فى مذكرته فى ١٦ يوليو سنة ١٨٨١ : «إنى ذهبت اليوم لأفتش على خيولى الكثيرة... أي، عمل مزرٍ هذا ... إنه لعمل بليد .. »

وقد أرسلت له زوجته تعتب عليه بقاءه طويلا فى عزبته هذه ولكنها فى الوقت نفسه كتبت له أنها جد سعيدة عندما علمت أنه يكتب كتاباً هاماً وتمنت له أن تلتهب وتنتشر فى رأسه تلك الشعلة الالهية العظيمة . فرد عليها بخطاب رقيق يستحلفها فيه بالسماء وبحبهما أن تعنى بنفسها وبصحتها .

ثم عاد فى أوائل أغسطس إلى ياسنايا واستقبل فيها ترجنيف ضيفاً ولكنه كان فى هذه المرة غير راض عنه لأن ترجنيف كان يحيا حياة الترف واللهو وكان يخاف عند ذكر اسم الله وإن كان يؤمن بوجوده وكتب فى مذكرته «ترجنيف . . . . ترجنيف .... إنه لأمر محزن أن أراه هكذا . . . »

أما زوجته فعلقت على زيارة ترجنيف بما يأتي : --

« إنه الليلة مرح . . وقد رقص مع بنت عمى . . وأخذ يعمل برجليه حركات مختلفة قال عنها إنها رقصة خاصة فى باريس وكان ينظر إلىّ بعناية ورفق وقال لزوجى بأنه سعيد الحظ لانه وفق الى الزواج منى » .

وفى أول سبتمبر كتب فى مذكرته :

«إنى كثيراً ما أحب أن أموت .. إن عملى لا يستنفد كل وقتى»

وكان ابنه «سيرجى» قد بلغ الثامنة عشر وعلى وشك الدخول فى الجامعة كما بلغت ابنته «تانيا» السابعة عشر فسافرت العائلة الى موسكو فى نصف سبتمبر وأقامت هناك رغم أن تولستوى كان لا يرحب بالحياة فى هذه المدينة بعد أن اعتاد حياة القرية وكتب فى ٥ أكتوبر سنة ١٨٨١ عن إقامته فى تلك المدينة :

« لقد مضى علىّ قرابة شهر فى موسكو كانت معظم أيامه فى غاية الألم لنفسى.... كل الناس تعمل ولكن لاهداف غريبة عجيبة . . . متى يبدأون يحيون ؟ إنهم يعملون لا ليعيشوا ولكن ليعملوا ما يعمله الآخرون .. . مساكين ... سيئى الحظ . . إنهم لا يعرفون معنى الحياة ....» .

وفى ٤ أكتوبر سنة ١٨٨١ كتبت الكونتس إلى أختها :

« إن تولستوى كثير الحزن وطالما رأيته يبكي أما أنا فكدت أجن وقد ساءت صحتى ونقص وزني » .

وقد سافر هو الى زيارة صديق له ثم سافر الى الريف ليقابل شخصا ترك عمله لأنه اقتنع بأن العمل المسمم بروح التنافس هو أمر غير متفق مع الأخلاق السليمة ثم تنازل عن ديونه التى كانت له على الناس كما أن ابنه اعتنق نفس الفكرة ورفض أن ينتظم فى سلك الجندية واحتمل فى سبيل ذلك السجن ، وكذلك كثير من أفراد أسرته فقد رفضوا التقاليد الموضوعة والغير المفهومة التى كانت تأمر بها الكنيسة .

ولقد تأثر تولستوى كل التأثر من حالة هذا الرجل الذى كان

يعمل فى صناعة القبور والذى سرعان ما آمن بآرائه حتى قام بتنفيذها فعلا مطبقا مبادئه وفلسفته .

وكان تولستوى يذهب الى النهر والى الحقول وإلى أحد التلال حيث يشتغل بشق الأخشاب وهو راض سعيد .

وكتب تولستوى الى صديقه « الكسيف » يقول :

«أنا لست أنسى أنك أول صديق اعترفت بالايمان الذى أصبح لى ولنفسى نوراً قوياً واضحاً ولهذا ستظل كما أنت حبيبا الى نفسى قريبا الى قلبى ولكنى لاحظت فى كتابك الاخير كثرة اهتمامك بالمسائل العالمية كما كنت أنا من قبلك ولكنى الآن قد أدركت أن هذا سخف وأن الايمان الحقيقى لا السطحى هو الضرورى اللازم لى ولك . وأن أهم شيء هو أن يكون الانسان فعلا مثلا صالحاً للغير . ولئن كان ذلك عسيراً وتأثيره بطيئا غير محدود الا أنه هو الوحيد الذى يستطيع أن يحرك نفوس الغير ويعمل فيهم وهذا هو ما نحتاج اليه أنا وأنت ... دعنا نساعد أحدنا الآخر فى هذا السبيل . أكتب لى ولنكن أخلص وأصدق ما يمكن لبعضنا ».

ولكن هذا الصديق بالأسف تزوج بعد ذلك من سيدة جميلة وهجر حياته البسيطة وعمل كناظر لاحدى المدارس .

اقتنع تولستوى كل الاقتناع وآمن كل الايمان بأن السعى المتواصل فى سبيل الصلاح والتقدم بالحياة الشخصية يوماً بعد يوم هو أعظم الاهداف وأصدق الغايات ولكنه لم يستطع أن يغير نفسه فى الحال دفعة واحدة بسبب كثرة أملاكه وسعة ثروته وتعدد روابطه

العائلية ومعتقداته التقليدية فتضاربت أفكاره وتصرفاته من أجل التوفيق بين الحق والواقع .

وقد كتب مرة أخرى إلى "الكسيف" :

«انه قاس عليّ أن أظل في موسكو وقد امضيت بها للآن شهرين ثقيلين .. إني أرى الشر ظاهرا مجسما محيطاً بي في كل مكان يزعجني ويجلب على اليأس ويوحى إلى بعدم الثقة والاطمأنينة .والذى يدهشنى أن الناس لا تراه ! خيل إلى أولا أن أمام الانسان طريقين هما اما أن يستسلم لليأس ويعيش في حياة سلبية، وأما أن يتهادن مع الشر وينفذ مطالبه، ولكن من حسن حظى أني لا أستطيع أن أرضى بالحالة الأخيرة كما أن الأمر الأول هو مزعج لى،ثم ظننت أن أحسن حل هو أن أرشد غيرى عن طريق نشر آرائي بواسطة الكتابة والمحاضرات ولكنى خفت على نفسي الغرور والكبرياء وحب الذات، وأخيراً وجدت الحل الأخير وهو أن أحيا فعلا حياة طيبة رفيعة وأن أفتح قلبي للجميع ولكنى لم أهتد بعد إلى كل مايصل بي إلى هـذه الغاية لأنى لازلت مضطرباً بسبب مايحيط بى من أنواع الشرور .

إني أقضى بعض الوقت في البيت وفي الصباح أقوم ببعض الأعمال التى لاترضينى وفى الساعة الثانية أو الثالثة أعبر النهر لأقوم بنشر الخشب الذى يجدد نشاطى ويؤدى إلى تحسين صحتى ، أما فى المساء فانى أستقبل زائرين كثيرين يتبادلون معي الأحاديث الفارغة مما قد يؤدى بى الى مقاطعتهم . . » .

وفى آخر نوفمبر أرسل يعتب على صديق من أصدقائه يتفق معه

فى كثير من المشاعر الطيبة والآراء السليمة ولكنه لايطبقها عملا فرد عليه الصديق بما يأتي :

« إنه يعوزنى الشعور القوى العظيم الذى تتميز به أنت ولكننى أقول لك الحق انى لا أحب فى سبيل الوصول اليه أن أرهق نفسى أو أزعجها كما إنى لاأريد أن أكون منافقاً فأتظاهر به كذباً ... من أين أحصل على كل هذا الاخلاص وهذه الحرارة التى تفيض على مشاعرك أنت ؟؟ كن شفيقا بي ياصديق ولا تكرهنى من أجل ضعفى هذا ومن أجل هذا البون الشاسع بين خلقك وخلقى . إنى مدين لك بكل لحظات سعادتي فى حياتى فلا تلتفت فقط الى نقائصى وعيوبى بل أذكر ماقد تراه أيضاً فىّ صالحاً وحاول أن تصلحنى وترشدني بقدر الامكان فانى كما تعلم مصغ لك بكل جوارحى » .

وفى ٣١ اكتوبر سنة ١٨٨٠ ولد له ابن سماه « الكسى » .

وقد زاره فى هذا الوقت الروائى المشهور « بوبويكنز » فوصف تولستوى بما يأتى : —

« كان متوسط العمر لم يظهر عليه الشيب كثيراً ذا وجه ينم بوضوح على العطف والرحمة والصلاح ، لايتمسك بمظاهر الثراء والامارة مما كان لايرضى زوجته ويثير اعتراضها ؛ أما هى فكانت لطيفة وجميلة معنية كل العناية بلباسها وهندامها ذات صوت جميل وتسير فى خفة ورشاقة » .

٩

١٨٨٢ وبينما كان فى موسكو دهش من حالة الفقر الضارب أطنابه بين الناس فى كل مكان فأخذ يفكر ويتساءل لماذا يعيش أكثر الناس فى فقر ؟ وكتب على أثر ذلك كتابا من أعظم الكتب هو «ماذا يجب اذاً أن نعمل؟» بدأه فى هذا العام وانتهى منه سنة ١٨٨٦ وكان له من الأثر على نفسه وعلى غيره مالم يبلغه كتاب قط فى التاريخ ويحسن بمن يحبون تولستوى أن يطلعوا عليه وقد أفاض فيه بشكل واضح فى بيان أحوال روسيا وأنظمتها التى لم تعد ممكنة الاحتمال وأهاب بالأشخاص المثقفين أن لا يستريحوا حتى يغيروها . كما بين فيه مدى الفقر وعلته وأسبابه وعلاجه ثم وجه فيه سهام النقد إلى الأغنياء الذين رماهم بالبلادة والكسل وبأنهم يعيشون كالحشرات الطفيلية على حساب غيرهم وعلى مجهودات غيرهم . واليك شيئا مما قال :

« يوجد بيننا نحن الأغنياء وبين والفقراء سد منيع يقوم على تعاليم وأفكار كاذبة وخادعة وقبل أن نحاول أن نخدم الفقراء أو ندعى القدرة على مساعدتهم يجب علينا أولا وقبل كل شىء هدم هذا الجدار الفاصل .

لقد وصلت أنا الى الحق وعرفته ووثقت به وهذا الحق هو أن ثراءنا هو السبب الوحيد فى شقاء هذا العدد الوفير من عامة الناس . هناك خطأ كبير فى الهيئة الاجتماعية لاتصلحه الثورات الدموية

ولكن الأغنياء هم الذين يجب أن يعملوا شيئا فى سبيل إصلاحه . . .
يجب أن يطبقوا فعلا مشاعر الانسانية — نحن حقيقة فى حاجة
الى ثورة ولكنها ليست ثورة دموية بل ثورة فى ضمائر الأغنياء وفى
قلوبهم تدفعهم الى التنازل طوعا واختيارا عن غنائم والى عدم التمسك
بحياتهم البليدة المليئة بالكسل والتعطل » .

وقال : —

«إن العجب ليس فى أن نرى الجياع والعراة ولكن العجب إن
تعيش نحن معهم وبجوارهم ولدينا وفرة من المال ووفرة من الفراغ....
والعجيب أننا نعرف ذلك جيداً وندركه كل الادراك ولكننا نقف
صامتين متجاهلين !!».

ثم قال : —

«انى أؤمن من كل القلب وأدرك ادراكا واضحا بانه مادام هناك
عشرات الألوف والملايين من الناس يعيشون فى الفقر والحاجة
وما دمت أنا وقليلين غيرى نتمتع بالغذاء الوافر والكساء الفاخر
ونغطى خيولنا بالجوخ واراضى غرفنا بالطنافس فهذا هو اكبر الجرائم
مهما قال كبار العلماء فى تبرير هذا الحال .

إنها لجريمة... وانها تتكرر كل يوم... وأنا فى ترفى انما أشترك...
فيها ولذلك فانى شعرت وأشعر وسأظل أشعر بأنى مرتكب لجريمة
مستمرة مادمت أملك ثوبين وغيرى لا يملك ثوبا وما دمت أتمتع
بألوان الطعام الشهى وغيرى لا يجد قوته الضرورى » .

وكان يرى ان الاحسان الى الفقراء رغم أنه جميل ليس مفيداً الا فى حالات الاسعاف فقط وليس هو السبيل الى الاصلاح .

وفى ٢٨ فبراير كتبت الكونتس فى مذكراتها :

ان كل شىء فى موسكو عظيم لولا أن زوجى يكره حياة المدن التى يقول أنها مليئة بالرفاهية واللهو والكسل ».

وفى هذا التاريخ بلغ الخلاف فى الرأى بينه وبينها أشده وقد قيدت فى مذكراتها فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ :

«منذ عشرين سنة ماضيه كنت شابة وكنت سعيدة وكانت مذكراتى تفيض بالحب لزوجى أما الآن فانى أجلس مهمومة ، أقضى الليل لوحدى ، أقرأ مذكراتى السابقة وأبكى فيها حبى المفقود . لقد هجرنى زوجى إلى غرفة مكتبه وأصبحنا نختلف على أصغر المسائل وأتفهها ، ولقد هاجمته مراراً من أجل عدم العناية بأبنائنا ومن أجل عدم ملازمته « ايليا » فى مرضه . . . . إيه ولكن هناك ماهو أهم من ذلك فقد فترت علاقته بى وقد قال لى اليوم بأنه يحب من كل قلبه أن يتركنا .... لن أنسى له هذه الكلمات فانها قد مزقت قلبى ... انى أطلب الموت فان الحياة بغير حبه مزعجة .... ولكنه مشغول عنى مأخوذ بالتفكير والسعى الى محاولة السير فى طريق كمال نفسه والسمو بروحه .... إنى أغار عليه .... أريد أن أموت فان أفكارى اختلطت واضطربت ... ولكن بعد قليل تلاقينا وبكينا وعرفت أن حبه لى لم يمت » .

ان فواصل جمة نشأت بين الاثنين وأهم أسبابها هو تغير

تولستوى من جهة نظره للحياة مخالفا فى ذلك طبعا وجهة نظر الزوجة ولكنها بعد عام تقريبا فى مارس سنة ١٨٨٣ كتبت :

ان تولستوى هادىء ورقيق ويزداد عطفاً ومحبة وان غضباته أصبحت أقل حدة وأقصر مدة» .

عاد تولستوى من موسكو الى ياسنايا ولجأ فيها الى الاعتزال ليستعيد صحته وهدوءه وكتب الى زوجته فى موسكو يقول : —

«لا أجد أجمل من مكانى هذا وان اكبر شر فى المدن هو أما أن الانسان يتبادل المناقشات فى الكلام الفارغ الملىء بالأكاذيب والنفاق وأما أن يضطر الى سماعه والسكوت عليه . ومع ذلك فالاجتماع بالناس أمر ضرورى محتم على كل حال . . لاتقلقى على فان الانسان ملاق نصيبه فى أى مكان . . وانى هنا على أحسن حال » .

وفى فبراير سنة ١٨٨٢ ذهب الى موسكو ولكنه عاد فى الحال متضايقا .

وفى هذا العام بدأ يدرس اللغة العبرية .

وكتب الى زوجته مرة أخرى :

«لقد سكت عن عتابك وعن لومك من زمن طويل — انى كنت أقدم على ذلك فى الماضى رغم انه كان يضايقنى ولاأعرف لماذا لجأت اليه ، ولعل سوء صحتى هو الذى دفعنى اليه ولعل السبب كان هو عدم اختبارى ونضوجى . . أنت تقولين أنك تحبيننى وتقولين انى اصبحت فى غير حاجة الى حبك ولكن ثقى ان حبك هو الشىء الوحيد الذى أنا فى أشد الحاجة اليه وانه هو الذى يستطيع أن يمدنى

بكثير من الغبطة والسرور و الراحة .....»

وقد تعرف فى موسكو بشخص صار صديقا له فيما بعدهو «باى» الذى كان رساما مشهورا من اصل فرنسى شعر بفساد الحياة فلجأ الى الريف فى عزلة وهدوء وكتب فى مذكراته عن تأثره بتولستوى ما يأتى :—

«فى سنة ١٨٠٢ وقع بصرى على بعض كلمات للكاتب العظيم تولستوى ، قرأتها فى احدى الصحف فوجدتها ثمينة :ـ « ان ضآلة عاطفه المحبة فينا هى سبب كل هذا البؤس » ـ لقد تحولت نفسى وتيقظت روحى عندما تأملت هذه الكلمات وذهبت الى موسكو لابحث عن تولستوى العظيم وأقبله وأعمل تحت امره — وصلت الى داره ومعى معدات الرسم وقابلته وعانقته وقبلته وقلت له « تولستوى! » . هل تسمح لى ان أرسم ابنتك ؟

قال لا . ان كان ضروريا فلتكن زوجتى . ففعلت ومن هذه اللحظة أحببت الرجل لانه كشف لى عن مسائل كثيرة كانت مختفية عنى ، واكثر من ذلك فقد اتفقنا فى اميالنا وفى آرائنا ومبادئنا وعواطفنا وسائر اتجاهاتنا وظللت شهراً كاملا لا انقطع عن رؤياه كل يوم . »

وقد استمرت الصداقة الى سنة ١٨٩٤ حيث مات هذا الصديق كما ان « ستراخوف » كان ايضا صديقا حميما له وظلت عشرتهما باقية الى أن توفى أيضا هذا الصدين فى سنة ١٨٩٦ .

وفى غضون هذا العام أبطل اكل اللحوم .

وفى مايو من سنة ١٨٨٢ ذهبت الكونتس وبناتها بناء على طلبه الى ياسنايا وذهب هو إلى موسكو ليقيم مع أولاده الكبار فى الجامعة وليراقب طبع كتابه «اعتراف» ولكن الرقيب لم يوافق على طبعه فطبع بعد ذلك فى جنيف وترجم إلى اللغات الأخرى ،وقبل نشره كان الروسيون يحصلون عليه ويطلعون على مافيه بواسطة تهريب نسخ خطية منه .

وقد أرسل تولستوى نسخة منه إلى ترجنيف وطلب اليه أن يقرأ الكتاب بغير غضب وأن ينظر اليه من وجهه نظر الكاتب ، فكتب له ترجنيف يقول : « بكل تأكيد ساقرأه ملتزما الفكرة التى تطلبها منى وانى واثق من الآن أن كاتبه هو رجل حكيم ومخلص للغاية وقد لااتفق معه ولكنى قبل كل شىء سأفهم الكتاب وسأضع نفسى موضع المؤلف ، وأن من يغضب لايستطيع أن يفكر تفكيرا صحيحا، وان الشبان فقطهم الذين يغضبون لأنهم يظنون أن النور لايسكن إلا بصائرهم ولا يتخلل الا نوافذهم »

وفى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٢ كتب ترجنيف الى صديق له يقول: «لقد قرأت (الاعتراف لتولستوى) الذى منعه الرقيب وقد قرأته بشغف عظيم... أنه هائل يتميز بالصدق والاخلاص وقوة الحجة »

وفى هـــــذا السن كان تولستوى يحب أن لاينادى « بسعادة الكونت» وقد تنازل عن لقبه، وخاطبه مرة أحد الفلاحين بـ (سعادة) فأجابه تولستوى فى هدوء وبساطة :أنا اسمى فقط «ليو نيكولافتش» ثم انصرف بشكل طبيعى إلى التحدث معه فى المسائل الأخرى

وعندما كان يشرح بعض المبادىء السامية كان بعضهم يسأله أحيانا لماذا لاتعمل أنت بها كما هى ؟؟ فكان يجيبهم :

«أنظروا إلى حياتى الاولى وقارنوها بحياتي الحاضرة تجدوا أنى ساع فعلا وانى جاد فى محاولة العمل بمبادئى .

إنى حقيقة لاأستطيع أن أصل إلى كل ما أبغي وإنى ملوم لا لأنى غير راغب فى السعى أو مقصر فيه ولكن لأنى أجد نفسى أحيانا غير عارف كيف أصل ... انى أحب أن أتعلم كيف أتخلص من كل أهوائى ولى كل الثقة فى أن أنجح ... لاتلومونى فانى أنا ألوم نفسى دائما . .

إنى أحب أن أدل غيرى على الطريق الذى عرفته وعندما أعرف طريقى إلى بيتى وأصل اليه وأنا مثلا فى حالة سكر أترنح ذات اليمين وذات اليسار فهذا لايعنى أن الطريق هو المعيب بل إنى أنا المخطىء، ومتى عرفت الطريق فانى أحب أن أرشد غيرى إليه . أما اذا ضللته فانى أنتظر منكم أن تعاونونى وأن تساعدوني وترشدونى كما انى مستعد لمعاونتكم ومساعدتكم .

لاتفرحوا عندما تجدونى فى وقت ما ضعيفاً فانكم مثلى يجب أن تبحثوا معى لنهتدى الى دورنا . إن قلبي يتمزق من الألم عندما أجدكم لاتعاونونى حين أريد بكل قوتى أن أعرف الطريق ...

ثقوا إني أعمل بكل جهدى لاطبق مبادئي وعندما أفشل أندم، وإني أطلب أى معونة فى سبيل الوصول ، وإنى أفرح وأصغى الى أى شخص يحاول مثلى مخلصا أن يعرف الطريق .

وكان يتألم أحيانا حين لا يرى ثمرة مجهوده ولكنه فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٠٢ فهم بوضوح أن ليس هذا محلا للألم ولكنه نعمة وحكمة تتفق مع غرض الله .

« ازرع .... ازرع .... فهذه مشيئة الله ، وليس أنت الذى تجنى ولكن الله الذى فيك والذى يزرع هو الذى يتصرف فى الثمار .... »

١٠

ان تولستوى فى هذا التاريخ كأن سائراً بسرعة فى طريق القديسين فقد كان معنيا بأتمام مشيئة الله ، وكان يكره جداً أن يسمع ثناء أو أن يرى تـكريما .

وطالما كرر العبارة الآتية : « بعرق جبينك تأكل خبزك ».

وأراد أن يقوم بتأدية بعض الأعمال اليدوية ليضرب مثلا سهلا للاخرين فخرج بعد الساعة الثامنة يوما يحمل وعاء إلى البئر ليملأه وفعلا ملأه وعاد يحمله فى اتئاد وسكينة إلى أن وصل به الى المطبخ وهكذا عمل فى اليوم الثانى والثالث ، ومرة أخرى عندما انقطع الماء ذهب كغيره فى ثياب الفلاحين إلى النهر وعاد متعبا جداً وهو يحمل الماء ويقول :ـ

« ليس الهدف هو العمل ولكن الغرض من العمل ....»

وكان يوقد الموقد ويرتب غرفته وينظفها بنفسه كما كان ينظف حذاءه بيديه .

وفى أثناء الأكل كان يجلس على المائدة ويقدم له البريد الخاص فيلقى عليه نظرة سريعة ثم يتركه ويضع أربع بيضات فى الوعاء ويضع الماء والبن فى الوعاء الآخر وينتظر حتى ينضج الطعام ؛ وبعد قليل يستدعى على التوالى أولاده الكبار والصغار ، فيقبلونه ويجلسون حيث يشاءون حول المائدة ويتحدثون فى حرية وجزل فيما يريدون .

أما عن لباسه فقد كان يسير فى الشتاء لابسا ثوبا من جلد

النعاج وقبعة كذلك وحذاء من أحذية الفلاحين واضعا يده في جيوبه يزور أصدقاءه أو يجول بين الفقراء يساعدهم أو يبحث عن فكرة جديدة فاتحا قلبه وعقله للتأثرات الرقيقة النبيلة .

ولما مرضت مربية أولاده أصر تولستوى على أن يذهب بنفسه ليستحضر ابنها من الجامعة لتراه فاحتاطت هي للامر وأرسلت لابنها برقية تنبئه فيها بأن تولستوى بنفسه قادم له فعلم العميد والاساتذة بذلك وانتظروا بفارغ الصبر رؤيته ؛ ولكنه وصل ولم يعرفه أحد لبساطة هندامه فأجلسوه في مكان ما غير لائق ، وحضر له الابن فقابله تولستوى وحياه وحدثه باللغة الفرنسية مما أدهش الحاضرين لانهم لاحظوا أن مثل هذا الشيخ الفلاح يتحدث بالفرنسية ولكن أحدا لم يعرفه إلا بعد أن خرج فعلا وسار في الشارع بعيداً.

وان زوجته وكثيرا من معارضيه علقوا على سلوكه بما يأتى :ـ

« إنه مصيب كل الصواب ولكننا لانستطيع أن تقوم بما يطلبه ، لازال أمامنا خمسمائة عام حتى يستطيع الناس السير في الطريق التي يرشدنا اليها »

وفي شتاء هذا العام أخذ يدرب نفسه على الاعتدال وعلى الصبر وعلى أن لايتوقع أن يتحول الناس إلى أشخاص خيرين طيبين فجأة أو في فترة وجيزة ولا أن يقتنعوا بآرائه في سهولة ولا في أمد قصير .

وفي أوائل هذا العام بدأ يكتب كتابه « بماذا أؤمن » .

وعندما كان فى ياسنايا فى ابريل ١٨٨٣ شاهد آثار حريق فى عدة منازل وأحس ببؤس الفلاحين فكتب إلى زوجته يقول : —

١٨٨٣

« انى حزين من أجلهم وإنه لمن الصعب أن يصور الانسان مايلاقونه باستمرار من مشاق وصعاب ، ان حنطتهم جميعها قد حرقت وان الانسان ليأسف لهم ويعجب بهم عندما يرى فيهم هذا الجلد وهذا الاستقلال وهذه الثقة الهادئة . وإنى أرجوك أن تخبرى أخى بأن يرسل لهم ٨٠٠ أردب من الحنطة وأن يقيد الثمن على حسابى .... » .

ثم أرسل لهؤلاء الفلاحين الاخشاب الكافية ليعيدوا بها بناء أكواخهم .

وقالت عنه (أنا سيرون) المربية : « إنه كان يجلس أحيانا على الطريقة التركية بسيقانه تحته وأحيانا على طريقته هو (الطريقة التولستويه) بوضع ساق واحدة تحت الاخرى يسمع لشكاوى الناس ومتاعبهم فى الحياة ويرد على كل واحد منهم ببضع كلمات حكيمة صالحة كما كان يقول لكل واحد « أحبب لجارك ما تحب لنفسك » ، ولكن فى بعض الاحيان القليلة النادرة جدا كانت تظهر عليه لسبب انحراف فى مزاجه علامات بسيطة تدل على روح السيادة التى كانت متأصلة بين الساده والفلاحين فى روسيا .

وفى مايو سنة ١٨٨٣ ذهب الى عزبته فى سمارا حيث قابل هناك بعض الثوار السياسيين ونصحهم بأن لايقاوموا الشر بالشر بل بالمحبة والصبر والتعقل .

وفى يونيو سنة ١٨٨٣ عند ما كان فى سمارا وصله خطاب من ترجنيف الذى كان مريضاً مرض الموت فى بوجيفال ولكنه جاهد نفسه فكتبه بيده بالقلم الرصاص ولم يستطع التوقيع عليه واليك صورة الخطاب : —

« عزيزى تولستوى الرقيق

لم اكتب لك من زمن طويل لأني أقول لك الحق بأني ملازم فراش الموت ، وانى بكل تأكيد سوف لا أشفى، وانى اكتب لك خصيصا لأؤكد لك سرورى بصداقتك وزمالتك ولا عبر لك عن آخر أمنية لى

عد يا صديقى الى نشاطك فى كتابة الروايات فكم اكون سعيداً لو استطعت أن أعرف أن هذا الرجاء سيكون مقبولا لديك ، إن الأطباء يائسين من حالتى وإني غير مستطيع السير ولا الأكل ولا النوم.

يا صديقى يا أعظم كتاب أرض روسيا اصغ الى ملتمسى وارجو ان تفيدنى بأن هذا الخطاب وصلك ثم اسمح لى أن اقبلك . . . لا استطيع أن أكتب أكثر . . . انى تعيس .. »

أن مثل هذا الخطاب يدل على ضيق آفاق ترجنيف وأمثاله فان الأدب الذى يخلو من السعى وراء الحقيقة والذى لا يجعل هدفه الرقى الروحى والأخوة الشاملة التى كانت هدف تولستوى من طفولته حتى شيخوخته لا يمكن اعتباره أدباً رفيعا .

وأكثر من ذلك فقد كان ترجنيف فى هذا الوقت غير ملم تمام الالمام

بما صار اليه تولستوى ولا بما كان يكتبه من الكتب العظيمة فى النواحى الاخلاقية والاجتماعية .

وقد رأى تولستوى أن يتأخر قليلا عن الرد على هذا الكتاب ليتمكن من كتابة رد سديد مفصل، ولما أراد بعد ذلك أن يجيب على هذا الخطاب علم بأن ترجنيف مات فى ٢٢ أغسطس سنة ١٨٨٣ .

وفى سبتمبر سنة ١٨٨٣ ذهبت العائلة الى موسكو وبقى هو فى ياسنايا، وقد طلب اليه أن يكون محلفا فى المحاكم ولكنه ذهب إلى المحكمة وأخبرهم فى هدوء وأدب بأنه لا يحب هذا العمل ثم رفض بعد ذلك حضور الجلسة عدة مرات فحكم عليه بالغرامة ولكنه ظل رافضاً .

وفى اكتوبر ذكر اسم ترجنيف كثيراً وقال انه يحبه حباً جماً ويعجب بكتابه « كفى » ولكنه يشفق عليه من أجل انصرافه عن الصلاح والتقوى .

وقد تعلم فى هذا الوقت صناعة الأحذية كنوع من الرياضة وصنع لنفسه حذاء للصيد ، وكان يسر عندما يمدح الناس صناعته التى لم يتقنها فى الواقع الى الحد الأقصى ، وكان يتوقف أثناء كتابته ليعمل فى الأحذية واجداً فى هذا رياضة وراحة .

١٨٨٤ وفى ٢٢ يناير سنة ١٨٨٤ انتهى تولستوى من كتابه (بماذا أؤمن) الذى طبع فى جنيف وترجم إلى اللغات الأوربية الأخرى ولكنه لم يسمح بنشره فى روسيا إلا أن الروسيين كانوا يقرأونه من نسخ مهربة .

وكان من بين أصدقاء تولستوى ضابط قديم إسمه «شرتكوف» كان متفقاً معه فى تفكيره وكان والده رجل غنى وكانت أمه صديقة للامبراطورة ، اما هو فقد خرج عن هذه البيئة ونبذها وشعر بنفس مشاعر تولستوى وسار فى نفس الطريق وكره الحرب والجندية وسائر ما كرهه تولستوى الذى قد عرفه فى موسكو فى آخر سنة ١٨٨٣ودامت صداقتهما مدى الحياة لاتفاقهما الى أكبر حد فى المبادىء .

وليس صحيحاً مايقال عن تولستوى بأنه عاش فلاحا يكسب قوته من الفلاحة بيديه وأنه هجر الكتابة والفن وليس صحيحا أيضا عكس هذا مما قيل من أنه كان يلبس الحرير تحت الملابس الخارجية ولعل الخطأ نتج من أن تولستوى رؤى مرسوما يحرث الأرض كما كان يحتفظ بصور ظهرت فيها بعض أدوات الفلاحة معلقة على حوائط غرفته .

وأكبر الخطأ حدث بسبب وجود صورة شخص مسكين فقير مرتديا لباس الفقراء والفلاحين وضع فوقها أحد الرسامين المشهورين صوره رأس تولستوى تكريما له وتبيانا لعطفه وحدبه على الفلاحين وطالما طبعت ونشرت على أنها « تولستوى فى رداء صنعه بنفسه » أو « صورة تولستوى أخذت له فجأة منذ عشرين سنة » وهكذا ، وكل ذلك خطأ فان الرسام قصد بها صوره رمزية تدل على حبه للاعمال اليدوية وللفلاحة وللفلاحين إلا أن التجار استغلوها وقلبوا معناها

وفى ٢٨ يونية سنة ١٨٨٤ ولدت له إبنته « الكسندر » وقبل

ميلادها بيوم واحد غادر المنزل وهو لا يعلم بميعاد الوضع لأنه لم يطق العيش مع زوجته التى أصبحت تختلف معه فى كل شىء ؛ ولما شعرت بغيابه قلقت وانزعجت وأخذت تبكى ولكنه هو تردد وعاد فى الساعة الخامسة صباحا متمسكا بحبه للسلام فذهبت هى اليه فى مكتبه وسألته عما جنته حتى يعاقبها بهذا العقاب وكتبت فى مذكراتها أنها قالت له « أن كل خطأى هو أنى لم أتغير كما تغيرت أنت »

أما هو فجلس حزيناً لا يتكلم لأن صراعاً قوياً فى نفسه أهم من الحياة وأهم من الموت كان فى هذا الوقت يعتمل فى داخله ، وقد آوت الكونتس إلى مخدعها حيث وضعت طفلتها .

وفى يوليه كتب «جاى» اليه : —

لو أنى أحيا حياة الرذيلة أو أعمل الأعمال الشريرة لرضى عنى الناس، أما إن عملت الخير وسرت فى طريق الصلاح قام الناس فى وجهى وأثاروا الضجة والانتقاد : ومع ذلك فانى لا أريد أن أشكو لأنى أعلم أن هذا لا بدّ أن يكون »

وفى أكتوبر سنة ١٨٨٤ كتب إلى زوجته يقول بأنه يعمل فى الأرض لا من أجل الفلاحة ذاتها ولكن من أجل حبه لمعاشرة ومشاركة الفلاحين

وكانت الزوجة هى التى تقوم بطبع كتبه حتى هذا الوقت .

أما عن ثروته وغنى المال فقد كتب فى هذا العام الى زوجته يقول :

« .... إنى أكرر ان سعادتنا لا تتوقف على كثرة ما نملكه ولا

على كثرة علومنا وفنوننا ولكن على حالتنا العقلية وعلى حالتنـا الروحية ... ولهذا فارجو أن تعلمى أنى غير مهتم بما تقولينه لى عن نقص دخلنا ولا أنا مهتم بممتلكاتى ولا بشئونى المالية»

وحاول فى هذه الأيام بكل قوته أن ينفذ مبادئه التي كتبها فى كتابه « ماذا يجب أن نعمل » وأراد أن ينزل عن أملاكه للغير أياً كانوا ولكن حدثت عدة منازعات بينه وبين زوجته بخصوص هذا الأمر وأرادت أن تطلب من المحكمة وضع أملاكه تحت الحراسة فعرض عليها أن تتولى هى وأولادها الادارة ولكنها رفضت فى هذا الوقت ثم ندمت بعد ذلك مع أنها ظلت تستولى على ماتستطيع من الريع وهى حانقة مغيظة فما كان منه لكى يرضى نفسه وضميره ولكى لا يغضبها فى الوقت نفسه ألا أن يتجاهل هذه الأموال ويهملها ولا يستغل شيئاً منها إلا بيت ياسنايا الذى كان يعيش فيه .

وكان من نتائج نقص الايرادات أن اضطرت العائلة أن تستغنى عن كثير من صور حياة البذخ والترف كما دفع الزوجة الى ان توجّه كل عنايتها الى طبع ونشر وبيع مؤلفات زوجها لكى تجمع من وراء ذلك مالا وفيرا ، أما هو فكان يتألم غاية الألم عندما كان يرى أن كتبه تطبع وتباع تلقاء ربح مادى .

١١

وان أيام تحوله هذه لهى أصعب الايام وأدقها وصفاً على المترجم لانه كان فى بعض الاحيان مضطرباً مع نفسه ومع أسرته ومع اصدقائه وكان غير مستقر بعد فى آرائه غير عارف نهاية المسائل وحدودها .

١٨٨٥

الا انه فى حوالى سنة ١٨٨٥ بدأت حياته الجديدة تستقر حيث كان قد حدّد أهدافه وعرف غاياته وعرف مايستطيع وما لا يستطيع أن ينفذه فى سبيل الكمال ، وسار فى طريق واحد يجاهد نفسه ليقضى على العقبات التى تقف فى سبيل رقيه الروحى وليحاول هدم الاسباب التى تعمل فعلا على شقاء الانسان والهبوط به .

ولعل اكثر ما وجّهه وما أثر فيه هو اشتراكه فى الحروب ورؤيته آلة الاعدام فى باريس وهى تقطع رأس المحكوم عليهم وموت أخيه العزيز بين يديه وشعوره بالاستعباد والضغط على الحريات وبسائر المظالم والانظمة الشنيعة المتأخرة التى كانت سائدة فى روسيا فى هذا الوقت .

وفى هذا العام انشأ هو وأصدقائه لجنة خاصة للطبع والنشر قصد من ورائها أن يخرج للقراء من طبقات العامة والفقراء كتباً مفيدة فى أبسط أسلوب وبأرخص الاثمان بدون نظر الى كسب مادى وقد نجح هذا العمل ودام طويلا .

وفى هذه الايام كان يعمل كثيراً فى الحقل بيديه وكان يعمل فى

صناعة النجارة لانه كان يمجد العمل اليدوى من كل قلبه وظل مثابراً
على مقاطعة اكل اللحوم من اكتوبر سنة ١٨٨٥ واهمال هندامه ولبس
لباس الفلاحين بعد أن كان السيد العظيم والامير الخطير الجليل الذى
طالما لبس الحرير والدمقس الناعم وتحلى بافخر الثياب والنياشين، وقد
نحف جسمه ونقص وزنه ولكنه كان فى غاية الجزل والرضى وسلام
النفس والقلب وكان أحسن مثل للأب يحب أولاده ويلاعبهم ويجرى
معهم ويجتمع بهم كثيرا .

وفى هذا العام ابطل عادة الصيد التى أحبها كثيراً والتى طالما
ذكرها ووصفها فى كتبه وقد حاول ابطال التدخين فسكت عنه
بعض الوقت ثم عاد اليه ولكنه اقتصر بعد ذلك نهائيا عليه .

ثم اجتمع مرة هو وأحد اصدقائه وبعض أولاده فعملوا بأنفسهم
أكثر من ثلاثة شهور فى اعداد الآجر وفى بناء كوخ لارملة فقيره
سقط دارها .

وكتب فى هذا العام «حيث توجد المحبة يوجد الله» ثم «شيخين» .

ومن أمثلته التى ضربها على نزوع النفس إلى الرقى الروحى
المثل الآتى : — .

خطبت ابنة ملك لشخص غنى جـــــداً لم يعجبها لانه ليس من
العائلة المالكة فأخذ يسترضيها ويقدم لها سائر الهدايا الفاخرة والجواهر
الثمينة وبنى لها قصوراً من المرمر مزهاه بالذهب ومجمله بافخر
الرياش، وعمل كل ما فى طاقته لارضائها بسائر وسائل الترف والمتع
ولكنها ظلت نافرة غير مبتهجة غير راضية ولا مكترثة لكل هذا

النعيم لانها تظن طوال الوقت انها ابنة ملك ، وكان خير لها أن تتزوج بابن ملك .

هكذا الحال مع الروح فمهما أغدق العالم عليها من مسرات ونعم عالمية ولذات وشهوات جسمانية فهى لا ترضى ولا تستريح ولا تشعر بالسعادة الحقيقية لانها هى ابنة السماء ولا تنزع الا إلى قوانين السماء .

وقد قال تولستوى لأحد أصدقائه : « ان معنى الكونت ومعنى سعاده الكونت قد زال أثرها تماماً من نفسى ... دعنى لاأضيع وقتى القصير فى هذه الحياة فى الشر والعيب . . . دعنى أحاول دائما الخير . فانى اليوم حى وغدا فى القبر ... » .

١٨٨٦

وفى ١٨ ينايرسنة ١٨٨٦ فقد ابنه «الكسى» فى الرابعة من عمره وقد طلب الطفل عند وفاته أن يرى والده فذهب إليه ودخل الغرفة فى هدوء واتزان فشخص إليه الابن ورفع يديه وبصره إلى فوق وقال « أنا أرى . .. أنا أرى .... » فسألته أمه ماذا ؟ ولكنه لم يجب وأسلم الروح . أما تولستوى فلم يرَ فى الموت إلا أنه أكبر مذكر ومنبه للصلاح .

وفى هذا العام أخرج كتاب « قوة الظلام » وهوعبارة عن رواية تمثيلية تظهر قوة الشر وفداحة آثاره فى الحياة ، وكتب سلسلة من الرسائل القصصية الصغيرة لكى يسهل على عامة الشعب فى روسيا الاطلاع عليها وتفهمها والاستفادة منها ؛ وقد عنيت احدى الجمعيات الثقافية بطبعها ونشرها فانتشرت انتشاراً واسعاً هال الحكومة أمره

لانها كانت تحوى آراء تتعارض مع ميولها واتجاهاتها وسياستها فاصدرت أوامرها بعدم طبعها .

وفى سنة ١٨٨٦ اشتدت رغبته فى مقاطعة السكك الحديدية وفى عدم استعمال النقود وفى حبه إلى الرياضة الخارجية ومعاشرة الناس ومجالستهم والتقرب اليهم ومعرفة أحوالهم ، وقد دفعه كل ذلك مره الى أن ينتقل من موسكو الى ياسنايا أى ١٢٠ ميلا سيرا على أقدامه حاملا هو بنفسه معه زاده وملابسه البسيطة وكراسته وقلمه واستصحب معه ثلاثة من الشبان ، وبعد ثلاثة أيام وصلوا وعلى وجه تولستوى علائم السرور والنشاط وقد لوحت الشمس بشرته ؛ وكان لازال مشغولا بتكييف حياته والسعى الى التأثير فى حياة الاخرين ومحاولة تغييرها الى الاحسن والا كمل ، وقد نعرف شيئا عنه من خطاب كتبه الى صديقه » « جاى » فى ٢١ مايو سنة ١٨٨٦ : —

« ليس أسعد ولا أجمل من أن تعمل للاخرين حين تكون قائما بعملك أنت ، ان رأسى تدور حين أفكر كيف أرتب سائر أمورى وانصرف فى سائر شئون حياتى الشخصية ؛ ولـكنى أرى أن أحسن الحلول فى هذا السبيل هو أن أفكر أولا هكذا: ما أحسن ما أستطيع أن أعمله لفلان ؟ ماخير المساعدات التى أقدمها لفلان ؟ ثم فلان ممن هم حولى فى كل حين ؟ بعد ذلك تتفتح بصيرتى وتزول من أمامى العقبات وأجد كل شىء جميلا ملائما ...»

إن العالم كله اهتم بتولستوى فى هذا الوقت لأنه عنى ببحث مسائل الدين والفقر والملكية والأنظمة الحكومية والاجتماعية وغيرها

واضعا نصب عينيه الصدق والامانة والصراحة والحق والجرأة: وقد ظهر اهتمام الأجانب به من كثرة الطلبات التى قدمت للحكومة من أجل السماح لهم بزيارة «ياسنايا» لمقابلته والتحدث اليه ومحاولة أخذ رأيه فى كثير من المسائل.

أما الكونتس فلم ترتفع معه إلى هـذا الاتجاه وقد سمعته مرة يقول لأولاده ولأحد ضيوفه:

« إننا سننام مبكراً ونقوم مبكراً نستقبل شروق الشمس ونقابل الفلاحين بغير خجل لأننا سنعمل معهم: فغضبت وقالت لأولادها: « إن هذا لن يكون، انتم كونتات وولدتم كونتات وستظلون كونتات »، وقد آلمت هذه العبارة تولستوى وضيفه فتبادلا القول المأثور « إن أعداء الانسان هم أهل بيته »

وقال تولستوى رأيه النهائى فى ترجنيف:

«لقد ظل إلى آخر حياته مستقلا لم ينزل مرة عن كبريائه ارضاء لحاجته، لقد ضل وأخطأ ولكنه فى اخطائه كان مخلصاً »

وكان ينصح دائماً: « إنتبه إلى عملك ولا يحد نظرك عنه مادمت قائماً به ».

وأخرج فى هذا العام روايته العظيمة Ivan The fool « إيفان المغفل » التى قال انه نقل فكرتها عن بعض الفلاحين أثناء محادثاته معهم كما نقل عنهم كثيراً من الافكار عدة مرات.

وفى هذا الوقت ظهر عليه بشكل بارز عدم مبالاته بالطبقات العليا وحبه العميم للعمال والفلاحين.

وقد انتهى أيضا فى هذا العام من كتاب « موت ايفان إيليش » (The death of ivan ilych) الذى وصف فيه حياة وموت قاض آمن فى آخر حياته بفراغ سنى حياته الماضية ووجوب تعديلها . . . وهو يشمل على بعض دراسات نفسية عظيمة .

وقبل صيف سنة ١٨٨٦ مرض تولستوى من جراء جرح فى فى ساقه ورفض استشارة الاطباء إلا أن زوجته لم تستطع السكوت على ذلك فادعت انها هى المريضة وطلبت أن تذهب إلى موسكو لتستشير طبيباً فسافرت وعادت ومعها الطبيب الا أن تولستوى لم يقبل فى أول الأمر أن يعرض نفسه عليه، ولكنه تحت عوامل الصداقة التى تربطهما عاد فسمح له بالكشف عليه فاتضح أن حرارته مرتفعة وأن ساقه منتفخ وأن حياته فى خطر وقد تألم بسبب هذا المرض عدة أيام حتى كان يصرخ فى بعض الاوقات ويستدعى طبيباً فيمكث معه طوال الليل وظل ملازماً الفراش تسعة أسابيع قامت الكونتس فيها بتمريضه بكل نشاط وهمة .

١٨٨٧ وفى ديسمبر سنة ١٨٨٧ كتب الى صديقه «جاى» يقول :

«أنا سعيد وهادىء ولا يعوزنى شىء، ولدى عمل كثير وعندما يمدحنى الناس أخشى أن يتيقظ فى شعور شرير باستحقاقى لهذه المكافأة الشخصية ؛ وأخاف أن أحس بالزهو وباعجابى بنفسى ولكن أحسن علاج للتخلص من هذه الاحساسات هو أن أصرف ...، كل وقتى فى العمل المفيد وبمجرد أن انتهى من واحد انصرف الى الآخر

وفى هذا العام سنة ١٨٨٧ كتب كتاب «الطبل الفارغ» مبينا فيه كره الفلاحين للحروب، وكتب رواية «المقطر الاول» The first distiller التى مثلت عدة مرات فى انجلترا.

وفى هذا الوقت كانت مستعمرات تولستوى منتشرة فى عدة أنحاء فى روسيا يطبق فيها كانها آراءه عن عدم التملك وعن عدم مقاومة القوة بالقوة أو الجريمة بالعنف وعن عدم الاهتمام والاعتماد على محاكم الحكومه وعدم الالتجاء الى قوة البوليس، ولكنها بعد ذلك فشلت بسبب اضطهاد الحكومة للمشتركين فيها وبسبب بعض الأخطاء.

وقد اتخذ بعض الناقدين هذا الفشل دليلا على عدم صحة بعض آراء تولستوى من الناحية العملية فقط ورأوا أنه من الضرورى أن تظل ملكية الارض مع الحكومات أو البلديات أو هيئات أخرى معينة لخدمة باقى الناس.

وفى سنة ١٨٨٧ وصلت نظريات ومبادىء تولستوى التى بدأها من عشر سنين إلى نتيجة واضحة كاملة نهائية لم يتغير منها إلا القليل فى السنين القادمة

وأهم ما كتبه فى هذا العام كتاب « فى الحياة » بين فيه فلسفته عن الحياة والموت ومما قاله : -

« أن الناس يخشون الموت لأنه ينبههم إلى فساد حياتهم وإلى ضرورة الحياة الصالحة . . . . »

وقال :

« ولما كنا نعرف و نؤكد أننا جئنا من ماض لم نره ولم ندركه فكذلك يجب أن نرضى ونقنع بمستقبل لانستطيع أن نبصره وأن ندركه »

وقد أكد تولستوى فى هذا الكتاب إيمانه القوى الثابت بحياة مستقبله بعد الموت .

وكان لهذا الكتاب أثره فى كثير من القراء منهم المرحوم «جروسبى Grospy » الذى كان قاضيا أمريكيا فى المحاكم المختلطة بالأسكندرية والذى غير فعلا وجهة نظره فى الحياة بعد أن قرأ هذا الكتاب ، وقد دفعه حبه واعجابه بتولستوى الى أن سافر الى روسيا لمقابلته فاستقبله أحسن استقبال ومن ضمن ماقاله له « إن الشباب والصحة والثروة كلها عوائق تحول دون الصلاح ولكن عليك أن لا تستسلم لها بل أن تجتهد ... » ثم عاد جروسبى إلى أمريكا وطلق الاشتغال بالسياسه وعمل فى ترجمة ونشر عده مؤلفات لتولستوى اذ قد أصبح من أحسن وأحكم المعجبين بمبادئه وعاش حياته صالحاً قانعا راضيا سعيدا برجائه فى حياة أخرى.

ولقد أصبح اسم تولستوى قرين مبدأ محبة الجار ،كما أن عزلته الاولى تطورت الى رغبه حاره فى مقابلة كل انسان .

وقد استنصحه ابنه بعد أن تخرج من الجامعة عما يعمله فأشار عليه بأن يكون فلاحاً.

وقال ان خير أنواع التعليم هو الذى يدعو إلى محبة الناس وحب البساطه وعدم التعقيد فى الحياة ؛ وتطبيقا لذلك كان هو نفسه يتكلم

الصدق بأسلوب الفلاحين الساذج ، وقال إن المطلوب هو التأدب الحقيقي أما التأدب الشكلي فهو بكل تأكيد رياء وكذب ونوع من الانانية .

وكانت متعته في الصيف هي الزهور والورود يجمعها ويضعها أمامه ويشمها بين حين وآخر في شغف وسرور .

وكان يعمل كل شيء لنفسه بنفسه حتى الطعام ، وأصبح مغرما بالأطفال يحبهم ويحب ضوضائهم ولعبهم ؛ وقد اتصل بالصداقة مع الأمير « خالكوف » الذي كان (كولونيل) في الجيش وحارب ضد الأتراك ولكن ما انتهت الحرب سنة ١٨٧٨ حتى رفض الاشتغال في الجيش والقتال وقبل مبادىء تولستوى وسار عليها، وكان رجلا أمينا صادقا ونال من أجل هذا مركزاً عظيما بين الفلاحين ؛ لأنه أنكر عقائد الكنيسة غير المسطورة في الانجيل ذاته فقد نفي الى القوقاز وعاش وسط الدخوبوريين الذين رفضوا العمل في الجيش سنة ١٨٩٥ ثم اتهم هو بتحريضهم على ذلك فصدر الأمر بجعل منفاه في أقاليم البلطيق .

وكان تولستوى في تربية أولاده يلقي عليهم تعاليمه وآراءه بدون استعمال أي نوع من الضغط لأنه كان يخشى أن يتمسكوا بآرائه بغير اخلاص أو بدون دوافع طبيعية صادرة من أعماق نفوسهم مجاملة له ؛ ولذلك فقد نشأوا على الحرية وسلكوا في الحياة بوحي شعورهم الخاص ووفق آرائهم واقتناعهم .

ولولا خلاف بينه وبين زوجته على المبادىء والاموال وعلى

تربية الاولاد لاعتبر الفيلسوف وزوجته أسعد زوجين فى هذا الوقت، وقد قالت مرة الكونتس بأن أول عهد وآخر عهد فى زواجهما كان سعيداً أما مابين العهدين فلم يكن ....

أما عن أبنائه فقد كان الاكبر منهم غير مقتنع بمبادىء والده بل كتب بعض الكتب يعارضها ويناهضها ، ولكن الابن الثانى أحب هذه المبادىء وسعى الى تنفيذها فترك الدراسة العالية ؛ورغم أنه كان متزوجا بسيدة من عائلة عظيمة إلا أنهما عاشا فى قرية صغيرة بغير خدم وبغير أبهه وبغاية البساطة

أما الصغار فبعد أن كبروا لم يتمسكوا ببعض مبادئه بل خدموا فى الجيش متطوعين مختارين رغم أن والدهم كان يدعو الى مقاطعة التطوع فى الجيش .

أما ابنته الكبرى تاتيانا Tatiana فقد ساعدته كثيرا فى الكتابة والمراسلات وكانت تحبه ويحبها حبا خالصاً وكذلك الابنة الثانية « مارى » Mary فقد كانت أكثرهم حباً له وقد عاونته كثيرا فى نسخ كتاباته ورسائله وفى تعلم أطفال القرية وفى عيادة المرضى والعناية بهم ، وبعد أن تزوج الابنتان السابقتان حلت محلهما ابنته الصغرى الكونتس الكسندرا التى أحبته أيضا وأحبت آراءه وقامت بخدمتـــــه .

وقد كتب فى هذا الوقت كتابه « ماهو الفن الحقيقى ؟ » .

وقد تأثر بآرائه الكاتب « سيانوف » الذى قال بعد أول مقابلة له : « لقد أصبحت اليوم بعد مقابلتى لتولستوى أكثر رجولة

وأقوى خلقا وقد اتسعت أمامى الافاق وأحسست بمشاعر كثيرة أريد أن أصل فيها الى حل » .

وأهم ما تميزت به حياة تولستوى فى هذا الوقت هو سعيه المتواصل النزيه ليصبح فعلا رجلا صالحا وليكون فعلا مثلا طيبا .

وكان عند اجتماعه بالناس يساوى بينهم جميعاً ويحدثهم فى محبة واخلاص ويشجعهم على الكلام لأنه كان قادراً أن يستخرج منهم أفضل مافى دواخلهم ولأنه بهذا كان يشعرهم بقيمتهم ، وكان يرى أن حسن العلاقات بين الناس لايتوفر إلا بحسن الخلق والمحبة .

١٨٨٨

وفى ٣١ مارس سنة ١٨٨٨ ولد لتولستوى ولد هو «إيفان» بينما كان فى عمر الستين من عمره وكانت زوجته فى الرابعة والاربعين فبلغ عدد أولادها ثلاثة عشر إبناً منهم تسعة أولاد وأربع بنات مات منهم ثلاثة فى طفولتهم .

وكان يجتمع فى منزله فى موسكو كل يوم خميس بعدد من الطلبة وغيرهم ليسمعهم آراءه الحكيمة ويتبادل معهم الاحاديث وطالما نصح بأن الانسان يجب أن يحافظ أولا بقدر الامكان على الود وعلى حسن الصلات بالناس المحيطين به .

وقد وصفته احدى الصحف الامريكية فى هذا الوقت بأنه التلميذ الثالث العشر للمسيح (تلامذة المسيح كانوا اثنى عشر) .وكانت هذه الصحيفة مغلقة ملقاة بجواره فاطلع عليها أحد أصدقائه وأخبره بما فيها فضحك ضحكة طويلة طبيعية وقال « حسن . . هذا حقيقة كلام

امريكى . . . » (This is trus American) ولم يسمح أن يلقى أى نظرة على الصحيفة وأعاد تغليفها وأهملها وظلت ملقاة فى غلافها ، ونصح مرة صديقا فقال له : —

«ان كان تفكيرك سليما ورأيك نزيهاً فلا تحفل بالصعاب ولا بالاعتراض والا فسوف لاتقول شيئا حكيما ولا تعمل شيئا مفيداً » .

١٨٨٩ وفى هذا العام مثلت رواية « قوة الظلام » فى باريس وقد اهتم فيها بالكلام عن الفنون وكثيراً ما غير رأيه بشأنها ، وكثيراً ما كتب عن المبدأ المعروف الذى دافع عنه وهو عدم استعمال القوة والعنف فى الزام أى انسان لكى يعمل عملا معينا أو يمتنع عنه . وفى هذا المعنى تراه لايوافق على كل انظمة البوليس والمحاكم والضرائب وقد هاجم القول القديم « عين بعين وسن بسن » وقال أن هذا المبدأ ليس خاطئاً فقط بل هو فى غاية الغباء وقال أن كل مايضر غيرنا انما يضرنا ، وانه يجدر بنا ان نجتث كل شعور بالكراهية والحقد ، وقد أظهر هذه المعانى السامية فى أروع أسلوب وفى أقوى حجة .

ثم انتهى من كتابه « انشودة كرونزر » الذى بحث فيه المسائل الجنسية بين الرجل والمرأة مما اثار سخط الكنيسة ومعارضة الكثيرين ومما أثار جدلا كثيراً فى سائر انحاء روسيا لانه قصد أن يحد الى أوسع مدى الاتصالات الجنسية بين الزوجين وأن يدعو إلى العزوبة الطاهرة وقد غيّر من آرائه هذه واعتدل فيها فى سنة ١٨٩٧ ، وقد توسطت فى عام ١٨٦٠ الكونتس إلى جلالة الامبراطور ليأذن

لها بطبع هذا الكتاب فى روسيا فسمح لها بالمقابلة واستقبلها استقبالا حسنا وسألها لماذا تهتم بطبع هذا الكتاب وهو ضد الزواج مع انها زوجة ؟ فقالت لجلالته « انى مهتمة به كناشرة لا كزوجة » ، ثم سألها عما إذا كان لدى تولستوى مطبعة سرية فلما أكدت له عدم صحة هذا الخبر سمح لها بطبع ونشر هذه الرواية بشرط أن تكون ضمن مجلد واحد يجمع بعض مؤلفاته الاخرى . وقد تعرض كثيرون من المعترضين لدحض هذا المبدأ فى صوره المبالغ فيها ولكن كل هذه الاعتراضات لن تقضى على المعاني الثمينة السامية التى كتبها بخصوص العفاف الحقيق .

وقد اعترض عليه بأنه لم يقل بهذا الرأى إلا لأنه شاخ و«عجز» وبأن فكرته هى فكرة نظرية ، وقد تحدث معه صديق فى هذا وهو فى سن السبعين فقال : أنا كنت بالأمس زوجا وأرجو أن لا أكون مرة أخرى وكل ما أعنيه أن الواجب الأول على الانسان أن يسعى فعلا وأن يحاول فعلا تنفيذ ما يؤمن به الى الحد الذى يستطيعه » .

ولم تذهب العائلة فى شتاء سنة ١٨٨٩ كالعادة الى موسكو لأنه ظل مشغولا بكتابة روايته الكوميدية « ثمار التهذيب » التى مثلت لأول مرة فى هذا العام فى ياسنايا ثم أعيد تمثيلها فى روسيا وفى غيرها من بلاد أوربا وأمريكا بعد ذلك عشر مرات .

١٨٩٠

وفى صيف سنة ١٨٩٠ رسم « جاى » صورة لابنته «ماشا» وفى خريف هذا العام كان « جاى » ضيفا فى باسنايا ورسم صورة عظيمة لتولستوى ؛ وفى نفس العام رسمت له الصورة المشهورة

« تولستوى فى حجرته » بواسطة رسام آخر .

ثم قدّم « جاى » كهدية صورة أخرى لتولستوى عن « ما هو الحق ؟ » فأعجب بها كل الاعجاب ، وظل لا يتحدث عن شىء إلا عنها لمدة ثلاثة أيام ، وقد تأثر « جاى » من هذا التقدير فعانقه وقبله وقال له : —

«لا تمدح الصورة هكذا لأنك بهذا تمدحنى وأنا أخشى أن أغتر فلا أعود قادرا أن أرسم شيئا جميلا بعد ذلك».

وقد كانت أهم أهداف تولستوى الحقيقية هى محاولة تبديل حياة الناس وجعلهم صالحين بقدر الامكان يلتفون حول مبدأ المحبة ، ومن عباراته المعروفة : —

« مبدؤنا الوحيد هو المحبة لا بالألفاظ ولكن بالاعمال »

١٩٨١

وفى سنة ١٨٩١ قابله أحد رجال الحساب المشهورين وتبادلا الكلام فسأله تولستوى عن الارقام الكاملة فى الحساب فعرفها ولكنه نسى الرقم ٢٨ ، والاعداد الكاملة هى التى إذا جمعت الاعداد التى تقبل عليها القسمة تنتج نفس العدد مثل ٢٨ فانها تقبل القسمة على ١ و ٢ و ٤ و ٧ و ١٤ ، فاذا جمعت هذه الاعداد كان الناتج هو ٢٨ (العدد الكامل) ومثل هذه الاعداد قليلة والغريب أن تولستوى عاش ٨٢ سنة (أى رقم ٢٨ مقلوبا) وولد فى يوم ٢٨ وسنة ١٨٢٨ وكان يقول أن العدد ٢٨ هو أسعد الاعداد له .

وفى ابريل سنة ١٨٩١ وقعت مجاعة خطيرة فى روسيا حزن لها

حزنا شديداً جدا وأحس أحد أصدقائه بالواجب فى هذه النكبة فأتفق معه تولستوى على أن أموالهم وأموال غيرهم من أمثالهم هى التى يجب أن تسد حاجات الفلاحين وجوعهم، ووصف الصديق له الجوع وأثره فى بعض البلدان ودعاه لزيارتها فزارها لكى يقضى يومئذ هناك يشاهد بعينه آثار الجوع ، ولكن الحال اقتضاه أن يقضى عامين كاملين هما عام ١٨٩١ و ١٨٩٢ ، معنيا بالأمر مجاهدا فى سبيل إنقاذ الناس ...

وقبل التحدث عن عمله فى المجاعة نذكر أنه بينما كان فى ياسنايا وصلته عدة خطابات وطلبات بخصوص طبع وترجمة كتبه ورواياته فأصدر إعلانا يسمح فيه لمن يريد طبع كتبه أو ترجمتها أو تمثيلها باللغة الروسية أو بغيرها أن يفعل ذلك بغير أى إذن منه وبدون أى مقابل وذلك فى الكتب التى ألفها من سنة ١٨٨١ وما يستجد ، أما ما قبل ذلك ومنها « أنا كارنينا » فقد كان أعطى الحق فيه لزوجته التى غضبت من هذا التسامح .

ويظهر أن هذا التسامح من جانب تولستوى أدى الى عدم اتقان الطبع والترجمة من بعض المتاجرين بالكتب . أما الكونتس فانها كانت تعنى بطبع النسخ المعتمدة وتبيعها بأسعار حقيقية مرتفعة .

وحدث أن المسرح الامبراطورى — وقد تعود أن يصرف لكل مؤلف تمثل فيه روايته مبلغا من المال — أراد أن يدفع لتولستوى هذه المكافأة كالعادة ولكن لعلم أصحاب الشأن بانه لن يقبل ذلك

فقد عرضوا عليه أن يوزع المبلغ على الأعمال الخيرية فاختار أهون الشرين ووافق على ذلك مكرها

أما مشكلة أمواله وضياعه الواسعة فقد انتهى الأمر فيها فى هذا العام فقد رأى أولا إن يتنازل عنها للغير ولكن الحكومة وزوجته كانا يعارضان فى ذلك وكانت الحكومة مستعدة بناء على طلب الزوجة أن تصدر أوامرها ضده إن هو تصرف هذا التصرف

وقد دعى زوجته فى غرفته قبل ذلك وشكى اليها أن المال أصبح عبئا ثقيلا على عاتقه ولم يعد قادرا على حمله وأنه لا بد أن يلقيه عنه لانه يعتبر الثراء جريمة وهو لا يريد ان يكون مجرما ؛ ولكنها قاومته كثيراً ونشأ عن ذلك نزاع طويل فرأى ان يهمل الاملاك والادارة والداخل كما رأينا ؛ وقال بعضهم انه قسمها بعد ذلك على فلاحيه ولكن المرجّح ان اولاده وزوجته هم الذين اقتسموها بالتساوى بينهم فى هذه السنة .

واليك المثل الذى ضربه على الملكية المحدودة :—

رأيت الناس كقطيع من الثيران والعجول والبقر داخل سور من حديد خارجه مرعى واسع اخضر جميل ينمو فيه العشب والنبات بوفرة هائلة جدا .

وفى داخل هذا السور وجدتُ مرعى ضيقاً لا يكفى مابه من الغذاء لهذا القطيع فتتزاحم وتتعارك افراده ليحاول كل واحد منها الحصول على اليسير من القوت .

ثم رأيتُ صاحب الامر على هذا القطيع سيداً كريماً صالحاً

حكيماً وافى مواشيه مرة فلم يعجبه حالها وفكر فيما يصلح شأنها، فبنى لها حظيرة طلقة الهواء وفيرة الماء جعل لها مظلة تقى المواشى شر الحر وقسوة البرد . ثم غطى قرونها بمواد لينة تمنع الاذى عنها عند التناطح والتنازع ؛ ثم عنى عناية خاصة بالابقار والثيران المسنة فخصص لها مكانا طوقه بالاسلاك لتأمن فى أواخر أيامها شر الشجار والنزاع ولتضمن لنفسها الطعام اللازم لحياتها بغير زحام ؛ ولما وجد العجول تتضور جوعاً فيقتتل الكثير منها ويموت ويبقى البعض هزيلا أمر بتوزيع كمية من اللبن عليها فى كل صباح لتستطيع أن تحيا وتعيش .

بذل المالك كل ما فى طاقته لتحسين ماشيته وعمل كل جهده لتوفير وسائل الراحة لها .

الا أنى سألته سؤالا واحداً هاماً « لماذا لاتفكر فى ازالة السياج؟» «لماذا تجتنب التفكير فى اطلاق سراح المواشى إلى المرعى الواسع الخصيب الذى يقع خارج السور ؟ »

« فاجاب لو فعلت ذلك لما استطعت أن أحصل منها على لبنها !!!»

أما المجاعة فقد عمل فيها تولستوى بكل جهده بمساعدة صديقه المذكور فقد كتب كثيراً فى جرأة وقوة حتى كاد يقبض عليه ليثير العطف ويطلب الانصاف ويندد بالحكومة ويجمع المال والرجال وقد استخدم أولاده وبناته وزوجته فى ملاحظة الجوعى والمرضى وخدمتهم بكل إخلاص ،وأقام هو وسط الاقاليم الجائعة مخصصاً لنفسه غرفة حقيرة ضيقة فى احدى القرى أثاثها سرير بسيط من حديد يشغل

أحد حوائط الغرفة وطاولة من خشب ورف صغير للكتب ؛ وقد وصفت هذه الحجرة بأنها « الحجرة المقدسة »

وكان يقول « انه ليس من العدل ان ندعى أننا نحن الذين نطعم هؤلاء الجياع لأنهم هم فى الحقيقة الذين يطعموننا » .

وقد احتمل آلاماً كثيرة وصبراً طويلا فى هذه الايام حتى كاد يفقد ذاكرته من كثرة التعب ؛ وقد أحبه الجميع ورفعوه إلى أعلا مكان ، ولم يوجه اليه أى اعتراض سواء من رجال الحكومة أو من رجال الدين أو من أى مصدر آخر .

وكان يقول أن خدمات الحكومات فى مثل هذه الأحوال هى خدمات فارغة إذ لا أثر للقلب ولا للعاطفة فيها لانها لا تقوم على مبدأ التضحية الشخصية بل على واجبات آليه .

وكان تحت رعايته ٢٤٦ مطعماً تقوم باطعام حوالى ثلاثة عشر الف شخص من الكبار و١٢٤ مطعماً للاطفال قامت بتغذية حوالى ثلاثة آلاف طفل، هذا عدا ما كان تحت إدارة أولاده فى جهات أخرى.

وكان صوت تولستوى عالياً مدوياً قوياً أيام أن كان الضغط فى روسيا بالغاً أشده على الحريات وعلى الصحف وأيام أن كان الظلم منتشراً والفوضى سائدة ، وكاد يحكم عليه بالنفى فى هذا الوقت لولا وساطة عمته لوزير الداخلية كما قررت هى .

وكان بعضهم يظن فيه خطأ بأنه سياسى خطير ، كما أن بعض الذين لم يفهموه ثاروا عليه عند اطلاعهم على صحيفة روسية كبيرة هاجمته وشوهت سمعته ؛ وقد حاول ذلك أيضاً رجال الدين فى كل وقت

لانه كره طقوسهم وتعاليمهم الخاطئة ونفر من ريائهم ونفاقهم ولم يتقيد إلا بالانجيل ذاته يفسره تفسيراً صحيحاً بسيطاً جميلا خالياً من التعقيد والابهام .

وكان يرى ان ضمير الانسان هو خير برهان على نزوع الروح الى الاله وقال بهذه المناسبة :

« مايدريني ؟ أما عن جسدى فكل ما أعلمه هو انى تولستوى وان لى زوجاً واطفالا وتكسو ذقنى لحية شعثاء دكناء تكاد تغطى وجهاً قبيحاً ؛ أعلم كل هذا وهو سهل واضح لانه ظاهر داخل جواز سفرى ؛ أما عن روحى فانى لا أعرف عنها الكثير ولكنى أعرف انها شيء يصبو الى السمو والقربى من الله » .

ثم قال عن تقسيم العمل بين الطبقات المختلفة ما يأتى : —

« أن تقسيم العمل وتخصيص كل فئة وكل طبقة بعمل معين وجد فى جميع الأزمنة والأمكنة وسيظل يوجد على الدوام وانى لا أنكر وجوده ولكنى أريد له وجوداً عادلا حراً وأريد أن أبحث عن الطرائق التى تؤدى إلى ذلك . . . » .

ثم قال : —

«أن عمل العامل هو أكثر أهمية وأكثر لزوماً من عمل المشتغل بالعقل ، واننا ندرس العمال والفقراء لمسرتنا ولهونا بينما الواجب هو أن ندرسهم لا لنصف أحوالهم بل لنخدمهم فعلا » .

١٣

١٨٩٢

وفى سنة ١٨٩٢ أخرج عدة روايات هامة وبدأ كتابه المشهور « أن مملكة الله فى داخلك » The Kingdom of god is within you الذى انتهى منه فى ١٤ مايو سنة ١٨٩٣ ولم تسمح الحكومة الروسية بطبعه كالعادة الا انه انتشر فيها كسائر كتبهُ فى نسخ خطيه مهربة كانت تقرأ بشغف زائد واعجاب شديد ؛ وهو من أعظم الكتب ، وقد شرح فيه مساوىء استعمال القوة مهما كان مصدرها وشكلها ومهما كان العمل شريراً .

وقد كتب فيه عن الحروب وفظائعها بأقوى أسلوب واوضح بيان مما لم يكتبه كاتب من قبل، ولا زالت كتاباته فى هذا الشأن مرجعاً غنياً لكل من يريد التحدث عن الحرب ولكل كاتب يبغى البحث فى أسبابه ونتائجه ، والى الآن لم يكتب واحد فى التاريخ أعظم مما كتبه هذا الشيخ فى هذا الشأن .

ثم تعرض فيه أيضاً إلى مشروعيه قيام الحكومة فانكر عدالة وجودها وهاجمها أشد مهاجمة مطالباً بالغاء الحكومات وترك الناس أحراراً .

وأهم ما قاومه بكل قوة فى هذا الكتاب هو الجيوش فقد عارض فى قيامها وحرض على عدم التطوع فيها كما انه هتك اسرار الوطنية ومبرراتها وكشف عن نتائجها الشريرة الظالمة .

واليك بعض ما كتب عن هذه المسائل : —

الحرب

عندما اسمع بقيام حرب بين دولتين فانى لا استطيع أن أسلم بأن أحد الفريقين هو الملوم لوحده دون الآخر فكلاهما يشترك فى عمل قاس فظيع وان كان تصرف احدهما اسوأ من الآخر .

ومن العبث أيضاً أن يعزى سبب الحرب إلى تشمبرلن أو غليوم الثاني أو غيرهما من الأشخاص لان الحرب فى الحقيقة تنشب لاسباب ثلاثة :

أولها : عدم توزيع الملكية بالعدل وسلب بعض الناس للبعض الآخر .

والثانى : هو وجود هيئة الحكومات تضم فئات عسكرية متعلمة ومدربه على الحرب ومعده للقتال .

والثالث : هو انتشار التعاليم الدينية الخادعة الفاسدة .

اننا حين ننسب كل الشر إلى هؤلاء الأشخاص إنما نخفى الاسباب الحقيقية التى نشترك نحن أيضاً فيها معهم، واننا حين نسخط عليهم ونذمهم انما نسمم دماءنا ونثير انفعالاتنا ونهيج أعصابنا ولا نغير شيئاً من مجرى الامور لان شمبرلين وغليوم ونابليون ليسوا الا آلات الجهل والشر العمياء تدفعها من الوراء قوى العوامل الثلاث المذكورة الشنيعة .

وما دمنا نخص أنفسنا بالمال ونترك غيرنا للتعب والنصب فلابد

من الحرب لأجل الأسواق ومناجم الذهب وللمحافظة على ثرواتنا .

وما دمنا نوافق على ذلك العمل السحرى العظيم الذى يعّد القتلة المأجورين المنظمين (الجنود) . ويجعلهم يتصورون انهم يقومون بأجل الأعمال وأرقاها ؛ وما دمنا نشترك فيه ، ولا نعمل على مكافحته ، فاننا نهيء دائما أسباب الحرب .

وما دمنا نرضى ولا نغضب على ما فى الديانة من تحريف واعوجاج وخلط ، وما دام يوجد بيننا جيش يحارب من أجل الدين ، ومدافع مقدسة ، وحروب مقدسة ، فستبقى الحروب .

إننا نعلم أبناءنا هذا النوع الفاسد من الدين ونعلنه على الملأ ، ثم ندعى أن تشمبرلان وغيره هم المسئولون عن سفك الدماء .

لقد غلظت قلوب الناس فى زماننا هذا ولا سيما العلماء ، فانهم لا يستطيعون أن يدركوا معنى القوى الروحية وأثرها ولكنهم يعترفون بقوة قنبلة من الديناميت تساوى خمسين جنيها مثلا تنفجر وسط السكان الآمنين فتقضى عليهم ، ولا يعترفون مثلا بقوة الحق والصدق لانه لا يحدث ضجيجا ، ولا أصوات مزعجة ، ولا يهشم عظاما ، ولا يريق دماء

يبذل العلماء جهدهم ليقدموا الادلة على أن الناس تعيش كالسائمة غير خاضعة ولا مسيرة الا بعوامل اقتصادية فقط ، أما العقل فى نظرهم فلم يخلق الا للهو واللعب

إن العقلاء يؤمنون بمبدأ المحبة والاخاء الانسانى ، ويعدّون

القتل جريمة شنعاء، ومعظمهم لا يشترك فى ذبح الحيوان؛ ولكنهم مع ذلك يشتركون فى جرائم القتل متى سميت حربا ، وعندئذ يبيحون الهدم والقتل والنهب والسلب وهتك الحرمات، ويفاخرون بها غيرهم وينافسونهم فيها .....

أن جميع الوسائل العلمية التى يراد بها إبطال الحروب كالقانون الدولى والمحاكم الدولية والمؤتمرات والمعاهدات وما شاكل ذلك كلها مظاهر خادعة ....

يقولون إن الحرب موجودة منذ القدم ، فلا بد من قيامها فى المستقبل ، ولأن لها بعض ما يبررها وحقا : قد يجد الانسان فى كل مصيبة عنصراً مفيداً، ولكن هذه الفواجع لا تبررها المنافع التى تعود على بعضهم ، ولا يسوغها قيام حروب سابقة .

يذهب مئات الألوف من الرجال إلى ساحات القتال يهتزون ويترنحون تحت تأثير الصلوات الضالة والمواعظ والارشادات الخاطئة، وتحت تأثير الحفلات التى تقام لتكريمهم؛ والصور والصحف التى تكتب لتمجيدهم، ويرتدون ثيابا عسكرية رسمية، ويحملون أسلحة فتاكة براقة مختلفة الأنواع ، تاركين زوجاتهم وآباءهم وأبناءهم تكاد قلوبهم تنخلع وتنفطر من الخوف والحزن، لولا تصبرهم الكاذب وادعاءهم العظمة الفارغة ....

وهنالك فى ميادين الحرب يرتكبون باسم الوطنية أفظع الجرائم، ويقتلون من لا يعرفونهم ومن لم يعتدوا عليهم من قبل.

أما الذين يظلون بعيداً عن الميادين فانهم يسرون بأخبار القتل،

ومتى علموا بأن عدداً عظيماً من أعدائهم قد قتل، تهللوا ورفعوا صلوات الشكر لله. واهمين بأن هذا شعور كريم عظيم، أما اذا امتنع بعض الناس عن إظهار هذا الشعور الآثم وحاول النقد أو الاصلاح فانهم يعدونه من الخونة الغادرين ويصبح عرضة للشتم والضرب والاهانة والتصغير ...

إننا إن تمسكنا بالمحبة والعدل والصدق فاننا نجد فى نفوسنا قوة حقيقية تنبعث منا وتدفعنا أن نقول :

« اذهبوا أنتم الى الحرب أيها الرؤساء والوزراء والأساقفة والقسس والقواد والمؤلفين والمحررين الملحدين الذين لاقلوب لكم ....

اذهبوا أنتم وعرضوا بأرواحكم لنيران المدافع والقنابل، فاننا لانحب أن نذهب للقتال ولن نذهب — اتركونا فى سلام لنبنى ونصلح الأرض ونزرعها لكم أيها الكسالى الطفيليون »

ثم قال :—

ليس هلاك الأجساد وقتل الأبدان هو أشر نتائج الحرب، بل أشر منه وأخطر هو « هلاك النفوس وفساد الأرواح » .

الحكومة

أما عن الحكومة فقد قال :

أن وجود الحكومة مضر وخطر بل أشد خطراً من جميع المخاوف التى يروع بها الناس، لانها لاتقلل ولا تصلح شرور الهيئة الاجتماعية وأمراضها بل هى تقويها وتعمل على تثبيتها وما سعادة

الناس فى ظل تلك الحكومات التى يقال عنها إنها منظمة إلا سعادة ظاهرية سطحية بل وهمية .

ليس فى استطاعة الحكومات أن تكون نافعة حتى إن تألفت من قوم أطهار متدينين ، لان طبيعة أعمال الحكومات تدعو الحكام الى سلوك مسالك الشدة والعنف ، وتضطرهم الى أن يكونوا فى غاية القسوة والفساد .

إن نظام الحكومة يشبه مخروطا جميع طبقاته تقع تحت سيطرة من يوجدون فى القمة ،وهم بالاسف أشد مكراً وأشد صلابة وقحة من سائر الناس..

كان الناس الى أواخر القرن التاسع عشر يظنون أن الحياة مستحيلة بغير الحكومات،ولكن الآراء تغيرت وتبدلت بالرغم من المساعى التى تبذلها هذه الحكومات لابقاء الناس فى حالة طفولة مستمرة ، كى يظل المظلوم شاعرا بالحاجة الى من يشكو اليه .

انك اليوم ترى الناس مثلا يقولون للحكام : ـ

إنكم تقولون أن الأمم المجاورة لنا كالصين واليابان ستهاجمنا ، ولكننا نتلو الصحف ونعلم أن لا أحد يهددنا ، بل أنتم معشر الحكام تتحاملون على بعضكم وتختلفون لأغراض فى نفوسكم أنتم لاندركها نحن ،ثم تتخذون الدفاع عن شعبكم ذريعة كاذبة لشن الحروب ولافلاسنا بالضرائب ،للمحافظة على الاسطول أو للاتفاق على فرق الجيش المعدة للحرب،أو لانشاء السكك الحديدية الحربية ، بينما هذا كله لافائدة منه الا ارضاء مطامعكم وكبريائكم أنتم !!

انتم تقولون انكم تدافعون عن ملكية الأرض لمصلحتنا لكن دفاعكم هذا هو الذى أدى الى أن الارض قد صارت فعلا ملكا للاغنياء والشركات. وأننا قد حرمنا منها فعلا ؛ وأصبحنا تحت سلطة الأثرياء وأصحاب المصانع الكسالى الذين لايعملون !

أنتم تزعمون أنكم تسكفلون لكل عامل نتاج عمله؛ولكنكم لاتعملون سوى العكس ، حتى أصبح الذين ينتجون المواد الغالية الثمينة بفضل دفاعكم فى حالة لاينالون معها مايقوم أودهم وهم فوق ذلك يقضون كل حياتهم خاضعين لسلطان أولئك العاطلين الذين يسمون بالرأسماليين ...

يقولون بأنه لولا الحكومات لما كانت تلك المعاهد العلمية وغيرها التى نحن فى أشد الحاجة القصوى اليها ، ولكن لماذا تفرض هذا الفرض؟؟ ولماذا تتوقع أن الناس لا يستطيعون تدبير الحياة لأنفسهم كما يدبرها لهم رجال الحكومة ! !

إننا نرى الأمر على نقيض ذلك ؛ فاننا نجد اليوم نقابات العمال وجمعيات التعاون والشركات والسكك الحديد وغيرها؛ تقوم على أسس أحسن وأفضل من الهيئات الحكومية،وبدون أقل مساعدة أو تدخل من الحكومة .

وإذا كان لامناص من تحصيل الضرائب؛فان الأفراد الصالحين يستطيعون بكل سهولة جمعها بطرق أفضل من طرق الحكومة ، مادامت الأعمال المطلوبة مؤكدة النفع لكل انسان ولخير المجموع .

ثم لماذا نحسب ان المحاكم لاتوجد الا مع قوة ورهبة الحكومة؟

ان الفصل فى المنازعات بواسطة أشخاص يرتضيهم الخصوم وجد وسيوجد فى كل زمان ومكان ، بدون حاجة إلى الالتجاء إلى سلطة الرهبة الحكومية .

أن الذين بأيديهم السلطة ليسوا أعقل ولا أحكم من المحكومين بل هم أقل عقلا منهم ، إن لم يكونوا غير عقلاء بل هم أحيانا كثيرة يعتبرون من أسوأ الناس الذين يسعون إلى أكبر نكبات الانسانية من أجل مصالحهم الشخصية .

يسألون: كيف يستطيع الناس أن يعيشوا بلا حكومة ؟ والأولى أن يسألوا : كيف يستطيع ذوو القلوب والعقول ان يعيشوا راضخين للحكومة فى شدتها واستعبادها للمحكومين !!

إن لسان حال الحكام يقول : —

أنتم كثيرون ، ولكنكم أغبياء لا طاقة لكم على حكم أنفسكم أو تدبير شئونكم العامة ؛ فلذلك نحن نأخذ على أنفسنا العناية بكم والدفاع عنكم والمحافظة على النظام بينكم ؛ وننشىء لكم المحاكم والمعاهد العلمية والطرق والبريد وكل مايؤدى الى خيركم مقابل أن تقوموا لنا بمطالبنا الهينة ؛ مثل اعطائنا جزءاً من إيرادكم ؛ وانتظامكم فى سلك الجيش للمحافظة على الأمن وعلى الحكومة !!

ولكن عندما تصبح الأموال والجنود فى قبضة الحكومة ؛ فهى لاتفى بوعودها من أجل العناية بالشعب ورفاهيته وحماية الرعايا بل تتحرش هى بالأمم المجاورة وتثير غضبها لاشعال نار الحرب التى تؤدى الى الخراب والدمار ...

وقد سرد تولستوى الحكاية الآتية فى هذه المناسبة :—

يحكى فى الف ليلة وليلة أن سائحا نزل فى جزيرة خالية من السكان فرأى شيخاً عارى القدمين ، جالساً عند ساقية على عين ماء جارية.فسأله الشيخ ورجاه أن يحمله الى مكان آخر، فعطف السائح عليه وحمله على كتفيه وسار به الا أن الشيخ لف رجليه على رقبته ، وأبى أن ينزل ، وضيق الخناق عليه ، وصار يقوده حيث شاء ، والشيخ يقتطف من ثمار الأشجار التى يمر بها ، ويأكل منها بشهية ما شاء ، ولا يعطى منها شيئاً للسائح المسكين، بل يضربه ويسيء اليه إذا هو حاول الوقوف أو التمهل !!

هذا هو نفس ما يحــــدث للذين يقدمون الاموال والجنود للحكومات،فبالاموال تشترى الحكومة المدافع،وتعلم القواد وتدربهم على الغلظة والقسوة وهؤلاء بدورهم ينظمون الجيش من اولئك الذين أخذوا للجندية بطريقة مدهشة أحكم وضعها وتطبيقها فى غضون الأعوام الماضية وأطلق عليها اسم النظام !

إن الجيش المنظم هو الآلة التى تقترف بها الحكومات أشنع الفظائع دون أن يلجأ أشخاص الحكومة أنفسهم إلى البطش بأيديهم مباشرة .

هذه هى الخديعة العظمى ، والوسيلة الوحيدة لمحق الحكومات ليست هى أبداً الثورات والعنف والقوة ، بل هى كشف اللثام عن هذه الخديعة الهائلة .

إن شعور الناس هو أهم عنصر فى هذه المسألة ....

ولكن انظروا . . . .

إن جميع المساعى التى بذلت وتبذل للتخلص من الحكومات بواسطة الشدة والثورات ، كانت نتيجتها فى كل زمان ومكان أن الحكومات الجديدة التى تحل محل القديمة، تكون فى الغالب أقسى منها وأشد . فالسعى لابطال العنف بالعنف لم يحرر الناس ولن يحررهم من الظلم والبطش ؛ بل هو تماما مثل إطفاء النار بالنار، أو منع الماء بالماء أو سد ثلمة بفتح أخرى .

ان شيئا واحداً هو الذى يعنيني وهو أني لا أرضى أبداً بالحكومات التى تشنق الناس إن أخطأوا وتبعث بالجيوش لتقتل الشعوب الأخرى، ولتفسد أخلاق أهلها .

وإن أهم شىء فى الأمر الآن هو أن نعلم أن الحالة سيئة بسبب وجود الحكومات، وأن ندرك ضررها وعدم فائدتها، وبعد ذلك لا بد أن نهتدى بأنفسنا إلى نظم عادلة معقولة .

شرع الناس يفهمون هذه الحقيقة الآن ، بعد أن بلغت سلطة الحكومات من القوة مالا يمكن التغلب عليها بالقوة، وقد آن لهم أن يدركوا أن ليس هناك سوى وسيلة واحدة للحياة الطيبة هى «الاعتقاد والعمل بتعليم ديني طبيعى مفهوم للاغلبية العظمى من البشر » .

أما ما عدا ذلك من المساعى التى ترمى الى الغاء السلطة والى تنظيم حياة صالحة سعيدة فلا يجدى نفعاً .

لسنا فى حاجة الى وضع القوانين وإنشاء النظم الحديثة ، بل نحن فى أشد الحاجة إلى تهذيب النفوس ؛ وما تغيير القوانين والانظمة فى

الحياة رجاء تغيير أخلاق الناس، إلا قول عابث وهراء كاذب

ان السياسيين يرون أن أعمالهم ونظرياتهم السياسية كالاشتراكيه والديمقراطية و ... و ... الخ هي وحدها التي تستطيع خدمة الانسانية، ولكنهم علاوة على تناقضهم مع بعضهم ومع انفسهم فهم قوم غاشون مضلون . ليس هناك سوى طريق واحد لخدمة الناس واصلاح شأنهم، هو نشر الدعوة ، وحث الاخوان ليجاهد كل واحد نفسه، ويحاول أن يسير فى طريقه إلى الكمال الخلقى وتهذيب النفس .

حقا إن هذا الكفاح هو مجهود شاق، هو لا يكسبنا شهرة، ولا يهبنا مركزاً عالياً، بل هو يقضى بانكار قيمة النجاح الظاهرى البراق، وقد يحط بقيمة الانسان من الناحية الاجتماعية، ويجعله عرضة للمهانة والتعنيف والتوبيخ والآلام والموت أحياناً . ولكنه هو وحده الذى يكفل للفرد حريته الحقيقية : وهو الذى يهديه الى النور الحق، وهو المجهود المثمر الذى نبلغ به بأعدل الطرق وأسهلها تلك النتائج الغالية العزيزة المحببة إلى قلوبنا ، ونصل به الى تلك الأهداف الجميلة التى يستنفذ المصلحون الاجتماعيون كل وسائلهم الخادعة المعقدة الفاشلة فى سبيل الوصول اليها .

وليست هذه الوسيلة وسيلة نظرية خيالية ؛ كما يقول الذين لايرون فيها لهم مصلحة مادية بل إن جميع ماعداها من الوسائل التى يلجأ اليها الزعماء فى تغرير وخداع هى النظريات الخيالية الفاسدة التى يفسدون بها الناس ...

وليس العيب فيما أراه أن لا تظهر نتائج الكفاح الروحى سريعاء

فلا بد من التريث والانتظار ، ولا بد أن نصبر ريثما تنبت البذور، ثم تظهر الأوراق، ثم الاغصان، ثم الشجر النامى المفيد .

نعم .. أن فى الامكان تثبيت فروع شجر كبيرة فى الارض، لتشبه مجرد الشبه غابة نامية كبيرة، ولكن هذه الغابة الوهمية لا تلبث بعد قليل أن تزول من مجرد لفحة هواء ضعيفة .

وهذا هو الحال فى محاولة إنشاء النظم الاجتماعية الحاضرة بشكل يقرب لنا النتائج السطحية ، ويجعل لنا منها مظهراً براقاً ، فانه يحول حتما دون إيجاد النظام الحقيقى المفيد لان السرعة كثيراً ما تعيق أمانى الاصلاح ولا تحققها .

إن الحقيقة السهلة المفهومة التى لا تقاوم أبداً، والتى لا يعترض عليها أبداً ، والتى لا تفشل أبداً ، هى أنه لا بد لصلاح الحياة من أن يكون الناس صالحين .

***

وقد كان لكتابه هذا (مملكة الله فى داخلك) أثراً كبيراً فى نفوس القارئين ، حتى دفع بعض الانجليز إلى مقاطعة الاشتراك فى الانتخابات والامتناع عن اعطاء أصواتهم :

وكان فى هذا الوقت مبتعداً عن السياسيين والزعماء الذين كانوا أحياناً يحبونه ، وأحياناً يقاومونه ، حسبما تمليه عليهم مصالحهم ومراكزهم فى الحكومة .

١٤

ذهب مرة لزيارة رجل عظيم وعندما طرق الباب فتحت له الخادمة :ووجدته مرتديًا ثوبًا بسيطًا من جلد النعاج وحذاء من أحذية الفلاحين، فاشمأزت منه وعجبت لوقاحة هذا الرجل الفقير الذى يأتى مباشرة إلى الباب الخاص ليسأل عن سيدها الكبير ، أما هو فعندما علم بأن صديقه غير موجود قال لها بكل سماحة :—

« قولى له إن الكونت تولستوى سأل عنك » فارتبكت واضطربت، عندما فهمت أن من قابلته بالاستهزاء والاستصغار كان ليس فقط « كونت » ولكنه أعظم الكونتات .

وقد قال مرة لصديق :—

« إنى أكره أن يتوقع الناس منى مطابقة تامة كاملة بين كل كلمة أقولها، وبين كل عمل أقوم به وإنى أتصور أن بعضهم يقول لى :

« كيف تقول بهذا وكيف لا تعمل به ؟»

لا . لا . أنا لست قديسا... ولم أدع هذا... إني إنسان .... وأنى كثيراً ما أقع فى آراء خاطئة ... وكثيراً ما أعجز عن التعبير تماماً عما أفكر فيه أو عما أحس به .

هذا من حيث التفكير . أما من حيث الاعمال فالى أسوأ لأنى ضعيف، مثقل بأهواء وعادات غير سليمة ...أحب أن أعبد آله الحق ولكنى كثيراً ما أضل ...

عندما ينظر الناس إلى بأنى لا اخطىء،يرون فى سلوكى الخاطىء أنه متعمد، ويرموننى بالنفاق والرياء ؛ولكنهم عندما يفهمون ويثقون بأنى إنسان ضعيف، فانهم يرون فى أخطائى نوعاً من العجز لا نوعاً من الرياء ويدركون الحقيقة بأنى ساع جهدى بكل أمانة وإخلاص لأصبح رجلا صالحاً طيباً » .

وفى شتاء عام ١٨٩٢ و ١٨٩٣ وصف لنا « سيمانوف » تولستوى فقال : —

«إن لحيته ابيضت وان شعره أصبح غزيرا ويظهر أن جسمه قد نحف قليلا ؛ولكن نظراته لا زالت قوية ثابتة مستقرة كأنها تخترق روح من يحدثه ؛وكان وجهه يفيض بالرجاء والأمل ؛ويعمل بايمان على نشر حسن العلاقات والمحبة بين الناس وبعضهم » .

وعلم لأول مرة أن شخصاً هو أستاذ فى أحد المعاهد رفض فى أغسطس سنة ١٨٩١ أن يعمل فى الجيش ليرضي ضميره، ولكى يخدم آله السلام لا آله الحرب ، فحكم عليه بالسجن سبع سنين ، ولكنه مات فى ٧ ؛ يناير سنة ١٨١٤ من جراء مرض أصابه ،عندما تركوه واقفاً وقتاً طويلا فى البرد بملابس خفيفة ، فاهتم تولستوى للامر خصوصا وانه قد حدث مثل هذا مع كثيرين كانت الحكومة تخفى أمرهم وتضطهدهم .

١٨٩٣ أن الخمس عشرة سنة الماضية كانت سنين جهاد وتغيير وتبديل فى حياته وفى أفكاره ومبادئه ؛ولكن بعد عام ١٨٩٣



تولستوي عائدا من النهر بعد الاستحمام في سن الخامسة والستين

لم يحدث فيه أى تغيير هام، فقد قضى بقية أيامه فى هدوء واستقرار وثبات وسلام.

فى بدء شبابه كان يميل الى الشجار والخصام وكان عصبي المزاج كثير الثورات والانفعالات،أما فى أيامه الأخيرة فقد أصبح مشهوراً بتواضعه الجم ووداعته التى لاحد لها ومراعاته الى أبعد حد شعور الآخرين، لأنه امتلأ حقا بالمشاعر الاخلاقية العميقة ولم تظهر عليه آثار العنف إلا أحياناً قليلة جدا ضد الحكام وكبار الساسة والعلماء والتجار.

وكان فى هذا الوقت يحب التحدث إلى الفلاحين والطلبة والأصدقاء وسائر من يجتمع بهم مصادفة ، ليحاول أن يلقنهم فكرة من أفكاره التى كان يثق بها أو يؤمن بخيرها وفائدتها.

وفى هذا العام طبع له كتاب « سر فى النور ما دام هناك نور »

ولما جاءته هذه الأيام الهادئة المستقرة تفرغ فيها لكتابة كتبه الجليلة العظيمة .

١٨٩٤

وفى يناير ١٨٩٤ دعى إلى اجتماع علمى فى موسكو لسماع محاضرة كان سيلقيها صديقه « زنجر » ، فتردد لأنه كان قد أنف الاجتماعات الحافلة ولكنه ذهب من أجل صديقه فلم يجد مقعداً فى قاعة الاجتماع فأجلسوه على المنصة تكريماً له، ومع أنه كان عنيفاً بعض الشيء مع العلماء، إلا أن الحاضرين منهم سرعان ما علموا بوجوده،حتى هللوا ورحبوا به وأخذوا يصيحون ويصفقون طويلا، ثم يعيدون التصفيق،حتى خجل تولستوى ووقف يشكر الناس بالحنائة

متواضعة وحياء جم ولـكن التصفيق سرعان ما عاد ثانياً وثالثاً حتى كاد يزلزل المكان .

ولما قابل صديقه بعد ذلك عتب عليه وقال له « لماذا لم تخبرني أن هناك مظاهرات !! كل هؤلاء الأشخاص بثيابهم الرسمية ! ... إن الحفلة لم تكن حفلة علمية بل مسخرة علمية ... » .

وفى هذا العام عند مابلغ السادسة والستين من عمره كان يركب الدراجة التى كانت مستعملة حديثاً فى روسيا،ولما كان استعمالها يتطلب رخصة خاصة فقد سعى اليها وحصل عليها .

ولما انتهى صديقه الرسام « جاى » من عمل صورة « الصلب » (صلب المسيح) أحضرها ليعرضها على تولستوى،فطلب أن يتركها له قليلا ثم أخذها لوحده فى غرفة ساكنة هادئة ، وبعد قليل عاد « جاى » اليه فى هذه الغرفة فوجده يزرف الدمع ؛وقام يعانقه ويقول له « إني أشعر ياصديقى العزيز أن هذا هو عين ماحدث تماماً . إنها أعظم شىء عملته !»

ثم كان يتوقع القبض عليه فى أى وقت ، وفى يونيه سنة ١٨٩٤ كتب يقول « ... إنه من الصعب أن أظل بعد الآن طليقا » .

وفى هذا العام مات « جاى » وهو أعز وأحب أصدقائه اليه فكانت خسارته فيه عظيمة .

ومما لا شك فيه أن زوجته كانت إحدى العقبات فى سبيله لأنها

كانت دائماً مهتمة كل الاهتمام بالمال وبالثراء ، كما أنها كانت تعلن فى صراحة وعناد عدم موافقتها لكثير من مبادئه القويمة، ولكنها مع ذلك عاشت فى أول الأمر لمدة سنين طويلة زوجة صالحة .

ثم كتب فى سنة ١٨٩٤ بعض الكتب : « المسيحية والوطنية » « العقل والدين » « الأخلاق والدين » ، وقد كانت هذه الكتب وماتلاها ثماراً ناضجة من أثمار حياته الطويلة التى فاضت بالتأملات والاختبارات فى أعقد المسائل وأخطرها ، وجاءت بعد جهاد عنيف نزيه مع نفسه .

وقال عن «الكتابة» ما يأتى :—

«إن إرادة الله السامية الفائقة ومعانى الواجبات العليا فى هذه الحياة لا يمكن كشفها ولا تبادلها بين الناس ولا كسبها الا بالعمل بها فعلا، أو بكتابتها والتعبير عنها فى لغة جميلة، يعلن فيها الكاتب ذاته بين ثنايا الكلمات ، لهذا فالكتابة والتعبير عن الحق بالالفاظ البليغة تعتبر واجب مقدس هام » .

الوطنيـــــة

أما عن الوطنية فقد قال :—

لقد قلت عدة مرات أن الوطنية فى شكلها الحاضر هى شعور آثم غير طبيعى خطر، لا حكمة فيه ولا عقل ، وانها سبب كثير من آلام البشر اليوم ، ولا يجب تلقينها للناس كما يحدث الآن ، بل ينبغى انتزاعها والقضاء عليها ....

أن من الوطنية الآن الاحتفاظ بسائر مميزات كل أمة و بخصائصها مهما كانت، وفى هذا غباوة ظاهرة؛ فقد تكون هذه المميزات فى وقت من الأوقات عادلة وصالحة ؛ وقد تكون فى وقت آخر غير متفقة مع الفضائل الحاضرة ومع المبادىء السامية التى تدعو الى تآخى الناس — وان بقاء كل أمة تعمل جهدها للمحافظة على ما يميزها عن غيرها ليؤدى الى الانقسام والعداء بين الدول؛ فان الدولة التى تظن أنها خير الدول، وأن أهلها أفضل الناس قاطبة، لا تستطيع الحياة الا فى عراك وحرب .

إن فكرة الوطنية فكرة فى غاية الغباء ؛ ومع هذا الغباء الظاهر فان المتعلمين والمثقفين يتجاهلونه بينهم وبين أنفسهم ، وينكرونه فى كثير من الاحيان بل هم يطرونه ويطرون نتائجه !!

ان الذين يحافظون على هذه الفكرة هم الخبثاء الذين يرمون الى المنافع الشخصية فيدافعون عن الوطنيه بوسائلهم الخادعة المصطنعة، وبما يملكون من أدوات القوة ووسائل التأثير والأموال .

الوطنية من حيث انها شعور المواطن بحبه لبلاده ، ومن حيث انها تدعو الشخص إلى بذل النفس والمال فى سبيل الضعفاء من أبناء وطنه ، وحمايتهم من القتل وانتهاك الحرمات ودفع عادية الأعادى هى أرقى فكرة حقاً ، ولكن زمنها قد مضى وانقضى، وقت ان كانت كل أمة تعتبر الأغارة على غيرها ، وسفك الدماء واقتراف أنواع الفظائع لمنافعها الشخصية امراً غير معيب بل عادل ومشرف ، الا أن الشعوب منذ ألفى عام أخذت تدرك فكرة الأخاء الانسانى، وأخذت ترقى بها تدريجياً ، وأخذ الناس يطبقونها فعلا فى بعض الحالات، وقد

عمل تعدد العلاقات بين الدول وسهولة المواصلات بينها على انهاض روح الصداقة بين الامم .

ان الطبقات الحاكمة وجميع المتمتعين بمراكز كبيرة كالممولين والصحفيين والفنيين والعلماء لا يحتفظون بمراكزهم الا على أساس قيام نظام الحكومة الذى لا يعتمد الا على الوطنية ، لذلك فالوطنية قائمة ! ولأن الحكام وأمثالهم هم الذين يملكون أكثر وسائل التأثير فى الناس، فانهم يعملون بكل همة ونشاط فى اذكاء الشعور بالوطنية وبقدر وطنية الموظف أو غيره يكون نجاحه ورقيه !

الوطنية والحرب المتسببة عنها تعود بالأرباح الطائلة على الصحافة وعلى كثير من فروع التجارة : وان كل موظف وكل محرر آمن فى منصبه مادام يخطب ويكتب فى الوطنية ؛ وان كل امبراطور وملك ورئيس ينال من الشهرة وبعد الصيت بقدر شغفه بهاوانهماكه فيها...

ان الطبقات الحاكمة تذكى نيران الوطنية فى المدارس فى عقول الطلبة بطريق القصص التاريخية التى تنسب كل المفاخر الى شعبهم، وتزعم أنه خير الشعوب وان الحق دائماً فى جانبه...

وان الزيادة فى جيش أى أمة خوفاً من الخطر يدعو الأخرى الى زيادة جيشها،واثارة الوطنية فى نفوس أهلها،وهذا يؤدى الى زيادة أخرى فى جيش الأمة الأولى، وهكذا يتوعد الأشقياء بعضهم بعضا!!

أن ما يقع على الأمم المقهورة والقاهرة من الخراب والدمار أصبح فى نفوس البشر أمراً عاديا مألوفاً ! وإنما المهم فى نظر الساسة هو

البحث عن شيء واحد هو : أى دولة لها الحق فى أن تستولى على أرض غيرها وتهلك سكانها وتدك عمرانها !!

إن الشر يتفاقم، والحالة تزداد سوءا والعالم سائر إلى هوة سحيقة لاقرار لها ، فقد أخفقت الطريقة التى حسبها بعض البسطاء نافعة لانقاذه وهى « مؤتمر لاهاى » ... فبالرغم منه قامت الحرب بين الانجليز والترنسفال ..

إن قصار النظر الذين يعتمدون على ظواهر الأمور ، يعتقدون أن محاكم التحكيم الدولية والمؤتمرات والمجالس تبطل الحروب وتضع حدا للزيادة المطردة فى التسليح؛ ولـكن هذا كله عبث وتضليل؛ فان الدول لاتلقى سلاحها الا اذا وثقت ببعضها ومادامت هذه الثقـة مستحيلة فلا الجيش يسرح، ولا عدده يقل، بل هو سيتزايد حتما ، وستظل كل دولة مترقبة جيوش الدول المتاخمة بما لها من الجواسيس حتى تقع كوارث الحرب فى وقت ما ....

إن المؤتمرات والمعاهدات على هذا الأساس إما أن تكون صادرة عن غباوة وحماقة ، واما أن تكون مضيعة للوقت واما أن تكون خداعاً وتغريراً .

أن عاطفة الوطنية التى تشد أزر الجور والظلم، لهى عاطفة خسيسة، مخزية مضرة مفسدة للآداب ، لأنها لاتلائم غير طبيعة أحط الناس خلقاً ولانها تجعل من الانسان عبداً لحكومته وعبداً لوطنه وعبداً لأشر غرائزه .

أفيقوا أيها الناس وتدبروا ما أنتم فاعلون ... أنعموا النظر ملياً

لتعلموا أن أعداءكم ليسوا الترنسفاليين أو الانجليز أو الفرنسيين أو الألمان أو الفنلنديين أو الروسيين، بل أنتم أعداء أنفسكم، واعلموا أنه بتمسككم بأهداب هذه الوطنية الفاسدة انما تتجرعون كؤوس الشقاء ....

أخذت الحكومات التى لاتقوم إلا بالوطنية على مسئوليتها أن تحميكم من الخطر ولكنها فى الواقع تجعل منكم عبيداً وجنوداً مسلحين لحاق بكم الهلاك والدمار من كل ناحية .. فانه ينتظر بين آن وآخر أن تسوء علاقات الدول ببعضها فتنقطع العلائق وتقودكم حكومتكم ووطنيتكم الكاذبة إلى مذبحة هائلة يقتتل فيها الآباء والأبناء والاخوان والاصدقاء !!

ومهما كانت قسوة هذه المذبحة وشدتها ، فان الحرب تعود ثانياً لأن الوطنية قائمة تدعو الى تجنيد جيوش جديدة وتدعو الى تضليلكم وتضليل أبنائكم ! وليس من ينقذكم أو يعينكم على إبطال هذه المجازر إلا إذا كنتم أنتم تعاونون أنفسكم ...

اعلموا أن جميع المصائب التى تواجهونها ناجمة عن انقيادكم إلى آراء الرؤساء والزعماء والنواب والحكام والضباط وأصحاب المال والكهنة والمؤلفين والكتاب وأهل الفنون الذين يخدعونكم باسم الوطنية ليحققوا آمالهم ومصالحهم الذاتية . .

واعلموا أيضا أنكم سواء كنتم فرنسيين أم ألمان أم انجليز أم روسيين، فان جميع مصالحكم الحقيقية القائمة على الزراعة او الصناعة أو التجارة أو الفن أو العلم لا تتعارض أبداً مع مصالح غيركم من الدول.

واعلموا أن الرباط الحقيقى الذى يربطكم فعلا ببعضكم هو روح التعاون والمحبة وتبادل البضائع والآراء والعواطف .

كما أن استيلاء حكومتكم على غيرها من البلاد لا يفيدكم أنتم شيئاً إن لم يؤد إلى ضرركم — إنكم لا تصبحون أحسن حالا إن بقيت الألزاس لألمانيا أو لفرنسا، أو إن تحررت أرلندا أو بولندا . أو إن كان الغاصب لها هذا أو ذاك ....

أن ماوقع بالأمم من البؤس والشقاء إنما أساسه تنازع الوطنيات، ولا شىء ينقذكم ولا ينجيكم إلا الاعراض عن هذه الوطنية والاقتناع بأنكم ليسوا أبناء هذا الوطن أو أبناء هذه الحكومة بل أنتم قبل كل شىء أبناء الله ....

سئل مرة عن الدين فقال : —

إن الدين ثلاثة أنواع

الأول : دين الأطفال وهو دين الأنانية . دين الذين يرغبون دائماً فى ايث وفير ودفء كثير وراحة شاملة ومتع متعددة، لايعنيهم بعد ذلك مايقع لغيرهم من أبناء الدنيا ولا ما يصيب أرواحهم من فساد وانحطاط .

الثـاني : دين الوطنية الذى يعنى فيه أصحابه فقط بمصالح العائلة أو الحزب أو المذهب أو الوطن ويعتبرون ذلك أهم أهداف الحياة ، متجاهلين الفضائل الرحية السامية .

الثالث : دين الذين يعترفون بآله عظيم مصدر كل خير وملهم كل الفضائل ؛وهو دين مرتفع فوق جميع الأديان وفوق سائر المصالح والمنافع .

وفى هذه الحياة يتأرجح الانسان بين الدين الأول والثانى ، تارة يعنى بهذا وتارة يعنى بذاك ، وتارة يتأرجح فى وقت واحد بين الثلاثة،ولكن هذا عبث مؤكد فلكى يكون للانسان هدف واضح يجب أن يختار دين واحد .

***

١٨٩٥

أما سنة ١٨٩٥ فقد طلعت عليه بآلام عدة لأن نيكولا الثاني تولى عرش روسيا وعزم على إدارة الحكم كوالده

بنظام استبدادى: لم يسمح فيه لممثلى البلاد أن يشتركوا فى أى عمل، فأشاع ذلك التصرف الحزن العميق فى نفس تولستوى .

وفى ٢٣ فبراير سنة ١٨٩٥ مات ابنه « إيفان » وعمره سبع سنوات تقريباً ، وتلك أول مرة توفى له فيها ابن بعد أن اجتاز دور الطفولة، ومما زاد أثر الحزن أنه كانت تبدو على الصبى صفات جميلة كريمة كانت موضع الآمل — ولقد حزنت الكونتس كذلك حزناً شديداً، ولم تستطع العودة إلى ياسنايا خشية ذكريات المكان المؤلمة : ففكرا فى السفر إلى الخارج، ولكن بعض الناس أشار عليه بعدم مغادرة روسيا لأن الحكومة سوف لا تسمح له بالعودة ، ولقد أشيع وقتئذ خطأ أنه نفى .

وبعد قليل من وفاة الابن دخل عليه صديق فى حجرته فحدثه قائلا : —

« إنه لمن الحمق حقاً المبالغة فى الحزن بسبب الموت ... إن الشيء المزعج ليس هو الموت ولكن هو الحياة ... الحياة الميته . . الحياة بغير هدف أو غرض ... لاشك أن الموت والفراق يثيران فينا الشجن والآلم، ولكن لا يجب أن نستسلم لهذه المشاعر ولا أن نسمح لهذه العاطفة أن تغلو .. »

ثم كتب مرة لصديق يقول « إن زوجتى حزينة جداً وانى أود لو ينقل إليها شيء من شعورى الضعيف بالتدين وبالله الذى يجعل من الموت حياة .... وإني لأرجو أن يصلها هذا الشعور لا منى

ولكن من الله مباشرة ؛ وان كنت أعرف أن ذلك عسير جداً على النساء ... »

ثم كتب: « سيد ورجل » - « العار » - « والأمثلة الثلاث » . وكتب دفاعه عن طائفة معينة من الروسيين هم « الدخوبوريون » الذين كان له معهم شأن كبير ، وهم قوم يتميزون بالاحتمال والصبر على الاضطهاد ويعيشون فى أخاء ومحبة بغير حكومة وبغير جيش ، لا يخضعون إلا للعقل وللضمير ولنصائح كبارهم واختباراتهم ؛ ومع ذلك فلم يعش فى وسطهم انجليزى أو روسى أو كندى واحد .

ويقال إنه كان لهم زعيم ينسبون مصدره إلى الاله ويعتقدون أنه متجسد فيه .

وإلى سنة ١٨٤٤ كان المذهب يعيش فى القوقاز ؛ وبعد وفاة زعيمهم « بيتر كالكوف » فى سنة ١٨٦٤ انقسم أهل المذهب إلى قسمين : قسم يؤيد الزعيم الجديد « بيتر فيرجس » ، وقسم يعارضه ، فانتهزت الحكومة هذه الفرصة وتدخلت فى شؤونهم وفصلت فى الأمر ضده ، وأمرت فى سنة ١٨٨٧ بنفيه فى مكان بعيد ، كان يزوره فيه بعض تلاميذه ومشايعيه ومعاونيه . ويمدونه بالمال والمعلومات ؛ وكانت تعاليمه مشابهة لحد كبير لتعاليم تولستوى ومنتشرة فى عدة أمكنة .

وحدث فى أثناء نفى زعيمهم ، وعند زيارة بعض اتباعه له أن أخبروه عن تولستوى وعن مذهبه ، وقدموا له بعض كتبه فاستجاب لها واقتنع بها ، وأصدر أوامره لشعبه بأن لا يأكلوا اللحوم وأن يجعلوا المال شركة شائعة بينهم ؛ وأن يتبعوا مبدأ عدم مقاومة الشر بالعنف ،

وأن لا يلتحقوا بالجيش ، وأن يحدوا من رغباتهم الجنسية فى حياتهم الزوجية ، فاعتبرت الحكومة هذا استمرارا منهم ومنه فى المشاغبة والثورة ضدها وأصدرت أمرها بنفى الزعيم إلى سيبريا — وفى طريقه ذهب بعضهم إلى ملاقاته أثناء مروره على موسكو ، وهناك تعرف تولستوى بثلاثة منهم ؛ وأرتاح لهم جداً لأنه فهم أنهم يعتقدون بنفس آرائه ويطبقونها عملياً ؛ ولكنه كان يجهل أنهم خاضعين لفكرة خاطئة عن ألوهية زعيمهم ولنظام استبدادى فظيع يسلم لهم كما كانت تسلم لوائح موسى بين آن وآخر .

ولقد اجتمع أصحاب هذا المبدأ فى ٢٩ يونيو سنة ١٨٩٥ وحرقوا علنا الأسلحة ومعدات الحرب ؛ فهاجمتهم الجيوش وقتلت منهم الكثيرين وشردتهم وعذبتهم ومنعتهم من السفر إلى أى مكان .

١٨٩٦

أثار هذا الاضطهاد عواطف تولستوى فأخذ يدافع عنهم بقوة سنة ١٨٩٦ . واستنجد بالدول الأوربية وكتب المقالات الحارة ؛ إلى أن وقف الاضطهاد فعلا ؛ وصرح لهم فى سنة ١٨٩٨ بالانتقال الى حيث يشاءون ، فسافر عدد وافر منهم الى كندا بعد استئذان حكومتها وموافقتها على عدم أجبارهم على العمل فى الجيش .

ثم توثقت علاقة تولستوى فى هذا العام « بشرتكوف » الذى كان يعاونه فى الدفاع ؛ والذى عهد إليه بطبع سائر مؤلفاته ، وأطلق له السلطة فيها لدرجة أثارت حقد الزوجة وغضبها وحقد بعض الأصدقاء وحسدهم .

وبعد تمثيل روايه له هى «قوة الظلام» سنة ١٨٩٦ فى موسكو ذهب اليه رهط كبير من طلبة المدارس يحيونه ويشيدون بذكره، فاهتم بهم لأنه كان يعنى بأمر رجال الجيل القادم إلا أنه شعر بالحياء والخجل فلم يعرف مايقوله لهم .

ولقـد أرهق من جراء طلبات الشعراء والـكتاب لرأيه فيما يكتبون ، ولـكنه كان يسر بتشجيع الـكتاب الذين كانوا يكتبون ويقولون الشعر للعامة .

وبمجرد أن كان يلمح أن شخصاً ما يرغب حقاً فى الوقوف على حقائق الحياة الـكبرى :فانه كان يرحب به ويرفع من أمامه جميع العوائق سواء كانت بسبب الجنس أو النوع أو الدرجة أو الأهليـة ليتيح له كل الفرص ليتحدث ويسأل على قدم المساواة كما يشاء حتى يتسنى له أن يفهم مايريد وأن يستوضح مشكلاته .

وكان صديقاً حبيباً لكل شخص نزيه فى بحثه وكان قوياً جداً فى التعبير عن آرائه:شجاعاً إلى أقصى حد فى مقاومة الظلم ، وإلى الآن لم يعرف رجل فى التاريخ كان أقدر من تولستوى على خدمة الآخرين وعلى محبة الغير ، وتشجيع الناس والتأثير فيهم وفى أخلاقهم .

وعندما كان يدخل داراً فيه أطفال كنت تجدهم يفرحون به ويهللون له ويذكرونه دائماً فى غيبته بكل خير ومحبة .

ولما ضغط مراقب النشر على ماكان يبغى نشره : أنشأ لنفسه مجلة خاصة كان يطبعها بالآلة الـكاتبة وأصدرها فى اثنى عشرة نسخه ،

وقد فقد معظم هذه النسخ من أيدى الناس إلا نسخ السيد « مود » أحد أصدقائه فهى باقية للآن .

ولقد سافرت من شيكاغو « جان آدمز » مع صديقتها « مارى سمث » ليشاهدا بنفسيهما تولستوى وليقابلاه شخصياً بعد أن تأثرتا بكتابه « ماذا نعمل إذاً » ، وكان والد الأولى صديقا « للنكولين » رئيس جمهورية أمريكا ، أما هى فقد خصصت نفسها بعد مرض طويل أثناء طفولتها لمساعدة الفقراء والغرباء والمساكين فى مدينة شيكاغو ، وكانت فى غاية الكفاءة والهمة ، وأقامت عدة فروع لخدمة هؤلاء المعوزين فى عدة أمكنة ، وأصبحت من كتاب أمريكا المعروفين. فلما قابلت تولستوى استقبلها وهو فى الثامنة والستين من عمره برحابة وبشاشة ورضى ،وسار مرة معها هى وصديقتها فى نزهة إلى النهر يبادلهما الحديث ويشرح لهما بعض آرائه وسلوكه ، فتأثرتا بتعاليمه وبطيبته وبمحبته وعادا إلى أمريكا وكتبت « آدمز » إلى « مود » صديق تولستوى تقول : — « إن مقابلتى لتولستوى كان لها أعمق الأثر فى نفسى فقد تأثرت حقيقة لا من كلماته فقط بل من أعماله ومن سلوكه الفعلى فى حياته ومن رقته ومن روحه الوديعة المتدفقة تديناً وصلاحاً ».

وزار مرة حاكم « تولا » فلم يجده ؛ ولكنه وجد كبير ضباطه الذى عرفه وأخذ يبالغ فى تحيته بين الكلمة والكلمة « بصاحب السعادة » فرغب أن يأخذ القطار حالا ليتخلص من كثرة هذه التحيات ، ولكن الضابط ألح فى أن يستحضر له التذكرة وسأله ؛عن

الدرجة التى يطلبها، ثم أردف سؤاله بقوله « طبعاً ياسيدى تسافر فى عربة خاصة » ولكن تولستوى خشى أن يقول له « درجة ثالثة » رغم أنه كان راغبا فى السفر فيها فعلا لئلا يزهل أو يرتبك فقال مضطراً : « لا . بل درجة ثانية » .

وقال مرة لصديقه :

« استطعت أن أستغنى عن الكثير ولكن شيئاً واحداً لا أستغنى عنه وهو غرفة هادئة أكتب فيها ... » .

وكان مرة واقفاً على افريز محطة لابساً لباس الفلاحين العاديين، فنادته سيدة وكلفته أن يسلم رسالة صغيرة لزوجها فى نفس القطار فى عربة أخرى مقابل خمسة عشر (كوبكس) دفعتها له فما كان منه إلا أن أخذ الرسالة بكل هدوء : وذهب بها فعلا وسلمها للرجل ، ولما عرفت بعد ذلك أنه الكونت تولستوى خجلت وضحكت واعتذرت وطلبت منه رد النقود ولكنه هو أيضا ضحك وأجاب « لا . لا هذا مال كسبته ... » .

وكان يلعب (التنس) بنشاط وخفه ، أما لعبته داخل البيت فكانت الشطرنج التى أتقنها لحد بعيد .

وقد نشر المجمع المقدس فى هذا الوقت بعض الكتب لمقاومته ومناهضة آرائه ورماه فيها بالجنون ؛ ولكنه لم يهتم ولم يغضب بل قابل كل ذلك بالابتسام والحلم والصبر .

وفى سنة ١٨٩٦ ترجم له إلى اللغات الأخرى : «مطالب المحبة» ثم خطاب عن عدم مقابلة الشر بالعنف وفى هذا العام كتب : «خطاب

للأحرار » : « الوطنية والسلام »، « كيف نقرأ الانجيل» و «خطاب لوزير الداخلية والعدل » يحتج فيه على القبض على طابعى كتبه ومقالاته وطلب أن يحاكم هو لا هم .

وأخرج « الاقتراب من النهاية » ذكر فيه بالاعجاب شخصا رفض الالتحاق بالجيش فى هولندا .

١٨٩٧ وفى يونية سنة ١٨٩٧ تزوجت ابنته «مارى» ثم كتب عن الثورة الروسية وعن التعاليم الدينية

١٨٩٨ وكتب جزءاً من رواية « البعث » التى انتهت فى آخر سنة ١٨٩٩، وراجت جدا فى انجلترا وأمريكا، ثم وضع كتاب « ما الفن؟ » مما كان يقتضيه الذهاب أحياناً الى التياترات وبعض المعارض وهو كتاب عظيم طبع فى انجلترا وانتشر فيها انتشاراً واسعاً .

وفى هذا العام وصله خطابان يهددانه بالقتل لاعتباره كافراً مخالفاً للكنيسة الروسية، ويحددان له ميعاد غايته ٣ أبريل سنة ١٨٩٨ لتنفيذ الجريمة فاهتزت الكونتس وانزعجت؛ اما هو فلم يحرك ساكناً ولم يتخذ اى احتياط للمحافظة على حياته .

وفى هذا العام اختلف صديقاه « مود » « وشرتكوف » لمدة طويلة على طباعة كتبه ونشرها وكتب لمود :

« لا يحزننى انك لاتعمل مع شيرتكوف بل لأنه لايوجد بينك وبينه شعور المحبة والتعاطف ، إن منشأ النزاع ليس ما تسميه كرامة ولكنه الكبرياء . ومع ذلك فلست أنا الذى أدينك» .

ومن خطاب له « للمستر مود » صديقه فى سنة ١٨٩٨ :

«لا يعنينى ما يرمينى به بعض الناس من التناقض أو من العيوب لأخرى، بل ان ذلك يفيدنى لأنه علمنى أن أعمل متفقاً مع ضميرى قط ، متجاهلا تماما حكم الناس . . هذا اختبار عظيم ثمين أحب ن أرفع دائما من قيمته . . ».

وفى سنة ١٨٩٨ كتب مقدمة لكتاب قام بتأليفه إبنه وكان كثير المرض فى شتاء هذا العام

١٨٩٩

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٩ حين كان مريضا كتب الى صديق له :

« أنى أشعر بالمرض بين آن وآخر ، وانى أوجه كل قوتى الى إخراج رواية « البعث » ، وأن حركات نفسية كثيرة تطرأ على نفسى، ولكنى أحمد الله فانى أرى من خلالها النور ، وأراه كل مرة أبهج وأوضح من المرة السابقة ،وكثيراً ما أدرك بأنى لست سيد حياتى بل انى فقط عامل فيها . . »

اما ابنته مارى فتزوجت فى يونيه سنة ١٨٩٧ وفى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ تزوجت الكبرى

وقد انتهى فى هذا العام من رواية « البعث »

١٩٠٠

ولما اعتلت صحته فى سنة ١٩٠٠ وعرف ذلك المجمع المقدس أصدر فى ٥ ابريل منشوراً سرياً للكهنة يسجل فيه بأن تولستوى خارج على الكنيسة ، وتعاليمها وفى حالة موته لا تقام له بالكنائس المراسيم الدينية المعتادة .

وفى أوائل سنة ١٩٠٠ كتب إلى صديقه « مود » خطاباً جاء فيه « أن صحتى لم تكن حسنة طيلة هذه المدة ؛ ولكن المرض أمر حتمى ؛ فلكى اموت يجب أن أمر أولا بالمرض تماما ، كما يجب على من يريد الانتقال من مكان إلى آخر أن يمر بالقطار مثلا . أنا لا أثور على المرض خصوصاً وأنه لايشعرني بألم ومع ذلك فهو يهيء لى فرصاً موفقة للتفكير والكتابة ؛ واني مشغول الان بكتابة شيء عن مسألة العمال ، وأرجو أن أقول ما أعرف فى ذلك ببساطة ووضوح »

***

وفى سنة ١٩٠٠ أيضاً كتب عن الرق فى عصرنا وعن الضرائب فقال عن الرق ما يأتى :—

« أن القوم فى سبيل تبرير استعباد العمال والفلاحين اخترعوا فى السنين الماضية النظرية القائلة بان هناك إرادة إلهية عليا كتبت الذلة والشقاوة لفريق من الناس ، وكتبت الرفعة والسيادة لآخرين ؛ وقد دافع العلماء عن هذه النظرية فى كثير من كتبهم . كما أن رجال الدين نشروا المواعظ المختلفة تأييداً لها ؛ حتى أثبتوا كما زعموا أن الله خلق الناس فريقين ، فريق العبيد وفريق السادة وأن فريق الفقراء لهم العاقبة فى الدار الأخرى !

فلما جاء الوقت الذى ظهر فيه زيف هذه الآراء المبتذلة ، خصوصا فى نظر الفقراء الذين أدركوا كنه مراكزهم لم يلبث العلماء أن اخترعوا « علم الاقتصاد السياسى » يبحث فى رأس المال والعرض والطلب والأجور والأرباح وساعات العمل و و .. الخ مما

يسير فى نظر العلماء على قواعد ثابتة ولكنه يؤدى فعلا وحقا إلى تفاقم الشر وقسوة الناس وغلظتهم وخشونتهم، ونشر الظلم والقضاء على العدل.

أن الرق موجود بالنسبة الى العمال والفلاحين والفقراء على اقصى شدته ولكننا لا ندركه ولا نبصره بوضوح، كما كان غيرنا لا يدرك ولا يبصر بيع الناس وشرائهم وامتلاكهم واسترقاقهم فى الماضى القريب، وكما كان القوم فى الماضى ينظرون الى هذا الامر الشنيع نظرة طبيعية كذلك نحن الآن ننظر الى الأنظمة الفاسدة القاسية السائدة فى عصرنا نظره باردة طبيعية

أن الرق الغى حديثاً فى روسيا وفى أمريكا، ولكن الحقيقة أن ما الغى انما هو شكل من أشكاله بطل استعماله وذهبت ضرورته فاستعيض عنه اليوم برق أقوى دعامة وبرق شامل لعدد أوفر من الناس»

***

أما عن الضرائب فقال :

«إن ١/٧ من الضرائب يصرف فى روسيا على التعليم، وهو مع ذلك تعليم سقيم ضرره أكبر من نفعه أما الباقى وقدره ٦/٧ فهو كتسليح الجيوش أمور ليست فقط غير لازمة بل ضارة كل الضرر، يصرف على ومد المواصلات الحربية وبناء الحصون والسجون ومساعدة رجال الدين ودفع مرتبات الموظفين الحربيين والملكيين الذين يحمون الانظمة الفاسدة الجائرة».

وقال عن التشريع والقوانين ما يأتى : —

« أما القوانين فهى لا توضع بارادة الناس كافة كما يزعمون، بل بارادة ذوى السلطان والقوة والنفوذ وليس هذا قاصر على الممالك الاستبدادية بل ينطبق على البلاد الديموقراطية كانجلترا وفرنسا وأمريكا ؛ وأن فائدة القوانين فى الواقع لا تعود الا على أصحاب السلطان والاغنياء .

وان هذا العلم القائم الذى يسمى « أصول التشريع » لهو أشد ختلاوخداعاً من علم الاقتصاد السياسى؛ وليس الغرض منه كما يدعون الشرح والارشاد عما ينبغى أن يكون، ولكن غايته المستورة هى التدليل على أن ما يقع الآن هو ما يجب ان يكون ».

وقال فى رواية البعث :

من هم أولئك الذين يسنون القوانين ويقيمون أنفسهم حراساً عليها ؟؟

أليسوا هم اصحاب الثروات الطائلة والملكيات الواسعة انهم سرقوا الأرض كلها وجردوا الناس من ملكية كل شىء . . وأنكروا عليهم حقوقهم . . وقتلوا من لم يذعن لارادتهم . . ثم شرعوا القوانين ووضعوها . . وحرموا على الناس بعد ذلك القتل والسرقة . . . .

وفى أغسطس سنة ١٩٠٠ بدأ المرض يأخذ دوراً شديداً أقلق عليه أهله وأصدقاؤه .

ولكنه شفى وكتب فى ٢٣ نوفمبر لصديق . . .

« لقد زرت ابنتى « تانيا » فى موسكو وقد شفيت ولكنى بعد

شهر من شفائي لازلت ضعيفاً قليل الميل إلى العمل وقد تضايقت من ذلك فى أول الأمر ؛ ولكنى عدت فارتحت ، وأدركت أن الانسان يستطيع أن يحيا مستريحًا راضيًا مهما لازمه المرض ، مادام نشاطه العقلى والروحى متوفر غير متعطل ؛ ولا منقطع وهذا هو الذى احيا به الآن لحد ما » .

١٩٠١

وفى ٢٢ فبراير سنة ١٩٠١ أعلن المجمع المقدس قراراً بحرمان تولستوى ، زعماً منه بأنه معلم كاذب ضد المسيحية وضد الكنيسة . وقد أثار هذا القرار غضب البعض على تولستوى ، فصودرت بعض كتبه ، ومنعت الصحف من ذكر الفاظ التمجيد والتعظيم له ، ومن نشر صورته فى الصحف ، وقيلت ضده المواعظ والخطب ، وأقيل من عضوية احدى الجمعيات ؛ وأمرت مصلحة البرق والبريد مستخدميها بعدم تسليمه رسائل التأييد والاعجاب به ، وأباحت تسليمه الرسائل التى تحوى السباب والشتائم .

غير أن نتيجة ذلك كله كانت انتصاراً باهراً له ، فقد قويت رغبة الناس فى اقتناء كتبه ؛ وأكبوا على الاطلاع عليها وبحثها ؛ فأحبوها وفهموها ومجدوا كاتبها ورفعوه إلى أكبر مقام .

وبينما كان يسير فى أحد الميادين قال أحد الناس لآخر هازئاً « أنظر أنه الشيطان يسير فى ثوب انسان » .

ولكن الجماهير بدلا من أن تهاجمه وتهينه ، كما كان المتوقع لهيكل من تحرمه الكنيسة ، فانها أحبته وهتفت له بمنتهى الاخلاص والحرارة لأن الناس وثقوا واطمأنوا على أنه أعظم مرب ومهذب لهم ولأولادهم .

وفى أحد المعارض حيث كانت صورته موجودة اندفع الناس اليها، يضعون حولها الزينات والزهور وسائر علامات التكريم، مما جعل الحكومة تأمر بنقلها.

أما الطلبة والطالبات والعمال، فقد ساروا فى الشوارع يهتفون له وذهبوا إلى داره ليظاهروه ويكرموه، ولقد انهالت عليه البرقيات والخطابات بالتأييد والتبجيل من كل مكان.

وبعد شهرين من قرار الحرمان بلغ حب الناس بتولستوى ان العامة حاولوا قتل رئيس المجلس الذى أصدر قرار الحرم.

كما أن كثيرين نشروا بعض الكتب للاعتراض على هذا الرئيس والحط من كرامته.

وقد اخطرت الحكومة للتدخل لحماية بعض رجال الدين من اعتداء الجمهور الذى وثق كل الثقة بفيلسوفه العظيم.

أما هو فلم يهتم لأمر الحرمان بشىء سوى أنه رد عليه رداً نبيلا عظيما وبعد أن بين فيه مايؤمن ومالا يؤمن به قال: —

« سواء كانت اعتقاداتى تضايق البعض أو تغضبهم، وسواء كانت عثرة فى سبيلهم أو صدمة لآرائهم، ومهما كان من أثرها فى نفوس من لا يحبونها، فاني لا أستطيع أن أتخلى عنها، كما أنى لا استطيع ان أتخلى عن جسدى. يجب ان أحيا حياتي انا، لا الحياة التى يختارها لى الناس فانا لوحدى الذى سأواجه الموت قريباً ان شاء الله . . .

وأنا لوحدى الذى سألقى الآله ..... ولذلك وأنا فى طريقى اليه لا أستطيع أن أؤمن بغير ما أؤمن به الآن ....

أنا لا اقول بأن ايماني هو أصلح الايمان في كل الازمان،ولكني أقول اني لم أجد للآن لنفسي أجمل ولا أبسط ولا أوضح ولا أصدق منه...ولاشيء يحل لي مشاكل عقلي وحياتي سوى ايماني هذا ... ومادمت قد وجدته فلن اتركه ؛ ولن أعود للحالة التعيسة التي أنقذت منها ...

ولعله يسر القارىء أن يعلم ان الشيخ محمد عبده ارسل لتولستوي الخطاب الآتي على أثر صدور القرار بحرمانه :

« أيها الحكيم الجليل المسيو تولستوي .

لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك ، إذ سطع علينا نور من افكارك ؛ وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ؛ ووفقك إلى الغاية التي هدى البشر اليها ، فأدركت أن الانسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ويثمر بالعمل ، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه، وسعيا يبقى به ويرقى بجنسه؛ وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها ؛ في ما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت إلى الدين فخرقت حجب التقاليد ، ووصلت به إلى حقيقة التوحيد ، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ماهداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هاديا للعقول ، كنت بعملك حاثاً للعزائم والهمم ؛ وكما كانت آراؤك ضياءاً يهتدي بها الضالون ، كان مثالك في العمل إماماً يقتدي به المسترشدون » .

(وهذا الخطاب يوجد فى كتاب جمعه السيد محمد رشيد رضا عن تاريخ الشيخ محمد عبده.)

وفى ١٥ مارس سنة ١٩٠١ أرسل تولستوى خطابا شائقاللقيصر، يعتبر كأنه صادر من نبى ،يطالب فيه بحرية الـكتابة والدين والتعليم ومساواة الفلاحين بغيرهم والغـــاء بعض القوانين الظالمة والاستبدادية .

وكان يُحسِن على الفقراء المنتشرين فى موسكو بنقود نحاسية صغيرة، رغم أنه كان يعرف أنهم يشترون بها خمراً ، فاعترضه بعضهم على هذا فقال : —

« إني لا أبغى من وراء ذلك حل مسـألة ما ، ولا أظن ذلك علاجاً لأمر ما ، ولـكن ينبغى إنماء الشعور الجميل فى نفسى أنا »

وقال عن النجاح .

« ليست العبرة بما نحصل عليه فى أعمالنا من النجاح اللامع البراق بل بالروح التى تقوم بها أثناء تأدية أعمالنا » .

وقد زاره مرة عظيم من أمريكا لبضع أيام ؛ واعترض عليه أنه شديد التمسك بآرائه ومبادئه الانسانية، ولا يقبل فيها خلافا ،ولكنه اعترف بعظمته ونزاهة آرائه ومقاصده واخلاصه .

أما تولستوى فقد قال عنه إنه تعلم كل العلوم وعرف جميع اللغات، وقرأ الكثير من الكتب ، ولكنه بالاسف لم يبدأ بعد يفكر .... »

وعبثاً حاول بعض أصدقائه أن يقنعوه بتبرير الحرب ، التي شنها

« ابرام لنكولن » . لأن الغرض منها كان انقاذ العبيد فى أمريكا وتحريرهم .

وفى هذا العام كان يعمل فى كتاب « الحل الوحيد » واليك بعض ماقاله فيه : —

« اعمل لغيرك ماتحب أن يعمله الناس لك »

عرف الناس هذا القانون منذ الفى سنة ، وقديما قال « كونفشيوس » :

« لاتفعل بغيرك مالا تحب أن يفعله الغير بك » .

ثم قال بذلك « بوذا » والمعلم « هيليل الموسوى » و « المسيح » وهذا قانون سهل مفهوم لاشك فى فائدته العظمى للبشر ، وكان المعقول أن يعملوا به على قدر جهدهم ، وأن يلقنه الآباء للأبناء ، ولكن آلاف الأعوام مضت وكأن الناس ماعرفوه وما فهموه وما وقفوا عليه إطلاقا .. . ومن عرفه منهم نظر إليه باعتباره قانونا غير لازم وغير مهم وغير عملى !!

فالكهنة والقسوس يعلمون الناس المئات من العقائد الاكايريكية ، والشعائر والنذور والطقوس السطحية ، ويذيعون بين الناس أن هذه القوانين هى أعظم الأوامر الالهية ، وأن من يخالفها يعاقب بالعذاب الأبدى ، ولكنهم يهملون هذا القانون العظيم !!

أما الحكام فقد سنوا قوانين جمة تخالف هذا القانون ، ودعوا الناس إلى وجوب طاعتها ، وانذروا من يخالفها بالعقاب ، وليس لهم من غرض سوى حماية سلطانهم ، وتغليب القانون الغريزي الحيواني الذى يدفع

كل شخص إلى محاولة التسلط على غيره ...

أما العلماء والاغنياء ، الذين لايؤمنون بالله فهم يزعمون أن لاشىء أنفع من العلم ومن مسائله ومن قوانينه !

فى وسط هذه القوانين اللاهوتية والحكومية والعلمية ، يختفى هذا القانون السهل الصريح الجميل ، مع أن العمل به يؤدى الى رفع معظم أثقال وآلام وهموم السواد الأعظم من بنى الانسان.

إن هذا القانون هو ثمرة اختبار السنين والاعوام الطويله من الحياة الانسانية كلها ، وليس هو مجهود رجل واحد أوهيئة واحدة ... ولقد وصل إليه الناس أجمعون بلا تمييز فى الأجناس والأديان وسائر الظروف والاحوال ، وهو قانون صادق فى كل زمان ومكان ، ومن درسه وفهمه لم ينكره أبداً ...

ان القوانين الأخرى قد لاتكون صحيحة إلا فى زمان معين ومكان معين ، ولم تدفع عن الناس شراً ، ولم تجلب لهم خيراً ، بل هى التى خلقت الضغائن والاحقاد والآلام بين الناس ...

أما هذا القانون فكله خير ، ولا يؤدى إلا إلى السلام والوئام والسعادة ..

وإن حاول الناس أن يتعلموه بنفس الهمة التى يتعلمون بها اليوم الخزعبلات والخرافات ، أو العلوم الضارة ، أو العلوم القليلة الفائدة لتبدلت حياة الانسان وتبددت سحب الظلم والظلام ...

١٧

أما عن العمال فانى أنقل إليكم بعض ما كتبه لهم فى أواخر سنى حياته :—

الى العمال :—

قد دنى أجلى ، وقربت نهايتى : وأحب أن أنبئكم قبل أن أموت بما جال فى خاطرى ، وتردد على ذهنى ، عندما فكرت كثيراً من أجلكم ، ومن أجل مركزكم الحرج ، ومن أجل تحريركم ، ومن أجل محاولة إخراجكم من المآزق ، عسى أن تنتفعوا بتفكيرى .

إنى أخاطب العمال الروسيين الذين أعيش فى وسطهم ، والذين أعرفهم وأعرف أحوالهم أكثر من باقى عمال أوربا ولكنى أرجو أن يستفيد الآخرون من حديثى .

حقا إنكم لستم ملزمين بقضاء أيامكم وحياتكم فى عوز وشغل شاق فى حين أن أصحاب رؤوس المال ممن لا يشتغلون أبداً هم الذين ينتفعون بكل ماتنتجونه .

حقا أنكم لستم عبيداً لهؤلاء الناس ، وواضح لكل ذى عين وقلب ، ان حالتكم ليست مما ينبغى بقاؤها ، ولكن ما الذى يحسن عمله لتغيير الحال ؟

يخيل لكم أن الحل السهل الطبيعى هو الالتجاء إلى القوة ، لانتزاع ثمار مجهوداتكم ، من الذين يستغلونها استغلالا غير عادل ،

ولكن هذه وسيلة ضارة أكثر منها مصلحة، ثم هى غير ناجحة ولن تصل بكم الى أغراضكم .

لقد أصبح الآن فى حوزة الحكومة كثير من الاموال والسكك الحديدية والاسلاك البرقية والتليفونية ورجال البوليس والجيش وسائر أنواع القوة التى يستخدمونها فى البطش بكم، والقضاء على قوتكم ؛ فلا تلبث فتنكم أن تنتهى كما انتهى غيرها فى الماضى ، بتعذيبكم وبانتصار العاطلين (أصحاب المال) على العاملين .

أن مثلكم يامعشر العمال فى محاولتكم مقابلة الظلم بالعنف مثل الشخص الموثق الذى يحاول التخلص من وثاقه ؛ بالشد عليه فتزداد عقـــد القيد تماسكا وشدة !

يقول البعض بأن حالكم يتحسن شيئاً فشيئاً بواسطة إنشاء جمعيات التعاون والنقابات والقيام بالمظاهرات وانتخاب من يمثلكم فى «البرلمان»، وأنكم فى النهاية ستمتلكون الآلات والمصانع والمعامل والأرض وتسيطرون عليها ... أبداً هذه طريقة مليئة بالعقبات؛ وهى مبنية على أفكار جائرة متناقضة ، ومع أنها ليست إلا حمقا فقد انتشرت فى الأيام الأخيرة ، وصادفت قبولا فى الممالك المشتغلة بالزراعة والصناعة على السواء .

هذا هو المذهب الحديث المسمى بالاشتراكية ، الذى يدعو إلى ترك الأرض وترك الاستغلال الزراعى وترك الصناعة التى يتمتع بها الناس فى الأرض، ويدعو إلى العمل فى المصانع تحت سلطة أصحابها، ويدعو إلى ابدال عادات الفلاح وحالته الصحية السليمة وسعادته

فى عمله الزراعى بعادات أخرى ضارة مملة متعبة داخل جدران المصانع .

هذه الاشتراكية إنما تدعو إلى ازدياد الحاجيات والرغبات والتمتع بأكثر ما يمكن منها ، فلا فائدة إذاً منها لتحرير العمال ... فهم ليسوا فى حاجة الى كثرة الحاجيات ؛ ولا إلى رفع الأجور ، ولا انقاص ساعات العمل ، ولا إلى جمعيات التعاون ؛ بل هم فى حاجة إلى شىء واحد فقط هو « العمل فى الأرض » ؛ أذ ليس لديهم منها سوى جزء صغير لسد رمقهم هم وعائلاتهم ...

ان الاشتراكيين يقولون لكم « دعوا الأرض أولا ، واتركوها ، وابذلوا جهودكم لتملك الآلات والمصانع ، فانكم بعد أن تتملكوها فستملكون الارض ... »

هذا عمل كله تعقيد ، فان المصانع لا تصنع سوى المدافع ؛ وسائر الأسلحة ، والروائح العطرية ، والصابون المعطر ؛ والمرايا والشرائط الحريرية ، وغير ذلك من أدوات النعيم والترف ، التى لا حاجة لكم بها ، ثم هم يريدون منكم أن تتعلموا هذه الصناعات ؛ وأن تحذقوها بمهارة فائقة ، فتفقدوا كفاءتكم على فلاحة الأرض ثم يعدونكم زوراً بتملكها بعد ذلك !! .

ان الحياة فى الأرض بين النبات والحيوان ، ووسط الحقول ، والحصول على الغذاء مما تنتجه ، لهى أهنأ حياة ، وأوفر سعادة واستقلالا ، وستبقى كذلك الى ما شاء الله ، وهذا حق أدركه الناس من قبل ، ولا زالوا يدركونه حتى اليوم .

عودوا أيها العمال الى الأرض ...

أنتم فى حاجة الى شىء واحد فقط : هو البحث عن الوسائل التى تحرركم من رق المصانع لترجعوا الى الأرض ،التى اغتصبها منكم الملاك الذين لا يعملون فيها ويحولون دون اقامتكم بها ...

إن الأرض تنتج وفرة من المحاصيل تكفينا جميعا اذا نحن عنينا بالزراعة العناية الواجبة .

ان ملكية الأرض يجب إلغاءها ، لما نجم عنها من الظلم والجهل والقسوة، ولكن كيف يمكن إلغاؤها ؟ إن الحكومات مؤلفة دائما من قوم يعيشون على حساب غيرهم وعلى كدهم ،وأن ملكية الأرض هى التى تؤدى الى رفاهيتهم، فالحكام والملاك وكبار الموظفين والفنيين وكبار التجار والأتباع يرتبطون بروابط عدة تجمع بينهم المصالح والفوائد، فهم لا يعنون بالغاء الملكية لأنهم سيخسرون مراكزهم القائمة على انتفاع الكسالى بمجهوداتكم

كما ان أخذ الأرض بالقوة مستحيل لأن السلطة هى بأيدى الملاك وهم فى كل وقت أقوى منكم .

أما الانتظار الى أن تتحقق فكرة الاشتراكية فهو منتهى السخف، ويؤدى الى جعل العمال أذلاء لرؤسائهم ، وإن الاشتراكية تهيئكم فى المستقبل لأن تكونوا عبيدا أيضاً لأولئك الزعماء الذين سيديرون النظام الجديد

قد يلوح فى بادىء الامر أن لاحول لكم ولا قوة ، وأن قيودكم ووثاقكم شديدة يستحيل التخلص منها، ولكن الحقيقة المؤكدة هى

انه فى وسعكم أن تتحرروا . .

فمتى أنعمتم النظر : تجدون انكم تملكون حتما شيئا غير الثورات والفتن، وغير الاشتراكية ، وغير الحكومات وغير الزعماء

أنتم تملكون وسيلة لا يمكن مقاومتها وهى فى كل وقت فى قبضة أيديكم . اقتنعوا أولا بأسباب الظلم .... املأوا يقينكم بأن مصدرها كلها هو الملكية وافتقاركم الى الأرض .

ثم اعلموا أن مبدأ تملك الأرض هو جريمة ، وخطيئة ، كالقتل والسرقة والرباء مما يجب عليكم اجتنابها

املأوا اعتقادكم بهذا أولا ، واملأوا جوارحكم به واعرفوا أن الملكية شر ، وان الاشتراك فيها شر ، وانها شر كأكبر أنواع الخطيئة ، ومتى رسخ ذلك فى نفوسكم تدريجيا ازداد عددكم ووضحت فكرتكم على مر الأعوام وانفضحت عواقب الملكية الوخيمة .

هذا هو الذى يؤدى الى تكوين وحدة أقوى دعامة وأطول أجلا من وحدات الاعتصاب والثورات ....

كثيرا مايقال : ماذا نحن فاعلون ضد الأغلبية التى لاتقرنا ؟ وكثيرا مانظن أن النجاح فى مسألة ، مالا بد فيه من موافقة الناس جميعاً ، أو أكثرهم على الأقل ...

لا.لا ... إن هذا الاتفاق ، أو هذا الاجماع ، لايلزم إلاحين يراد اقتراف الآثام والاعتصاب والتخريب والثورة ، وقاكم الله شرها ، أما الخير فيكتفى فيه ولو بشخص واحد ، لأن الله تعالى نصير الخير دائماً ، ومن كان الله له نصيراً ، أخذ الناس بيده ، وشدوا عزيمته ، إن قريباً أو بعيداً

انى أريد كم أن تعتقدوا، كما أعتقد أنا، أن الملكية خطيئة، وانها أمر محرم كباقى الجرائم ...

إنى أنصحكم أن لا توجهوا قواكم الى معاركة الطبقات الحاكمة، بل وجهوها الى تحسين اخلاقكم وحياتكم الشخصية، فان تعس الناس ناشىء عن سوء الحياة الشخصية . أكثر مما هو ناشىء عن الأمور الخارجية والأنظمة الاجتماعية الأخرى

انكم إن أخطأتم، ففهمتم الأمر على غير ذلك، ووجهتم عنايتكم وأفرغتم جهدكم فى تبديل وتغيير الأنظمة والقوانين، فان حياتكم لا تزداد إلا سوءاً ....

لا فائدة فى أن نفكر فى تغيير الجنس البشرى، وفى إصلاحه، مادمنا لا نفكر فى إصلاح نفوسنا، ان جميع الطرق التى توصل الانسان الى الخير : انما تفتح أبوابها على مصراعيها لمن أصلح نفسه »

* * *

وفى ٢٩ يونيه ساءت صحته واضطرب قلبه ، فأرسلت زوجته الى تولا تستدعى طبيبا رغم اعتراضه .

وكان يرى أن المرض يجب أن يستخدم لتحرير الروح من الخضوع لمطالب الجسد ؛ ويرى انه واسطة لنقل الانسان الى الموت، بغير أن يكون مثقلا بالانفعالات والأهواء والرغبات والشهوات الجسدية ، لأن المرض يضعف كل ذلك الى حد كبير .

وقال :

« المرض كالنار : فكما أنها سبب للحريق،فهى أيضا مصدرخير كثير »

وبعد شفائه من أزمة حادة قال لابنته ، ماياتى قاصداً أن يخبرها أنه كان على وشك الموت :

«إن العربة سارت بى ، حتى وصلت الى الباب (يقصد الموت) وكدت أدخل واتوغل ... ولكن فجأة غيرت الخيل وجهتها،وتحولت العربة بعيدا عن الدار ... إنه شىء يؤسف له ... فالطريق كان سهلا معبداً ... وأخشى أن أجده خشناً صعباً فى المرة القادمة ... »

ولكن التحسن لم يستمر طويلا ، ففى ٣ يوليه فقد قوته على الكلام وأعلن الطبيب سوء الحال ، إلا انه فى بعض الفترات كان يشعر بشىء من التحسن،فينصرف الى الكتابة ولكنه كان دائما يصاب بنكسة على أثر ذلك .

وأخيراً قررت العائلة استدعاء طبيب من موسكو سبق أن وفق فى علاجه فى سنة ١٨٩٩ ، ولما وصل الطبيب قرر انه مصاب بذبحة صدرية ونصح بنقله الى مكان أدفأ لأن جو « ياسنايا » كان رطباً.

ثم عاد فى ١١و١٢ يوليه فتحسن قليلا ، وأستطاع أن يمشى من غرفة الى أخرى . وفى أثناء مرضه كان يحس بالعطف والمحبة والود يحوطه من كل جانب من أفراد أسرته والمقربين اليه ، وبالأخص من أخيه الذى أحبه كثيرا ، والذى توفى فى أغسطس سنة ١٩٠٤

وقد دعته الكونتس «بانن» الى ضيعتها فى«جسبرا» والى قصرها هناك ، عندما علمت بحاجته الى مكان دافىء ، كما أن وزير المواصلات

الأمير «خلكوف» أمر باعداد عربة خاصة تلحق بقطار ممتاز، ليسافر فيه مستريحاً ، فسافر ولما وصل مع زوجته وابنته وبعض أصدقائه ، الى «تولا» فى طريقهم من «ياسنايا» شعر بالمرض يشتد عليه ؛ ولكنهم مع ذلك فضلوا الاستمرار فى السفر ، وفى الصباح شعر بتحسن ملحوظ .

وفى محطة « خاركوف » اجتمع جمهور كبير من الناس ، ليروه فلم يرتح لهذه المظاهرات، ولكنه سمح لبعض الطلبة بالدخول اليه فى العربة ليتحدثوا اليه ، كما انه اضطر أمام الطلبات المتكررة أن يطل من النافذة ويحيي الناس .

ثم تحسنت حالته قبل وصوله الى « سيفاستبول » ، حيث وجد أيضا الجماهير تنتظره، ولكن البوليس احتجزهم فى مكان ما بعيد عن المحطة .

وقد مكث بهذه البلدة ليلة واحدة ، وتمكن من الخروج بعد الظهر، وزار متحف آثار حصار «سيفاستبول»، فعاودته الذكرى لما وقع له فى أثناء الحصار ، أيام ان كان جنديا.. وقد رأى المواقع والامكنة القديمة ، إلا أنه بمجرد أن وقع بصره على صورته فى هذا المتحف أحس بتعب ، اضطره الى العودة الي الدار وفى أثناء طريقه قال : « ما أسوأ هذا !!.. مافائدة كل هذا البناء الشاهق الذى يعنى فيه بجمع كل هذه الآثار الشنيعة المؤلمة ؟...

إن الواحد يجب أن ينسى هذه الوحشية ، لا ان يذكرها .. ثم يذكى ذكراها !!... انه لمزعج انه لمزعج !! »

ثم غادر تولستوى ورفاقه ومن بينهم« بولنجيه » سيفاستبول الى «يالتا» بطريق البر ؛ وعندما وقفوا فى احدى المحطات ليغيروا الخيل قابل تولستوى شابا وسأله عن اسم مكان ما . فأجابه الشاب بخشونة ازدراء ، ظنا منه انه فلاح بسيط ... وبعد قليل سأل الشاب «بولنجيه» من يكون هذا الشيخ ؟ فكان الجواب انه «تولستوى» فقال الشاب : ماذا ؟ كونت تولستوى الكاتب العظيم ؟ ... آه يا الهى ... يا الهى ... ثم القى بقبعته فى الوحل قائلا :

« انى كنت مستعدا أن أقدم كل ما أملك لأستطيع أن أرى تولستوى وأن أتحدث اليه ... »

ولما وصلوا الى «يالتا» ، تحسنت صحته ، وبدأ يكتب ، واجتمع «بتشكوف» و «جوركى » عدة مرات ، واستقبل فى منزله « ويزر » عازف البيانو المشهور ، واستمتع فى كثير من المرات بهذا النوع من الموسيقى الذى أحبه من كل القلب .

١٨

١٩٠٢

وفى يناير سنة ١٩٠٢ أصيب بأزمة من جراء الذبحة الصدرية ولكنه ظل يكتب فى بعض الأحايين وأحس مرة بقرب موته فكتب إلى القيصر :

« أخى العزيز

إنى أرى أن هذا اللقب هو اللقب المناسب ؛ لأنى إنما أخاطبك كأخ لا كقيصر . ولأني متوقع موتى قريباً ، فانى أكتب إليك فى أمانة وصدق ، كأني أكتب من عالم آخر ؛ وانى لا أحب أن أموت قبل أن أتحدث إليك عما يجب أن يكون ... »

ثم أخذ يشرح له فى تفصيل أنظمة روسيا الاجتماعية ، مؤكداً له أنها لم تعد صالحة ، طالبا منه أن يقوم ببعض الاصلاحات .

ثم مرض فاستدعى أهله له طبيباً من موسكو ؛ فلما وصل وجده مصاباً بالتهاب فى الرئتين .

وما أن علم المجمع المقدس بأن تولستوى لن يبرأ ، حتى أصدر تعليمات سرية بأنه فى حالة وفاته يجب فى سرعة على أحد الكهنة أن يدخل منزله ثم يخرج على التو ويعلن (كذبا) بأن تولستوى قد ندم وأنه رجع إلى الكنيسة الأصلية وأنه اعترف وأنه قد أخذ « التناول » قبل وفاته . كل هذا ليحاول رجال الدين القضاء على تعاليمه وعدم نشرها .

وفى آخر فبراير شعر المريض بتحسن ، واستطاع أن يخرج على مقعد خاص يسير على عجل وفكرت الأسرة فى العودة ولكنه مع ذلك تحسن ثانياً فغـــادر « جسبرا » إلى « سيفاستبول » ، وكان أمامه بعض الساعات يقضيها فى الانتظار ، ولما شعر بشدة الحر طلب أن يستريح فى حديقة المحطة ، ولكنه سرعان ما جلس حتى تعرضت له إحدى السيدات ، وطلبت إليه أن يخرج قائلة أن هذه الحديقة هى لموظف كبير ، وليس لكل من هب ودب أن يجلس فيها ؛ فخرج صامتاً ساكتاً ، وقبل أن يغادر المكان ادركته الجماهير فاجتمعت لتحييه قبل رحيله : فعرفته السيدة التى طردته وطلبت بكل الحاح أن تراه وأن تعتذر له ، ولكن لشدة الزحام لم تتمكن ، فندمت وتألمت وقدمت طاقة من الزهر ، وطلبت أن تسلم له وأن يغفر لها .

وأهم ما كتبه وهو فى « جسبرا » هو « ماهو الدين ؟ »

وبمناسبة الدين فقد قال :

« أن حقائق الحياة العظمى متوفرة فى كل الأديان الهامة »

وفى « ليبزج » فى ٩ يوليه سنة ١٩٠٢ حوكم ناشرى كتب تولستوى ومترجمها بتهمة الزندقة ، ولكن المحكمة قضت بالبراءة ، وقررت فى أسباب حكمها أن تولستوى هو أعظم قوة أخلاقية لروسيا ولكل العالم .

ومن « سيفاستبول » عاد إلى داره فى « ياسنايا » حيث كان يزخر بالزائرين وأفراد العائلة كلهم ، وليس فيه سوى أثاث بسيط قديم ،

وخال من الأبسطة والسجاجيد : كما أن الحديقة كانت مهملة، مما يدل على أن ساكن الدار كان منصرفاً إلى أمور أخرى على أعظم جانب من الأهمية .

وكانت روحه المليئة بالرأفة والمحبة والصراحة والبساطة والحكمة تسيطر على كل هذا الوسط ، وكان الجميع يحيطونه بالمحبة والتقدير والاجلال ...

قال مرة مازحاً مع طبيب : « حسن . أنا طالما أسأت القول فى الأطباء ، أما وقد اختبرتهم فاني الآن أعترف بأنى لم أنصفكم ، حقاً إنكم رجال طيبون ، وتعرفون كل ماقدمته لكم العلوم ولكن هذه العلوم لسوء الحظ هى التى لاتعرف شيئاً ....»

وفى أثناء أقامته فى « ياسنايا » فى هذا العهد ، رؤى أن يلازمه طبيب خاص ،ولكنه لم يقبل هذا الترتيب ، إلاعلى شرط أن يكون هذا الطبيب فى خدمة باقى الفلاحين — وفعلا نفذ الطبيب هذا الشرط وأقام فى « ياسنايا »

أما أخته « الكونتس مارى » فقد ذهبت بعد وفاة زوجها إلى الدير ، وأقامت هناك إلا أنها حصلت على أجازة بسبب مرضه، وسافرت وأقامت معه بعض الوقت .

وكان لايكره ولا يغضب من أولئك الذين ينتقدونه أو يخالفونه، إلا أنه اعترض مرة على صحيفة فرنساوية نشرت ما اعتبره غير صحيح عن آرائه فى المسائل الجنسية ، وأرسل خطاباً بذلك يسند

الخطأ فيه إلى أحد أصدقائه الذى جمع آرائه من أوراق متناثرة غير مؤرخة ولا مرتبة .

وقد انتهى تولستوى من رواية « الحاج مراد » ،وكتاب آخر عن « الأب سيرجى »؛ ولكنه أوصى أن لا يطبعا إلا بعد موته لأنه لم يجد وقتا للمراجعة والاصلاح .

وقال عن الغرور : « أنى متسلح ضده ومنتبه اليه » .

ثم اخرج كتاب « ماهو الدين ؟ » وبعض توجيهات للجنود .

وقد تقدم اليه ناشر أجنبي وعرض عليه مليون « روبل » مقابل الحصول على الحق المستمر فى نشر كتبه . وتقدم اليه آخر بمئة ألف روبل مقابل النشر لمدة سنتين فقط . ولكنه صمم على مبدئه بأنه متنازل عن سائر حقوق النشر ، وأنه يعطى لكل واحد الحق فى أن ينشر مايشاء من كتبه بغير مقابل ؛ وإلا فانه يعتبر نفسه معيباً مثل ذلك الرجل الذى يندفع فى شهامة الى تخليص غريق من الماء ثم يطلب بعد ذلك أجره !!

وطالما صرح بأن اصلاح النفوس وتثقيفها لا يجب أن يؤجر عليه أحد .

وفى هذا الوقت ضعف تولستوى جداً فلم يستطع أن يلعب الشطرنج وكان دائم التفكير فى الدين . وقال عن المرض لاصدقائه :

« انى كسبت كثيراً عن المرض لدرجة أنى أصبحت أحبه لكم جميعاً » .

وفى أول نوفمبر سنة ١٩٠٢ كتب يهاجم كذب الكهنة ونفاقهم وسوء تعاليمهم وتفاسيرهم

١٩٠٣

وفى يناير سنة ١٩٠٣ كان لا يزال ضعيفاً بعد إصابته بانفلونزا وشفائه منها، وكان يشكو من الكبد ومن القلب، وفى ٦ مايو سنة ١٩٠٣ كتب ثانيا الى صديقة «مود» يرجوه مخلصاً أن يكون على سلام ومحبة مع «شيرتكوف» واخبره بأنه ينوى أن يكتب عن حياة الاشخاص الماديين ، وأن يكتب عن شوبنهور الذى قال عنه بعد ذلك : « حقيقة أنه كان مجنونا ولكن أى شخصية موهوبة هو . . ؟ لقد أخذت أنا حقاً بسحر لغته وألفاظه ومنطقه عندماقرأته لأول مرة ..... أى قوة هو ... وأى جمال ؟ ولكنى بعد ذلك أخذت أفكر على مهل وأخذت أحاول أن أهضم ما قرأت .... يا الهى لقد ظهر لى أنه متوحش .... أى توحش ... انه لمزعج حقا أن يحط شوبنهور من قدر الديانات لهذا الحد ! ! »

وحدث بعد ذلك وهو فى سن الخامسة والسبعين ، أن ركب حصاناً ولما أراد أن يعبر مجرى صغيراً نزل من عليه وقاده من زمامه شفقة به . إلا أن الحصان داس على قدمه ، فأصيب اصابة بالغة وعجز عن السير وعن الخروج واضطر الى ملازمة مقعده ذى العجل .

١٩٠٤

وانصرف فى هذا الوقت الى الكتابة عن عدم المقاومة بالعنف مرددا فى كل وقت أن استعمال القوة الجسدية فى دفع الشر هو أسوأ أنواع الأسلحة وأسوأ أنواع العلاج .

ويحكى ان منزله هوجم مرة بجيش من الفيران فاتخذت الاحتياطات اللازمة لصيدها ، ولكنه امر بعدم قتلها ، فاخذت حية الى مكان سحيق حيث تركت هناك حرة طليقة

أما صديقه « مود » فكان يرى أن العيب ليس فى القوة ولكنه فى الوسائل والنيات ، لأن القوة قد تكون لازمة ومفيدة ، اما النيات السيئة والدوافع السيئة فهى دائمـــا وفى كل وقت شريرة آثمة .

وكتب « مود » إلى تولستوى بهذا الرأى فرد عليه :—

« إنى ارجوك ن تعيد قراءة ما كتبته .. وانك لو حللت حججك لاقتنعت بخطئك واكتشفت بنفسك مواضع الخطأ ... اما اذا لم تكتشفها فلا انا ولا غيرى نستطيع ان ندلك عليها ... » .

وفى هذا العام نشبت حرب قاسية بين روسيا واليابان فتألم لها تولستوى آلاما عميقة شعر معها بشر هذه العاطفة التى تسمى بالوطنية لدرجة انه بكى عند سماعه بسقوط « بورث ارثر » .

وكتب « عودوا الى انفسكم » منتقداً هذه الحرب وسائر الحروب ، واعلن عن مقته لها فى اروع بيان واقوى حجة ، وقد ذكر بعضه فيما سبق .

وقد عنى هذا العام بجمع مقتطفات من اقوال عظماء الكتاب فى كتاب سمى الجزء الأول منه « آراء الحكماء » .

وكانت روسيا فى هذا الوقت ثائرة ، فتطلعت جميع الهيئات والاحزاب الى كسب تأييد هذا الرجل العظيم الذى كان يهاجم القيصرية

بكل شجاعة واقدام ، ولكنه عارض جميع هذه الاحزاب ، لأنها جميعاً ترمى الى القوة والعنف

وظل ينادى بأنه يجب أن يجاهد كل فرد أولا لتحسين خلقه ونفسه

ولم يوافق على تكوين الهيئات والجماعات من عدة أشخاص ، مختلفى الرأى والقلب والضمير ، كالكنائس والجمعيات والأحزاب السياسية ، لأنه لم يتوقع منها خيراً ، وكان يرى أيضاً أن الأعمال السياسية هى أعمال فارغة لا تستحق عناية المصلح الاجتماعى الحقيقى

١٩٠٥

وفى سنة ١٩٠٥ ألف بعض الكتب والروايات وكثيراً من المقالات لتأييد نظريته فى وجوب عدم استعمال العنف ،

وفى حوالى سبتمبر سنة ١٩٠٦ مرضت زوجته ، وتأثر هو لذلك وقال لها مرة « لأنك ملازمة الفراش ولا تسيرين بين جوانب المنزل وحوالى الغرف ، فاني أشعر بوحشة لصوت اقدامك ، وإني لذلك لا أستطيع أن أقرأ أو أكتب كما أحب » — ثم أجريت لها عملية نجحت بعد ثلاثة أيام ثم شفيت بعد شهر

وفى أكتوبر سنة ١٩٠٦ استطاع فى أحد الايام بعد الظهر أن يلعب الشطرنج مع أحد زملائه ، وكان فى العادة يلعبها بحذق ولكنه لم يكن لينصرف أثناء اللعب عن أى غرض آخر ، فكان يمزح ويتحدث مع الجالسين كما يشاء وكما يشاءون

ثم قال عن الحركات الثورية والاجتماعية فى روسيا

« لا ينتظر وقوع أى تقدم مالم يكن الرقى الاخلاقى أساسه وأن

أى اتجاه يعتمد على القوة لا يمكن أن يعتبر بأى شكل اتجاها خلقيا سليما »

وقد أظهر اعجابه بـ « جولد سميث » الكاتب الانجليزى المشهور

وفى نوفبر سنة ١٩٠٦ توفيت ابنته الأميرة مارى فى « ياسنايا » أثر اصابتها بالتهاب رئوى لحزن عليها هو وكل من عرفها

١٩٠٧ وفى ٣٠ يناير سنة ١٩٠٧ استولى البوليس على كل النسخ المطبوعة من كتبه .

وفى مايو كتبت عنه ابنته «تايتانا» بأنه فى الشهرين الآخرين كان ضعيفاً وكان يصاب أحياناً بنوبات تقضى على ذاكرته وانه كان يقرأ لبرناردشو .

وكان أظهر مافى أيامه الأخيرة هو رقة حاشيته ووداعته التى لاحد لها وتمسكه الشديد بمبادئه ومحاولة تطبيقها عملا وبكل اخلاص فى سائر المناسبات .

١٩٠٨ وفى آخر أيامه فتح المدارس مرة أخرى فى هـذا العام لأطفال القرية وكان يلقى عليهم أحياناً خطابات وقصص مفيدة ، ويحدثهم فى أسلوب بسيط عن الحياةوواجباتها .

وأم ماحدث فى هذا العام أن بلغ ألمه أشده من جراء ماكان يلاحظه من عيوب ونقائص فى أنظمة الحكم فى روسيا ؛ ومن جراء البؤس والشقاء الذى خيم على مملكته ، فخرج من صمته بعدأن سكت طويلا عن السياسة فكتب : « لا طاقة لى بعد اليوم على السكوت » شرح فيه ماتعانيه روسيا من البلاء ، وشرح مساوىء القوة واحتج

على شنق الكثيرين من الناس ممن اعتبرتهم الحكومة ثائرين ، ودعى فيه الى الاتحاد والائتلاف برباط المحبة ونبذ العداء ؛ ثم وجه فيه الى الحكومة العبارة الآتية : —

« اذا كان لا بدلك من سفك الدماء وارتكاب الجرائم وازهاق حياة الناس ، فهاك رأسى أقدمها أنا فدية لبنى وطنى »

وقال فى آخر المقال :

« إني سأكتب مقالى هذا ، وسأنشره بكل وسائل النشر فى روسيا، وفى كل العالم ؛ حتى يقع أحد أمرين، إما أن تقف هذه المظالم الموجعة . واما أن أودع أنا فى سجن بعيد عنها . وخير من هذا وذاك وهو ما أطلبه من كل نفسى ، أن يضعونى على نفس طبلية المشنقة وأشد بتقلى الخناق على رقبتى ، لألاقى نفس مصير من يعدمون ، ولاسقط مثلهم صريعاً » .

وقد أثار هذا المقال شعور الطبقات المثقفة وحزن الأحرار، ودفع الناس الى تقديم كافة أنواع الاحترام والتكريم لهذا الرجل العظيم .

وقد ترتب على طبع هذا المقال القبض على محرر الصحيفة وتغريم صاحبها ، وبعد ذلك قبض على «سكرتيره» وصدر الامر بنفيه

وفى أغسطس سنة ١٩٠٨ وصل تولستوى الى عمر الثمانين ففكر الكثيرون فى الاحتفاء به وإقامة المآدب والحفلات له ولكنه اعترض على ذلك بكل قوته .

وقد قال أحد الخطباء مازحا فى هذه المناسبة :

« إن أحسن تكريم له هو أن يرسل الى السجن من أجـــل

مؤلفاته التي يسجن بسببها غيره من الناشرين »

فعلق تولستوى على ذلك بما يأتي :—

« حقاً لا شيء يرضيني رضاء جزيلا أكثر من إيداعي فى سجن حقيقي ، ألاقي فيه الظلمة والجوع والبرد . إني لا أستطيع أن أتخلص من رغبتي الحقة في هذا المصير ، لا هذلا ولكن جداً ، ليرضى بذلك الناس الناقون على مؤلفاتي ، ولأنال أنا قبل موتي ، وفى آخر أيامي ، سعادة حقة ورضى أوفر ، ولا بتعد أيضاً عن هذه الحفلات »

واتجهت الحكومة فى هذه المناسبة فى أول الامر الى محاربة الحفلات ، وهددت بمعاقبة القائمين بها والمهتمين بأمرها ، وكذلك حرض رجال الدين الناس على عدم الاشتراك فى أي تكريم ، ولكن بمجرد أن جاء يوم الثمانين حتى ظهرت رغم ذلك كل علائم الاحترام والتبجيل والتقدير لهـــذا الشيخ ، وقد بلغ الأمر بالوزراء أنفسهم أن لم يصدروا اى أمر بالقبض على أحد . أما الصحف فقد خصصت أكثر أمكنتها إن لم تكن كلها لتكريمه وذكر مناقبه وأسباب عظمته وسموه ، كما وردت له آلاف الرسائل البرقيـة بالتهنئة من روسيا وغيرها . أما هو فـكان ملازماً داره عقب النقاهة من إحدى النوبات المرضية غير حافل بكل هذه المظاهرات .

وقد قدم الى روسيا فى هذه المناسبة لزيارته ورؤيته عظماء العالم من انجلترا وفرنسا وامريكا والمانيا وايطاليا والهند واليابان

وقد زارته فتاة اخذت عهداً على والدها أن يمكنها من رؤية تولستوى ان هى نجحت فى الامتحان

وقد لقب بأنه « رجل العالم »

وان أصح ماقيل فى هذه المناسبة أثناء الخطب هو

« لقد اتضح أن أعداء الحرية والفضائل كانوا هم أعداءه ، وان أصدقاؤها كانوا هم أصدقاءه » .

١٩

واليك صورة خطاب تعطيك فكرة عن شخصيته فى آخر هذا العام كتبه الى سيدة أرسلت له تقول :

« نعم أيها الكونت ليونيكولافتس . إني أود لو أستطيع أن ألطمك على وجهك من أجل كتاباتك الكفرية . كما إنى أود لو أعذب كل اتباعك ومشايعيك لو كانت لدى القوة على ذلك ».

فأجاب عليها بما يأتي :—

« اختى العزيزة

وصلني كتابك الذى اشكرك عليه كثيرا، لأنه ادخل على نفسى بعض السرور ، إذ يفرحنى ان الاحظ عليك حبك للتدين وأن أحس برغبتك فى أن تعيشى حسب قوانين الله .

أما أن يتمسك الانسان بدينه ؛ فانى متفق معك عليه ولا اخالفك فيه ابداً، بل هو الذى سيؤدى الى تفاهمنا الروحى وإلى إتفاقنا لأن كلانا يشترك فى الرأى الاساسى الجوهرى فى الامر، اما فيما عدا ذلك فاننا مختلفين .

أنا اظن ان الشخص الذى يؤدى مطالب السماء حقاً ويقوم بواجبه حقا: هو الذى يكون فعلا مثلا للرجل الطيب الصالح فيكافح لكى ينتصر على الشر ، ولكي يقوم بكثير من الاعمال الصالحة . أما اى محاولة اخرى شكلية بعيدة عن هذا الهدف، يقصد بها إرضاء الله فهى وهم وخداع ونفاق ، يصرف الانسان عن الغرض الاساسي الى اغراض تافهة سخيفة .

ولئن نسير بخطوات بسيطة، وسعى متواصل،واجتهاد مستمر، فى هـذا السبيل لهو كل المطلوب منا . ولذلك كان الواجب الاول على الشخص هو ان يسعى إلى الرقى بنفسه بدون ان يضيع مجهوده فى شىء غير ذلك .

إن الله قد منح للانسان كل الوسائل التى تهيء له الطريق فى سبيل التقدم الروحى :فوهبه «الضمير» الذى يسلحه ضد الاثم ، وقد أعطاه «العقل » ليميز به الخير من الشر .

ان ملك السماء ليس بعيداً عنا بل هو فى داخلنا قريب منا .ولكننا لانصل اليه إلا بالكفاح والجهاد .

انى ألاحظ شيئاً آخراً فى خطابك:هو شعورك بالتواضع عندما تتحدثين عن شخصك ، ولكن عندما تتحدثين عن الدين يختفى هذا التواضع،وتثور فيك الكبرياء ولعل مرجع ذلك هوانك انت واولئك الذين اشتركوا فى تعليمك : تظنون انكم لوحدكم الذين تعرفون كل الحق ، وأن غيركم لايعرف عنه شيئاً . أما أنا فلا أظن أننى لوحدى الذى أعيش فى النور وغيرى يعيش فى الظلام فقد بلغت الثمانين من عمرى ولكنى لازلت أبحث عن الحق . إن معلميك ظلموك وضللوك وهم المسئولين عن خطيئة الكبرياء فى نفسك .

إن كل شخص فى أعماق نفسه له وجهة نظر خاصة فى اتجاهه إلى آلهه،وصلته به ، وهذه المنطقة من الانسان هى منطقة حرام مقدسة، ينبغى أن لا يحاول أحد أن يقتحمها، وينبغى أن نعلم أنه ليس فى متناولنا أبداً أن نعرف كل مافيها :

كل ماتكتبينه عن حياتك يسرنى. وأرجو الله أن يوفقك الى إنفاذ مشيئته لوحده ، وعندئذ هو سيكون معك ،ومتى كان الله معنا فكل شىء عظيم جميل .

أنت تقولين إنك آسفة لأنك لم تطلعى على كتاباتى ، فها أنا أرسلها لك بكل سرور ...

وإلى اللقاء ثم سامحينى وا كتبى لى»

ولقد انتهى الأمر بهذه السيدة أن عدلت عن أفكارها الأولى، وعن تعصبها الذميم ، وعن تمسكها بآرائها القديمة واعتنقت مبادىء تولستوى بكل إخلاص .

وفى الشهور الأخيرة من حياته ، نشأ بينه وبين زوجته خلاف كبير بسبب رغبة هذه الزوجة فى أن تستولى على مؤلفاته كلها ، وأن تتولى هى نشرها وان تحتكر سائر حقوق التأليف لتحصل من وراء ذلك على المال الوفير ، إلا انه كان قد سبق فأعلن تنازله عن سائر حقوق التأليف والنشر والترجمة ،واباح لأى انسان فى أى مملكة ان ينشر مايشاء وأن يترجم مايشاء من كتبه ، بغير اذنه وبغير أى مقابل وصمم على ذلك حتى النهاية . اما هى فلم ترض عن هذه المبادىء السامية ولم تستطع ان ترتفع إليها ...

ونصب صديقه «شرتكوف» على مباشرة الطبع والنشر ،وسلمه كثيرا من المسودات مما أغضب الكونتس ،وجعلها تمقت «شرتكوف» هذا وتحقد عليه وتنفر منه . ويرى بعض الكتاب أن هذا الشخص كان سبباً ملحوظاً فى زيادة الخلاف وسوء التفاهم بين الزوج وزوجته

وقد أصبحت الزوجة فى حالة عصبية شديدة وطالما تظاهرت برغبتها فى الانتحار ، أما هو فكان يحب السلام ؛ ويحب أن لا يزعجها، ويختلق لها المعاذير ويغفر لها ويأتى باللائمة على نفسه .

وقد كتب عنها كاتب فى آخر أيام تولستوى، يرميها ببعض الرذائل فاعترضه بشدة وقال إنها مسكينة ، وإن حالتها الصحية غير سليمة وان البواعث والعواطف تختلط عليها وتتناقض فى نفسها .

١٩٠٩

وفى سبتمبر سنة ١٩٠٩ ترك تولستوى «ياسنايا» الى بلدة قريبة من موسكو لزيارة صديقه «شرتكوف» . ولما عاد من الزيارة بعد اسبوعين—وقد اتعبته الجماهير الغفيرة فى المحطات بسبب الاستقبالات الحارة—لازم الفراش . ولما سئل عن صحته أجاب «إنى دائماً قريب من الموت . وهذا حسن . إنى فى مثل عمرى هذا لست مستطيعاً أن أجرى أو أقفز وذاكرتى تخوننى كثيرا ، وقواى العقلية والجسمية تضعف ولكن شيئا واحدا فىّ يزداد نماءً وتوفراً هو «القوة الروحية». وإنى لا أرضى عنها بديلا من سنين شبابى الاولى مهما كانت مليئة بالقوة والنشاط .

وقد اطلع على بعض مؤلفات «برناردشو» وأعجب بها وأثنى عليها وقد أرسل «شو» اليه كتابا من كتبه وطلب اليه أن يعلق عليه فأرسل اليه خطابا قال فيه :

« ياعزيزى المستر «شو»: إن الحياة أمر جاد عظيم ، وكلنا أثناء اقامتنا القصيرة فيها ، يجب أن نسعى وأن نبحث عن هدفنا الأساسى بكل قوتنا .

ولأني واثق بأنك سوف لاتستاء عند ما أذكر لك بعض ملاحظاتي على كتابك ، فانى أقول لك أنك لست كثير الجد فى كتابتك عن هدف الحياة الاساسى ، وعن أسباب شرورها ونقائصها وآلامها ، فهذه مواضيع فى الدرجة الأولى من الأهمية لايجب أن تعالجها فعلا وأن يكون ذلك بكل اجتهاد وبكل وقار .

وقد لاحظت أيضا أنك تتعمد أن تفاجىء وتدهش قراءك بما تكتبه فى مهارة وذكاء ، مما قد يؤدى إلى صرف نظرهم عن التفكير فى المسائل الهامة .

كما أن شرحك لبعض هذه المسائل هو شرح ابتدائى غير ناضج وأرجو أن يتطور فى المستقبل القريب إلى نوع أكمل حتى يصل بنا إلى الحقيقة الواحدة التي نحاول جميعا أن نقترب منها .

وإنى أرجوك أن تغفر لى ، إذا كنت ترى فى خطابى شيئاً لايرضيك ، لأنى ما كتبته لك إلا لأنى أقدر مواهبك العظيمة وصداقتك الخالصة » .

وقبل أن يموت ببضع شهور قال حينما استعرض بعض أسماء الكتاب العظام: لايوجد أحد منهم حياً الآن . ثم استطرد « إلا ربما جورج برنارد شو »... وكان معجباً كل الاعجاب « بديكنز » وأطرى « رسكن » و « جوجول » و « أمرسن » و « بوشكين » الذى وضعه فى الدرجة الأولى .

وكان وهو فى هذه السن لازال يسير على كرسيه ذى العجل ويعمل عند ما يستطيع بكل همة ومثابرة .

كان الرجل قوى العاطفة والعقل، مخلص إلى أقصى حد ، فكانت الكلمات التى يكتبها قوية نفاذة ، تصل إلى قلوب الناس ، وتعتمل فى نفوسهم ، وتتفاعل مع تفكيرهم ، فتجعل منهم أشخاصاً آخرين متجددين .

ولم تنشر أو تترجم كتب أى فيلسوف إلى لغات كثيرة فى حياته مثل كتب هذا الشيخ .

لقد كان أعظم رجل شغل أذهان الناس فى عصره . ذلك لأنه كان موهوبا أمينا مخلصا مجتهدا دقيقاً شجاعاً صابراً ، متمتعاً ببديهة عظيمة وقوة فى الملاحظة وجمال فى فن الاخراج ، مخلصا كل الاخلاص فى خدمة الحق والخير منكراً ذاته مهتما بأهم المسائل البشرية العويصة ، محاولا أن يضع آراءه فى سهولة ووضوح ويكاد يكون من المستحيل أن نجد شخصاً آخرا مثل تولستوى، أو فى الدرجة الثانية له، رغم أن بعض آرائه فى بعض المسائل الاجتماعية تخالف آراء كثيرين غيره ، وقد توصف بالغرابة والشذوذ .

لقد سجل هذا الفيلسوف اسمه ، وأثره فى قلوب الناس ، لقد آمن إلى آخر لحظة فى حياته بمبدأ المحبة وظل يعمل بهذا المبدأ حتى مات .

ولا شك فى أنه لم يوجد فى كل كتّاب القرن التاسع عشر فى روسيا من مهد الطريق إلى « لينين » « وتروتسكى » أكثر من هذا الكاونت الذى ظل يطعن على كل الأنظمة الفاسدة ويهدم فيها بأمانة واخلاص حتى آخر حياته .

ولا يوجد كتاب . ولا كاتب : جعل من روسيا أمة جديدة عظيمة غيره. ولا يوجد شخص يمقت الشيوعية العنيفة مثله.

ولم يوجد فى روسيا غيره أحب الفلاحين وشجع فيهم الجرأة وعدم الخوف .

وكما كان «روسو» أساس الثورة الفرنسية فكذلك كان تولستوى رغم إرادته مصدراً للانقلاب الروسى .

ولقد كان له أثره فى الهند فان «غاندى» وملايين من أتباعه تشبعوا بآرائه فى عدم مقاومة الشر بالعنف .

أما فى روسيا ذاتها فقد تأثر أهلها بعد وفاته بآرائه واندفعوا إلى ثورات عنيفة كان هو ينكرها ويحذرهم منها .

واليك بعض ماقاله عن المدنية الحديثة : ـ

ان المنتوجات العقلية والمادية قد تقدمت وتعاظمت تعاظماً فاق كل تناسب مع التقدم الروحى حتى أصبحت هذه المدنية بوضعها الحاضر تشبه قنبلة من الديناميت وضعت فى أيدى أطفال صغار فلا يستخدمونها إلا فى الدمار والخراب .

اننا نسير ببطء وتأخر فى تقدمنا الروحى أما فى المسائل العقلية والمادية فاننا نقفز قفزات سريعة عجيبة .

وفى هذه الأيام الأخيرة شعر بمرارة الخلاف مع زوجته واتسعت الهوة بينهما، لأنها كانت تتصرف كأن غرضها الأول أن تؤذى وتغيظ زوجها وتحط من قدره لدرجة أن ابنتها الـكونتس مارى أقامت نفسها عدوة لأمها ، ففكر أن يهجر منزله إلى جهة ما .

وقد قيل بانها كانت تحب « تانيف » الموسيقى المشهور ولكنها قيدت فى مذكراتها ان محبتها له كانت بريئة . وانها لا تحفل باقاويل الناس وانها كانت تحب اغنيته المشهورة : « اغنية بغير كلمات »

وفى سنة ١٨٨٤ حاول ترك الدار ولكن لشدة تمسكه بأهداب المحبة والسلام عاد قبل أن يصل إلى أقرب بلدة .

ثم حاول ذلك أيضا فى يونيو سنة ١٨٩٧ وقد كتب وقتئذ خطابا لزوجته لم يسلم اليها إلا بعد وفاته وجاء فيه ما يأتى :ـ

« عزيزتى سونيا

إنى غير مستطيع أن أحملك على تغيير حياتك وعاداتك ، ولهذا فقد عزمت على الرحيل .

إني وقد أصبحت شيخاً وقربت من السبعين، أتوق من كل قلبي إلى السلام والهدوء والوحدة ، فاغفرى لى ودعينى أذهب بسلام وبقلب راض مستريح .

ان ذهابى ليس معناه أنى غير راض عنك ، فأنا أعرف أنك بالأسف لاتستطيعين أن تبصرى ولا أن تشعرى بما أبصر وبما أشعر ، وانى عالم أنى غير مستطيع تغيير أى شىء فى حياتك . لهذا لا أعيب عليك شيئا ولا أدينك فى أمر ما، ولكننى بالعكس أذكر بكل محبة الخمس وثلاثين سنة الماضية التى قضيناها سويا خصوصا نصفها الأول حين كنت تغدقين على من عناية الأم واخلاصها وتضحياتها .

أما فى السنين الخمسة عشر الاخيرة من حياتنا فقد اختلفنا

بالاسف كثيرا ولم أستطع أن أكون كما تريدين أنت ، لانى أدركت النور وعرفت الحق ولن استطيع ان اتخلى عنه أبدا .

سأذكرك دائما بالشكر والمحبة على كل ماقدمتيه لى من خير ... الوداع ياعزيزتى سونيا »

ولعله من المناسب أن نقارن بين هذا الخطاب وبين بعض ما كتبه لزوجته حين رغب فى الزواج منها :—

«هل ستكونين زوجتى ؟ إن كنت تستطعين أن تقولى من كل قلبك وبغاية الاطمئنان « نعم » فقوليها ، وإلا فقولى « لا » — من أجل السماء أرجوك أن تفكرى فى الأمر جيداً . حقيقة إنه ليزعجنى أن تقولى « لا » ولكنى مستعد لسماعها ومستعد لاحتمالها لأن الذى يحزنى أكثر منها أن لا تحبنى زوجتى بمقدار ما أحبها » .

١٩١٠

وقد حدث مرة أن ابنته غضبت منه فى سنة ١٩١٠ على شأن من شئون طباعة كتبه لانها أرادت أن تفضل « شرتكوف » على والدها وقد لاحظ عليها أنها غاضبة فعتب عليها ، ثم بعد قليل قام باشارة يستدعيها فلم تذهب ، ثم دق الجرس ثانية لها فلم تتحرك ، وأخيراً أرسل اليها رسولا ، ولما قدمت قال لها :—« إني كنت فى حاجة إليك لتكتبى عنى خطاباً .» ثم سكت ... فجلست هى مستعدة للكتابة إلا أن الشيخ الهرم أسند رأسه بيده على ذراع المقعد وأخذ يبكى وقال لها فى عبراته :—« لم أعد الآن يالكسندرا فى حاجة إلى كتابتك ومساعدتك » فتأثرت وقامت فى الحال وألقت بنفسها تحت قدميه طالبة منه الصفح والمغفرة وسط دموعه ودموعها .

وأخيراً أحس بأن حياته أصبحت مستحيله فى «ياسنايا» بسبب تمرد زوجته . ويحسن أن ندون له هنا خطاباً سطره لها فى ١٤ يوليو سنة ١٩١٠ :

« أهم ماأبغى أن تعرفيه هو أني لازلت أحبك كما أحببتك فى شبابك الماضى رغم كل الاختلافات التى بيننا والتى نشأت من عدم متابعتك لاتجاهاتي الروحية ومن عدم اهتمامى بالحياة وآمالها الفارغة، وبقائك أنت مشغولة بها مشغوفة بحبها . . . إنى لاألومك ولاأؤنبك فلا حيلة لى ولك فيه : وهو سر بين الله والانسان وليس من حق أحد أن يتعرض له .

ولكن طباعك قد ساءت فى الايام الاخيرة وأصبحت مستبدة عصبية للغاية : وانى من أجل حرصى على عدم فراقك حاولت فى الماضى أن احتمل كثيرا . . . أما اليوم فانى أخشى أن أكون غير مستطيع الاحتمال » .

ثم طلب منها الموافقة على بعض الشروط الخاصة بطابع ونشر الكتب وقال فى آخر الخطاب :

« فان لم توافقى على هذه الطلبات فانى أسحب وعدى لك بعدم الفراق . إنى سأذهب بعيداً لأنه قد أصبح مستحيلا علىّ أن أحيا هذه الحياة؛ ولو كان فى مكنتى أن أحتمل أكثر من ذلك لصبرت

واحتملت . . . قدّرى الأمر حسناً . . . أصغى إلى قلبك وضميرك فتستطيعين أن تصلى إلى أحسن قرار ... أما أنا فقد قررت أمرى نهائيا . . . انى غير مستطيع . . . أنفى ياعزيزتى عن تعذيب نفسك فانك تعذبينها مئات المرات أكثر مما تعذبين غيرك .... هذا كل مافى الأمر ... »

ولكن الزوجة لم تغير سلوكها لأنها فقدت توازنها العقلى، ولأن الحقد كان يملأ قلبها.وقد دفعها هذا الحقد بعدمونه إلى أن حاولت عبثا تشويه سمعته بالكذب والتضليل .

فلما أعيته الوسائل بعد ذلك رأى من الخير لها وله أن يغادر الدار إلى جهة ما ، فاتخذ قراره النهائي فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٠ .

وما أن آوت هى إلى مخدعها فى هذا المساء حتى جمع هو بعض أوراقه وحملها مع قليل من الملابس وأخبر صديقه الطبيب الملازم له بعزمه على الرحيل فى التو ؛ وودع أبنته الكسندرا بعد أن وعدها بأن يمكنّها من اللحاق به . وفى نحو الساعة الخامسة صباحا ترك المنزل بسرعة إلى الاسطبل فى ليلة مظلمة كان يعثره ظلامها أثناءسيره السريع؛وأيقظ السائق وطلب منه اعداد العربة وكلّفه باغلاق الباب لكى لايشع من المكان نور قد يرشد زوجته اليه .

ولما أعدّت العربة، اصطحب طبيبه وخرج وقرر أولا أن يزور أخته التى كانت مقيمة بأحد الاديرة وركب القطار عند الظهر من أول محطة واضطر إلى أن يقف وقتا طويلا فى نهاية العربة حيث كان المطر يتساقط والهواء يشتد فأصيب بالبرد وأخيراً وصل إلى الدير

حيث قابل راهبا فقال له : « أنا تولستوى هل تقبلوننى للمبيت هذه الليلة ؟ » فأجابه « نحن نسمح بذلك لكل طارق » .

وفى الصباح قابل أخته التى كانت تحبه ويحبها ؛ ولأنها مطلعة على ظروفه فعندما التقت به بكت وبكى هو معها . وأقام فى تلك القرية حيث لحقت به ابنته الكسندرا حسب وعده وأخبرته أن أمها الكونتس حاولت الانتحار كالعادة ؛ ثم بحث عن كوخ من أكواخ الفلاحين لاستئجاره فلم يجد ، وقال لأخته أنه لولا ما يحيط وجوده فى الدير من تأويلات دينية لفضل أن يبقى فى هذا المكان الهادىء البعيد ، ولعل هذا هو سبب الخطأ فيما نسبه بعض الكتاب إليه من أنه ترك منزله ليعيش فى الدير .

وقد قضى اليوم الثانى (السبت) مع أخته واستأذنها بغير أن يكون لديه أى تصميم على مغادرة البلدة ؛ إلا أن ابنته الكسندرا حرضته على السفر لئلا تلحق بهما أمها . وفى هذا المساء مرض ولكنه رغم ذلك استيقظ فى الساعة الخامسة صباحا من يوم الاحد وأخذ القطار الى بلدة قريبة ليلتقى بأحد أصدقائه ويكلفه باعداد جواز سفر له إلى خارج روسيا ، وعند الظهر أحس بالمرض وهو فى القطار فقرر الطبيب الملازم له أن يتخلفوا فى أول محطة هي « استوبوفو »

وبمساعدة ابنته والطبيب استطاع تولستوى بمشقة أن ينزل وهو يسعل كثيرا وقد ارتفعت درجة حرارته واختل نظام نبضه ، فما كان من ناظر المحطة إلا أن وضع داره تحت تصرفه .

وقد استقبل هذا المرض بروح راضية وكان يقول :

« إن الموت ينذرني كما ينذر لاعب الشطرنج خصمه عندما يهدده بالاستيلاء على « الملك » مثلا . »

وفي صباح اليوم التالي (الاثنين) قيد في مذكراته بعض الافكار. وما كان يعلم أحد مكانه لولا أن أحد الصحفيين كان يتعقبه في سفره بدون علمه.

وقد أرسلت الكسندرا برقية الى أخيها الاكبر في موسكو ليبعث لهم بالطبيب وأخبرته أن والدها يرغب في رؤيته فسافر اليه حالا .

وقد كتب الى بعض أولاده :ـ

«أرجو أن لاتلوموني لأني لم أرسل لكم لتلحقوا بي فان هذا قد يؤلم والدتكم .....

وإني أنصحكم وأنا على حافة الأبدية أن تفحصوا بكل أمانة واخلاص وعناية :ـ من أنتم ؟ وما أنتم ؟ ومامعنى الحياة البشرية كلها ؟ وكيف يجب أن يقضيها الرجل العاقل ؟» .

أما زوجته فما أن عرفت من الصحف أن زوجها يقيم في (استوبوفو) حتى أخذت قطاراً خاصاً مع بعض أبنائها الى هذه البلدة.

ولما وصل الطبيب قرر أن المريض مصاب بالتهاب في الرئة اليسرى ولكنها اصابة غير خطرة ؛ والغالب أن الاجهاد العصبي الطويل هو الذى قضى عليه.

وفي مساء الاثنين أول نوفمبر شكى المريض من قلبه ولم ينم نوماً مريحاً ولكنه في الصباح استيقظ واستطاع أن يملي هذه الكلمات:ـ «في

طريقى الى المكان الذى أردت أن أكون فيه وحيدا .... » ولم يستطع أن يكمل، وكانت هذه الكلمات آخر محاولة له فى الكتابة .

وفى الساعة الخامسة بعد ظهر الثلاثاء استدعى اليه «شرتكوف» «ونيكتين» وأظهر لهما أنه يخشى عدم ارتياحه فيما لو علمت زوجته بمرضه وجاءت اليه، وقال لشرتكوف: «أنت تعلم أنها لو حضرت هنا فلا أستطيع أبدا أن أرفض مقابلتها » ثم أخذ يبكى.

وقد وصل فى هذا الوقت الى حالة من المرض لم يستطع معها أن يتحرك الا بمساعدة غيره، وفى مرة بعد أن قام بمعاونته ثلاثة أشخاص قال فى كلمات حزينة متأثرة بعد أن شعر بجهد الحركة :ـ «الفلاحون ... ! الفلاحون ... كيف يموتون!؟ » ثم اغرورقت عيناه بالدموع .

وطلب أن يقرأ له أحد شيئا فقرأ شرتكوف مقالا كان أعده للطبع ليصف فيه كيف ترك تولستوى منزله .

ثم قضى بعد ذلك ليلة قلقه تخللها شرود الذهن واضطراب القلب حتى بلغ عدد نبضاته من ١٢٠ الى ١٢٠ نبضة .

وفى يوم الخميس اشتدت عليه العلة فابيضت شفتاه وذبلت عيناه، وظهر على وجهه الضمور وظل عقله شارداً وأنفاسه شديدة ، وكان يحاول دائما ملاقاة مصيره فى صبر واحتمال .

وفى بعض الاوقات كان يقول: «انه صعب جدا ... عسير جدا ... ماذا يجب أن أفعل.. » ولعله كان يقصد من ذلك ان اتمام مشيئة الله وارادته والحصول على الكمال المطلق هو من أصعب الواجبات .

وفى الساعة الثانية والنصف صباحا أيقظت الكسندرا شرتكوف

وقالت له: «ان والدى فى حالة سيئة جدا» فذهب الى غرفته ولما أحس به طلب منه أن يقرأ له شيئاً فاطاعه شرتكوف ليرضيه وأصغى تولستوى إلى القراءة اصغاء حسناً .

ولما علم أن الاطباء يحقنونه بالمورفين عارض فى ذلك .

ومن الكلمات التى كان يفوه بها بين آن وآخر الدالة على أنه لم يكن ليخشى الموت « آه ... إنه حسن !! هـــذا أيضا حسن ... كل شىء بسيط وحسن .. انه حسن .. نعم ! نعم ! » .

وكان يستقبل أثناء مرضه فى كل يوم ابنه الاكبر وابنته الكبرى وغيرهما ويتبادل معهم عبارات الحب العميق . وقد سأل ابنته مرة عن زوجته التى كان يظن أنها بعيدة عنه فى «ياسنايا» وانها مريضة وانها لاتعرف عنه شيئا بينما هى كانت تقيم فى غرفة بجواره ولكن ابنته كانت تتحاشى الاجابة خوفا عليه فقال لها :- « يجب أن تعلمى أنه ضرورى لراحة نفسى أن أعلم ذلك » ثم بكى ورأت ابنته أن تتركه فحيته وخرجت .

وفى يوم الجمعة فكر كثيراً فى زوجته وخشى أن يظن الناس بها سوءا، وفى هذا الوقت وصلته برقية من أحد رجال الكنيسة الكبار ليطلب اليه العودة الى الاعتقاد بتقاليد الكنيسة فقال لابنه :- « قل لهؤلاء السادة أن يتركونى بسلام » وفى المساء حضر كاهن مبعوث من المجمع المقدس ليقابله ولكن أهله أبوا عليه ذلك .

وفى يوم السبت الساعة الثانية بعد الظهر جلس فى فراشه وقال بصوت عال « هذه هى النهاية .. وانى أقدم لكم فقط هذه النصيحة .. ان

هناك كثيرين في الدنيا غير «ليوتولسوى» .. فلماذ تهتمون بي أنا لوحدى؟؟»

ولم يكن يخشى الموت كما ظن بعض الكتاب ، لأنه كان شجاعا في «سيفاستبول» ولأنه كان في مرضه الاخير غير خائف ولا متذمر ، ولأنه كان دائما متوقعا هذه النهاية الحتمية .

وفى نصف الليل من يوم السبت كانت الحالة شديدة وسمع يقول « لكى ينجو .. لكى ينجو .. !! » وفى الساعة الرابعة صباحا عند ما كان فى غيبوبة دخلت عليه زوجته وقد أمسكت انفعالاتها وسارت اليه فى هدوء وسكون وركعت تحت أقدامه وقبلت يده وقالت هامسة : - «سامحنى» ... فتنهد تنهدة عميقة ولكن لم يعرف ان كان أحس بوجودها أم لا .

وقد عنيت الكونتس بأن يؤخذ لها عدة صور فى هذا المكان بمناسبة وبغير مناسبة لدرجة أن احدى بناتها غضبت وانتقدتها فأجابتها أمها بقولها : - «على الاقل .. على الاقل . ليعرف الناس انى كنت معه فى هذا المكان» .

وفى الساعة السادسة من يوم ٧ نوفبر اجتمع كل أهله حوله وقال الطبيب الذى كان يقف معهم بجوار مخدعه : «تلك هى الانفاس الاخيرة» وبعد بضع دقائق فاضت روحه بسلام وهدوء ورقد مغمورا باقدس الآراء وأقدس الاهداف .

وقد زاره فى الاسبوع الأخير من مرضه كبار رجال الحكومة ومن بينهم مبعوث من رئيس الحكومة والمحافظة وكبار الضباط

ورجال الصحف والمصورون والسينمائيون.

وقد كان لوفاته دوى عظيم فى سائر أنحاء العالم فسرعان ماسمع الناس بهذا الخبر حتى قاموا باظهار شعور الحزن العميق والمحبة والتكريم كما أظهر القيصر نفسه وأعضاء مجلس الدوما ومجلس الدولة شعورهم الفائق بخسارة روسيا فى أعظم كتابها وأصلح رجالها، وقد ظهرت الصحف مجللة بالسواد، وأغلق أصحاب التياترات والملاهى دورهم، وأعلنت الجامعات عن مواعيد كثيرة لحفلات الرثاء والتكريم.

ونقلت جثته بمشهد لامثيل له من العظمة فى قطار خاص بعد أن صدرت الاوامر بوقف القاطرات الأخرى، وكانت الجماهير فى كل محطة تتجمع وتتزاحم زحاما شديدا لاظهار سائر أنواع التقدير والتبجيل لهذا الراحل الفريد ولتشييع جثمانه الطاهر الى مقره الاخير.

ومن بين هذه الجموع احتشد أهل «ياسنايا» كلهم يحملون علما مكتوبا عليه «تولستوى... ان ذكرى طيبتك سوف لاتزول من قلوب الفلاحين».

ثم نقلت الجثة أخيراً الى قبر حفره الفلاحون محاطاً بشجر البلوط الطويل فوق تل صغير أوصى أن يدفن فيه، لأنه كان من خمس وسبعين سنة خلت هو المكان الذى كان يلعب فيه هو واخوته، وكان هو المكان الذى زرع فيه أخوه «نيكولا» فرع شجرة أخضر صغير تذكاراً لجمعية أنشأها الشقيقان كان شعارها تآخى الناس جميعاً وارتباطهم برباط المحبة والصداقة.

إعترافي

١

أذكر مرة أنى بينما كنت مجتمعاً باخوانى ، وأنا فى الثانية عشر من عمرى ، إذ دخل علينا تلميذ فى يوم أحد ، وأمضى معنا طول اليوم ، يحدثنا عن فكرة جديدة خطيرة اكتشفتها مدرسته ، وهى أن الله غير موجود ، وأن كل التعاليم التى قالت بوجوده هى من مخترعات الناس ، وبعد أن اشتركنا جميعا فى البحث ، ارتحنا لقبول هذه الفكرة ورحبنا بها.

ثم أذكر أيضا أنه كان لنا شقيق أكبر هو « ديمترى » ، مؤمن بدينه مخلص لعبادته ، يصلى ويصوم ، ولا ينقطع عن الكنيسة ، ويتمسك بالحياة الفضلى ، فكنا ونحن صغار نهزأ به ونطلق عليه لقب « السيد نوح »

وإن « موسين بوشكين » عميد « جامعة كازان » فى ذلك الوقت ، دعانا جميعاً إلى حفلة راقصة ، ودعا معنا أخى « ديمترى » هذا ، ولكنه رفض تلبية الدعوة ، متمسكا باعتقاده أن الرقص مناف للدين ، رغم أن العميد حاول عبثاً أن يقنعه بأن الملك داوود نفسه وهو نبى كان يرقص أمام « التابوت » .

وكنت وأنا فى هذا السن المبكر ، أقرأ « فولتير » ، وأحبه وأحب تهكمه على الدين وعلى رجاله .

وقد كان لهذا النفور من الدين أثر فعال فى حياتى ، كما كان له نفس الأثر فى الكثيرين من أمثالى .

ولعلى أستطيع اليوم أن أعلق على هذا الموقف بملاحظاتى الآتية :ـ

« يعرف الناس جميعاً قواعد دينهم ويحفظونها عن ظهر قلب ، ولكنهم لا يطبقونها فعلا ، بل قد يطبقون عكسها تماما ، لأن الدين فى نظرهم هو أمر بعيد عن الحياة ذاتها . . . كائن فى دائرة مستقلة ما غريبة عن هذه الأرض وعن هذه الدنيا ، وهو فى نظرهم أمر تحيط به الأسرار والطلاسم ،

فلا يستهدون بإرشاداته فى علاقاتهم وفى معاملاتهم ! !

وكلما تعارض الدين مع مغريات هذه الحياة من شهوات سفلى ، انتصرت شهوة الدنيا على الدين ، لأن سلطان الأخير فى نفوس الناس لايعدو المظاهر الشكلية للعبادة ، وكل الذين يتمسكون بهذه المظاهر لايبغون من ورائها سوى تحقيق مصالح شخصية مادية .....

ولازلنا نرى فى كل يوم أن الذين يتعلقون بشكليات العقائد ، هم الذين يؤلفون الأكثرية الساحقة من المرائين والبله وغليظى الطباع والمغرورين، أما الصراحة والشرف والذكاء والأدب فإنك تجد كثيراً منها بين الذين لايتظاهرون بالتدين الكاذب ! !

إن تأثير الدين الذى نتعلمه فى المدرسة من أنصار الطقوس الشكلية يزول حتما شيئاً فشيئاً ويتبخر كالهواء عند ما ننمو ، وعند ما تواجهنا مشاكل الحياة فعلا ، فلا يعرف الدين الطقسى كيف يحلها لنا .

زارنى أخيراً رجل فاضل من إخوانى ، وقص على كيف خسر دينه قال : ـ

«منذ ست وعشرين سنة ذهبت للصيد مع أخى الأكبر، وقبل أن أنام سجدت لكى أصلى حسب عادتى،وظل أخى الأكبر يرقبنى ويتأمل أمرى إلى أن فرغت من صلاتى فصاح بى :

« أف منك ألا تزال تحتفظ بعادة الصلاة ؟ »

لم يقل أخى أكثر من هذه الكلمات القليلة ، ولم يحاول إقناعى بأكثر منها ، ولكنك تدهش عند ما تعلم أنى تأثرت كل التأثر من هذا الإعتراض وانقطعت حالا عن الصلاة ، ولم أعد أذهب إلى الكنيسة ، أوأعترف ، أو أتناول الأسرار المقدسة ، ثم ظللت على هذا الحال عشرات السنين .

لم يحملني على هذا التغيير الفجائي الكبير، اقتناعي بآراء أخي الأكبر، لأني لم أفحصها، ولم يحملني عليه اقتناعي بحقائق جديدة وصلت اليها، لأني لم أدرس ولم أبحث في ذلك، ولكن لأن كلمات أخي القليلة دفعتني إلى السقوط كما تدفع يد الإنسان الضعيفة حائطا كبيرا ضخماً ولكنه في غاية الوهن فيسقط في الحال - لقد اكتشفت أن إيماني كان واهيا وكان نوعا من الطقوس العمياء التي لا تتصل بالقلب ولا بالعقل !!

إن كل كلمة كنت أنطق بها في صلواتي كانت فارغة، وإن كل سجدة كنت أقوم بها كانت نوعا من العبث، وإن كل إشارة أو حركة في عبادتي كانت عملا ميكانيكيا لا معنى له في نفسي، لقد فهمت وأدركت أني لم أكن إلا مقلداً تقليداً أعمى !!».

على غرار حياة هذا الرجل عاش ولا زال يعيش الكثيرون من أبناء طبقتي.

لهذا فإني أعترف بأن إيماني الذي درجت عليه منذ حداثتي قد تزعزع تدريجيا في سني شبابي مثل الكثيرين غيري، ولكن الفرق بيني وبينهم أني بدأت أدرس الفلسفة في سن الخامسة عشر، فأدركت وفهمت مبكراً وهن عقيدتي، ومنذ السادسة عشر أبطلت الصلاة، وأضربت عن الكنيسة، وعن الصوم ...

ولكني مع ذلك كنت لا أزال أؤمن «بشيء» إيماناً نظرياً غامضاً ... لم أعرف كيف أعبر عنه ... لعله الله ... أو بالحرى لم أنكر وجود إله.. ولكن أي نوع من الله؟ ... لم أعرف ولم أفهم ... لم أنكر المسيح، ولا تعاليمه، ولكني لم أستطع أن أتبين منها الحقائق الهامة والأهداف البعيدة التي ترمي إليها أو تقوم عليها ...

كل ما كان لى من إيمان عملى فى ذلك الوقت ، هو حنين مبهم وحب غامض إلى السعى وراء الكمال الشخصى .

ولكن ما الكمال ؟ وما نتائجه ؟ وكيف أصل اليه ؟

عملت على تقوية إرادتى ، فأجبرت نفسى على اتباع قواعد معينة ، ثم جاهدت طويلا لتقوية جسدى بالرياضة البدنية المتنوعة ، وروضت نفسى على الاحتمال والصبر ، واخضعتها باختيارى لمقـــاومة الصعاب والمشقات والحرمان ـ بذلت كل هذه الجهود وغيرها ، لأنى فهمت وقتئذ أنها أمور لازمة محتمة تساعدنى على السير فى طريق الكمال الشخصى الذى كنت أنشده من كل قلبى .

ولكن سرعان ما وجدت نفسى ساعياً وراء كمال آخر ، من نوع آخر ، هو الكمال « العمومى » بمعنى أنى أردت أن أكون « أحسن » ، ولكن لا أمام نفسى ولا أمام الله ولا وفق إلهامى أو وحى ضميرى ، بل أمام الناس وطبق مقاييسهم ومعاييرهم ......

ثم لم يمض وقت طويل ، حتى تحول هذا الشعور إلى شهوات أخرى ، هى أن أحصل على سلطان أكثر من غيرى ، وأن أبلغ من الشهرة والمال والجاه نصيبا أوفر من نصيب زملائى .

لقد أحببت أولا من كل قلبى أن أكون « طيبا » ... ولكنى كنت شاباً مثقلا بأهوائى الجامحة ... ثم كنت وحيداً ... وحيداً جداً ... ومنفرداً فى جهادى وسعيى وراء « الصلاح !! »

فى كل مرة كنت أحاول أن أظهر حنين النفس والقلب إلى الحياة الطيبة الفاضلة ، كنت أقابل من الناس بالسخرية والإهانة !! أما عند ما كنت أترك نفسى لأهوائها الفاسدة ، وأسلك كما يسلكون ويحبون ، فكانوا يلقوننى بالترحاب وبالتشجيع وبالإطراء والاحترام !!

إن الطمع وحب السيطرة وحب المال والشهوات الخسيسة والفخر والاعتداد بالذات والغضب والانتقام ، كلها صفات كان لها الاحترام الأول فى اعتبار الناس ، الذين خدعونى وعلمونى بأنها أسمى مراتب الفضائل . . . فلما أطعتها وأستسلمت لها مثلهم فزت برضاهم ومحبتهم واحترامهم ... كنت فى نظرهم رجلا ذا خلق عظيم ! !

ومن أعجب ما أذكر الآن ، أن كانت لى عمة طيبة كنت أعيش معها، فكانت تقول بأن أقصى ما تتمناه لى هو أن تكون لى علاقات حب خفية مع سيدة متزوجة ، وأن أراودها عن نفسها ، وأن أحظى بحبها ! أما أمنيتها الثانية فهى أن أكون ضابطا عسكرياً ، وإن أمكن فللقيصر ، وأحسن من كل هذا هو أن يوفقنى حسن الحظ إلى عروس غنية ، تحمل لى آلاف الجنيهات وعشرات العبيد ! !

آه ... إنى لااستطيع الآن أن أذكر هذه الأعوام السوداء ، دون أن أشعر بالندم المرير فى قلبى ، وأحس بالآلام تحز فى أعماق روحى ، فقد اشتركت فى اثنائها فى الحروب ، وقتلت الناس ، ودخلت المبارزات لأذبح إخوانى ، وأنفقت المال الذى كنت أحصل عليه من جهد الفلاح وكده فى القمار واللهو ! ! وكنت أوقع العقوبات بقسوة وعنف على خدمى وأتباعى ، وعاشرت النساء الفاسدات علناً ، وسلكت كل سبل الفسق والعهر ، وتعلمت الطرق المختلفة للمراوغة والخداع ، وكانت كل حياتى فى هذه الأيام كذباً ، وسرقة وفسقاً وزنى وسكراً وتمرداً وقتلا ، ومع ذلك كله فقد كنت فى نظر الناس وفى نظر زملائى وإخوانى الرجل المحترم المثقف الفاضل ! !

عشت على هذا الحال لمدة عشر سنوات ، بدأت فى خلالها أكتب ، لالغرض إلا لأرضى غرورى ، واتخذت القلم حرفة ، لالغاية إلا

لأحصل على المال والشهرة ، ومن أجلهما كنت مضطراً أن أخفي «الخير» الذي أحبه وأن أقول «الشر» الذي يحبه الناس !!

نعم فعلت هذا ، فطالما قضيت الليالي أضغط عقلي، وأحارب أفكاري، وأقاوم مشاعري وقلبي لأخفت ما فيه من طموح إلى «الأكمل» و«الأشرف» و «الأحسن» ، من أجل المال والشهرة !!!

والعجيب أني على اساس هذا الكذب والخداع والنفاق في كتاباتي وفي تفكيري ، نجحت نجاحا هائلا ... وكان القوم يقرأون ما أكتب شاكرين معجبين !!

ولما كنت في السادسة والعشرين في نهاية عملي في الحرب ذهبت إلى «بطرسبرج» وتعرفت إلى كبار الكتاب والأدباء ، فقابلوني بترحاب عظيم ، وقبل أن أتمكن من دراسة الوسط الذي جئت إليه ، ألفيت نفسي ملتزما فعلا بغير فحص أو تأمل آراء فاسدة ومعتقدات ضالة لهؤلاء الزملاء ، فقضى على الباقي من آمالي وجهادي في سبيل محاولتي الرفعة بحياتي الشخصية ، لأن هؤلاء الزملاء لم يعنوا أبدا بالكمال الحق ، ولم يهتموا سوى بالمال والشهرة ، ولم أعدم أنا أن أجد لآرائهم المبررات الكافية في ذهني ، الذي كان في ذلك الوقت شغوفا باستقبال كل جديد راغبا في كل أنواع المرح والسرور وللظهور !

ومن آراء هؤلاء الكتاب :ـ

«إن الحياة نشوء وارتقاء لانهاية له ولا حد لتطوراته ، وأن القوة الفعالة الحقيقية في هذه التطورات ، وفي نمو الحياة، إنما هي قوتنا نحن المفكرين والكتاب ، وإن أقدرنا في هذا الشأن هم الشعراء والفنانون ، وإننا نحن قادة المجاهدين ، ـ إن وظيفتنا في هذه الحياة ، وواجبنا فيها

ينحصر فى أن نعلم الناس ونحاول أن نصبغ آراءهم ومعتقداتهم بآرائنا نحن ومعتقداتنا نحن » .

تلك هى نظريتهم التى قبلتها بكل سهولة ، وسرت على أساسها ، ولكن سؤالا طبيعيا كان يواجهنى أحيانا فى هذه الظروف : ـ « ماذا أعرف ؟ ما الشىء الهام الذى أستطيع أن أعلمه للناس ؟ » ولما كنت أجد نفسى عاجزاً عن الجواب موقنا بجهلى ، كنت أحاول أن أزوغ من الإجابة وكنت أقول لنفسى إنه ليس من الضرورى أن تكون عارفا ! إن الفنانين والشعراء لايعرفون مايقررون إلا بطريق الوحى والإلهام ...

ومن الغريب أن الناس صدقوا هذا الخداع ونظروا إلى نظرتهم إلى شاعر ملهم كبير ، وفنان عظيم ، فازددت تمسكا بمركزى وبنظريتى .....

أنا .. أنا الشاعر .. أنا الفنان .. كتبت وعلمت مالم يكن له أقل أهمية وما لم يكن لى به المام حقيقى !! بل أنا من اجل هذا الجهل نلت الكثير من المال والجاه ، فاقتنيت لنفسى قصوراً فخمة ، ونساء كثيرات جميلات وأصدقاء عديدين ، وانفقت الأموال الطائلة على الولائم والحفلات .... واهماً بأن ما أكتبه كان عظيما وكان صالحا !!

بقيت عاملا فى هذا السبيل زمنا طويلا ، ونشرت الكثير من كتبى ، ولم أرد أن أشك فى صحة نظريتنا نحن الكتاب ، لأن الناس كانوا يؤمنون حقا بالكتابة وبالشعر وبنمو الحياة وتطورها ، وبأثرنا العظيم فى كل هذا ، ولأنى أيضا ككل كاهن يبشر بذلك ، حظيت بالمال والمجد والأبهة فى كل مكان !!



ولكنى شككت .. شككت .. فى صدق هذه النظرية التى تقول بأننا نحن الكتاب والشعراء أنفع الناس ، وأننا قادة المجاهدين لنمو الحياة ومدنيتها ، فعمدت اليها أفحصها وأتأملها فى دقة وعناية .

وأول مادفعنى إلى الريبة فيها ، أنى ألفيت المبشرين بها مختلفين فيما بينهم أشد الاختلاف ، على كل جزء من تفصيلاتها .

ثم وجدت بينهم من يقول مثلا : « إننا نحن وحدنا أحسن المعلمين إننا نحن وحدنا الذين نعلم الناس الحق والخير .. أما غيرنا فهم على ضلال مبين » ! !

ثم لاحظت أن هذا الخلاف يؤدى بهم إلى الخصام والتنابذ والحقد، مما كان يدفع بالواحد منهم لأن يبذل غاية جهده ليمكر بزميله ويخدعه ويسىء اليه .

حتى الذين كانوا يقفون على الحياد من الفريقين المتخاصمين فقد كانوا يعمدون إلى استغلال موقف الخصومة واستثماره للحصول على منافع مادية ومصالح شخصية ! !

لقد ارتبت فى عصمة نظرية هؤلاء الكتاب ، وفى حسن نياتهم ،وقد دفعتنى هذه الريبة إلى الاهتمام بدراسة حياتهم الشخصية العملية، فاكتشفت أنها فى الغالب حياة فاسدة لاصلاح فيها ، وأن أعمالهم كذلك لاخير فيها، وأنهم بينما يعيشون فى مستوى أكثر انحطاطا من رفقائنا الذين يعيشون فى العسكرية ، تراهم مخدوعين واهمين متبجحين متظاهرين فى رياء وكذب بثقة عظيمة لا توجد فى الواقع إلا بين القديسين ، بينما هم أبعد الناس حقا عن القداسة . وأقربهم إلى الخسة والشر ....

كان لوقوفى على هذه الحالة أثرا مريرا شديداً ، فكرهت نفسى ، وكرهت الانسانية وأدركت أن أعتقادى بهذه النظرية لم يكن إلا وهما فارغا ، فامتنعت عن الاجتماع بالزملاء من الكتاب والمؤلفين ، وتحاشيت مقابلتهم ، وهجرت مجالسهم وأنديتهم ، ولكنى تمسكت بلقب «شاعر وفنان» «ومعلم» ، لأن ذلك كان يدر على المال والجاه ! !

ولا أنسى أنى كسبت من عشرتى لهؤلاء الناس رذائل معينة ، هى الغرور والكبرياء والعناد ، والثقة الكاذبة ، التى تقوم على أنى مستطيع أن أعلم الناس مالا أعرفه ومالا أؤمن به ! !

وعندما أذكر الآن هذه الحالة التى كان تسود على تفكيرى وتفكير رفاق ، والتى لا تزال سائدة على الآلاف من الكتاب ، أشفق على نفسى وعلى غيرى ... أيه... إنها تشبه حالة قوم يقيمون فى مستشفى المجاذيب ! !

كنا جميعا مقتنعين بأنه وضع علينا واجب ضرورى هام ، هو أن نتحدث وأن نكتب وأن نرسل للطبع بأسرع ما يمكن ، لأنه يتوقف على عملنا هذا رقى الجنس البشرى والانسانية بأسرها ! ! .. آلاف منا كتبوا ونشروا وعلموا.. ولكنهم بالحقيقة كانوا يضللون وكانوا يكذبون وكانوا يسيئون إلى غيرهم وإلى بعضهم ، وكانوا يتنازعون ويتخاصمون لأنهم لم يريدوا أن يدركوا وأن يعترفوا بأنهم جهلة ، وأنهم لا يعرفون شيئا ، وأنهم يجهلون أبسط المسائل .: ما الخير ؟... ما الشر ؟...

كنا جميعا نندفع إلى الكلام فى وقت واحد ، وليس فينا من زميل يصغى ، يشجع الواحد منا الآخر ويكيل له الثناء والاطراء ، على شريطة أن يعود اليه من الغير مضاعفا ، وأن يحظى كل منا بدوره فى هذا المديح ! !.

ثم لا نلبث بعد تبادل هذا الثناء أن يثور بعضنا على بعض ، ويخاصم

أحدنا الآخر، ونعود إلى الانقسام والعداء، كأننا نمثل رواية كل أبطالها مجانين ! !

آلاف العمال عملوا ليلا ونهاراً بأقصى جهدهم ، يعدون العدة ، ويصفون الحروف ليطبعوا ولينشروا كتبنا بالبريد فى كل أنحاء روسيا ، ونحن لا ننقطع عن الكتابة والتعليم الكاذب ونشكو من ضيق الوقت ، ثم نغضب ونتذمر لأن الناس لا يصغون إلى كلماتنا الحكيمة ! ! .

حالة غريبة حقاً .. ولكنى فهمتها الآن ... إن الدافع الصحيح الذى كان يدفعنا اليها هو الشهوة الطاغية إلى المال والشهرة ، وعجزنا عن الوصول اليهما إلا عن هذا الطريق ......

ولكى نحتفظ بمقامنا وباعتقادنا أننا أعظم طبقة فى روسيا، رغم تفاهة الأعمال التى كنا نقوم بها ، فقد بحثنا عن الأفكار التى نبرر بها مواقفنا، فقررنا فى اجتماع عام الفكرة الآتية : — « كل ماهو واقع بيننا هو حق وصواب ، وكل شىء هو نتيجة النشوة والارتقاء ، والرقى لا يكون إلا عن طريق المدنية ، ومقياس المدنية هو انتشار الكتب والصحف والمجلات التى نحررها ، ونحن ننال المال وإكرام الشعب ، مقابل مانقدمه له من هذه الكتب وهذه الصحف ، ولهذا فنحن أحسن الناس جميعا وأعمهم نفعا .. »

وحتى هذه الفكرة، فاننا لم نضعها بنظام أو عن إيمان ، بل قررناها كما هى لأننا على أساسها كنا نقبض المال وننال الاطراء ونحظى بالكرامة والمجد ! !

أعترف الآن وأنا أكتب هذه السطور، أننا كنا أقرب الى المجانين .. ومع أنى كنت ألحظ هذا فى بعض الأحيان، إلا أنى كسائر المجانين كنت أظن أن جميع زملائى هم المجانين وليس فيهم من عاقل إلا أنا ! !

قضيت على هذا الحال ست سنين ، سافرت فى أثنائها إلى أوروبا

وتعرفت إلى بعض عظمائها وكتابها ، فوجدتهم هم أيضاً مثلنا تماما يسيرون على نفس منهجنا، لا يعنون أى عناية لمعرفة الهدف النهائى لحياة الفرد الشخصية ، ولا بمصيره بعد الموت ، ولا بصلاح أيامه فى هذه الدنيا ، ولا زالت هذه النظرية بالأسف تسود وتنتشر إلى اليوم بين طبقات المثقفين .

« التقدم » . . . « التقدم » . . . لقد اعتقدت فى أول أمرى أن لهذه الكلمة معنى حقيق فى ذاتها فاهتممت بها ، وبت مضطربا أسائل نفسى :ـ « كيف أستطيع أن احيا حياة أفضل ... ؟ كيف أتقدم ؟ . كيف أرقى ؟.... »

حاولت كثيرا ... وفكرت طويلا ، ولكنى تهت وضللت ... وأخيرا تبعت ما يتبعه غيرى وسرت كما يسير غيرى ، فلم أعرف هدفا لحياتى ، ولم أعرف إلى أى غاية وإلى أى مصير أنا منته .....

ومن الغريب أنى لم أعن بجهلى هذا ، ولم أحفل بقصورى فى المعرفة ، ولكنى كنت أثور فى بعض الفترات على هذه الخرافة العامة السائدة التى تؤدى بالناس إلى تجاهل جهلهم بأهم اهدافهم فلا يقفون على معانى الحياة الهامة ! !

وفى أثناء إقامتى بباريس، تكشف لى خطأ نظرية « التقدم العام » بسبب ما رأيته مرة من تنفيذ حكم بالأعدام ـ فعندما رأيت رأس المسكين تنفصل عن جسده ، وعندما سمعت صوت هذه الرأس وهذا الجسد وهما يهويان فى صندوق خاص أعد لهما ، أدركت أنه لا معنى من معانى الحكمة أيا كانت، يمكن أن تبرر هذا العمل الوحشى الفظيع . . . إنه لو أجمعت كلمة كل أبناء البشر منذ الخليقة حتى الآن على عدالته ، ومهما قيل لى من دفاع ونظريات بضرورته ، فانى لا أستطيع أبدا أن أقتنع به...لقد عرفت

وتيقنت من أعماق نفسى وقلبي وعقلى ، أن عقوبة الاعدام هى عمل شرير فظيع . . . عمل مزعج وحشى دنىء .....

ثم تعلمت على الأثر ، حكمة عظيمة فائقة ، تتناقض تماما مع نظرية « التقدم العام » وهى أنه يجب على أن أحكم على الخير والشر والصواب والخطأ ، لا بما قاله الناس ولا بما فعله ويفعله الناس ، ولا بما أقروه من نظريات أو آراء يدعونها لخير الانسانية ورقيها ومدنيتها ، ولكن بما أحسه أنا إحساسا صادقا نزيها ، عفو خاطرى وعفو قلبى .

وهناك أمر آخر خطير زعزع إيمانى بقصور نظرية « الرقى العام » فقد مرض أخى العزيز ومات فى مقتبل عمره ، واحتمل آلام المرض عاما كاملا ، ولكنه مات من غير أن يستطع أن يفهم لماذا عاش ؟ ...

لم تستطع نظريات السادة الكتاب أن تحل له المسائل والمشاكل الخاصة بالحياة وبالموت — لم يقتنع هو ولم أقتنع أنا أيضا طول مدة مرضه وآلامه بأى رأى من الآراء يضىء لنا معنى الموت والمرض والألم ، أو يكشف لنا عن الغاية من الحياة ، أو عن مصيرنا بعد الموت . . .

على أن هذه الحوادث التى عملت على تخلخل عقيدتى فى نظرية « التقدم العام » كانت قليلة ، وحدثت فى فترات متباعدة ، فظللت متمسكا بها سائراً بمقتضاها ، أبررها بالعبارة الآتية التى كنت أرددها بينى وبين نفسى : —

« كل شىء ينمو ، وكل شىء يتطور ويتغير ، وأنا نفسى فى كل يوم أنمو وأتغير ، وسيأتى اليوم الذى أدرك فيه أنا وغيرى شريعة هذا النمو ونتيجة هذه الحياة ومصير الفرد بعدها ... »

عدت من أوربا إلى روسيا ولكنى لم أقم فى هذه المرة فى المدن بل عشت فى الريف بين الفلاحين والفقراء ، وأنشأت المدارس والمزارع

لتعليمهم ، ولقد أحببت هذا العمل وأعززته لأنه كان بعيداً عن الادعاء الكاذب والوهم الفارغ ، الذى يلازم فى المدن الانسان المشتغل بالكتابة والتأليف ، والذى يلقب عادة « بالأستاذ الكبير » ! ، « والكاتب العظيم» ! ولكنى كنت أثناء عملى هذا فى الريف لا أزال أقوم به على أساس نظرية « التقدم العام » .

وفى هذه المرحلة كنت قد بدأت أبحث بالدقة وبروح الفحص معنى التقدم فقلت فى نفس : ـ إن التقدم الحقيقى لأى أنسان ، لابدله أولا من العقل ومن الحرية ، فأنشأت للفلاحين المدارس ، ثم وجدت أنه يجب أن يعتقوا هم وأبناؤهم من الرق ، فعملت على ذلك ونجحت .

وحاولت أنا أن أعلمهم ، ولكنى أقول بصراحة بأنى إلى هذا الوقت كنت لاأزال أحاول أن أحل قضية لاحل لها وهى « كيف أعلم غيرى وأنا نفسى أجهل معنى حياتى الشخصية ، وأجهل مصيرى وأجهل هدفى ! !

وإنى لازلت أخجل عندما أذكر الطرق العديدة الماضية الخادعة التى لجأت إليها لتعليم الناس ......

وبعد أن قضيت عاما كاملا فى إدارة هذه المدارس الريفية ، ذهبت ثانية إلى أوروبا لأزداد علماً ، ولأتزود ثقافة أغزر وأكثر ، وبعد وقت معقول ودراسات وأبحاث وافية ، ظننت أنى وصلت إلى هدفى ، فعدت إلى روسيا فى نفس العام الذى منح فيه الفلاحون حريتهم ، متسلحاً بمعلوماتى الحكيمة الجديدة ، لأعلم الناس . . . ، وعينت قاضياً للبلدة فبذلت جهدى فى القضاء ، وعمدت إلى تعليم الأميين بواسطة المدارس الأولية ، وإلى تثقيف المتعلمين بواسطة صحيفة أصدرتها ، وسار عملى هذا سيراً ناجحاً موفقاً ، ولكنى أحسست فى آخر الأمر أن حالتى العقلية أصبحت غير طبيعية وغير هادئة ، وأدركت أن تغييراً فجائياً لابد سيطرأ

على ، وإنى الآن أرجح أن موجة اليأس الهائلة ، التى طغت على نفسى بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، كان يمكن أن تجتاحنى الآن ، لولا ذلك الحادث العظيم الذى أنجانى منها وهو حادث زواجى سنة ١٨٦٢ .

أما قبل الزواج فقد مضى العام الأخير وأنا مرهق طول ساعات اليوم بأعمالى فى المدارس وفى تحرير صحيفتى وفى القضاء ، وظل هذا الحال يثقل كاهلى حتى كدت أموت ، فكرهت عملى ونظرت إليه كأنه ألد أعدائى وشعرت بمرض عقلى يزعجنى فهجرت فى الحال كل اعمالى ، ورحلت إلى سهول «باشكير» الواسعة — وبعد فترة استجمام وراحة عدت من هذه السهول ، ثم تزوجت ، فقادتنى السعادة التى وجدتها فى حياتى الزوجية إلى التخلص من التفكير العميق ومن السعى وراء البحث عن معانى الحياة ، لأنى وجهت كل عنايتى إلى زوجتى وإلى أولادى وإلى إنماء مواردى من اجلهم ومن اجلى ، ولقد كان ذلك نوعاً آخراً من الأنانية لأن غايته وإن لم تكن « أنا » فإنها أصبحت «نحن» .

وهكذا ترى أن شوقى الأول وحنينى الأول وهدفى الأول إلى كمالى الشخصى، قد تحول بعد ذلك إلى الاندماج فى مايسمونه « بالمدنية العامة » أو « التقدم العام » ، ثم تحول بعد ذلك إلى السعى وراء خدمة وإسعاد أسرتى الصغيرة وحدها مدة خمس عشرة سنة .

ومع أنى كنت فى هذه المدة أنظر إلى عمل الكاتب والمؤلف نظرة صغيرة تافهة ، إلا أنى ظللت مواظباً عليه ، لأنى وجدت فيه فيضاً من المال والشهرة خصوصاً إذا نالت كتبى رضاء العامة والجماهير ، فأعرضت عن البحث كلية فى حقيقة حياتى الفردية وفى الغاية من الحياة الانسانية، وعنيت فى جميع كتاباتى باظهار أن أهداف الحياة تنحصر فقط فى السعى إلى سعادة أشخاصنا وسعادة أولادنا لا أكثر ولا أقل .



هكذا عشت لمدة خمس عشرة سنة ، ولكنى منذ خمس سنوات (أى حوالى سنة ١٨٧٤) اضطربت حياتى اضطراباً عنيفاً ، واهتزت هزة قوية وأخذ القلق يسود على واليأس يتقاذفنى ، فاذا بحياتى واقفة راكدة ، ونفسى هائمة حائرة ، لاأعرف كيف أعيش ؟ ولا لماذا أقضى أيامى ؟ ، ولا ماذا أعمل ؟ ولا ماذا أحب ؟ ولا ماذا أرجو ؟ حتى وصلت أخيرا إلى حالة من الهبوط الروحى شديدة فظيعة ...

ولكنى انتصرت على كل هذا ، فعادت حياتى إلى صفائها بعض الوقت ، غير أنى سرعان ماعدت إلى ما كنت فيه من شقاء ويأس وحيرة ، فحاولت مرة أخرى أن أبحث عن راحتى وأن أستردها . وحاولت أن أجد طمأنينة نفسى ، ولكن شبحاً قاتماً كان يزعجنى بالأسئلة الآتية الراعبة :ـ

« لماذا تعيش ؟... لماذا تعيش ؟ ... ما الغاية من حياتك ؟... »

ظننت فى أول الأمر أن هذه هى أسئلة سخيفة تافهة لامعنى لها ، وأنها على كل حال اسئلة سهلة ، وأنى لابد واجد الجواب عليها متى أردت ومتى اهتممت . واعتقدت بأنى وإن لم أعثر فى وقتها على الجواب بسهولة فذلك لأنى كنت مشتغلا بمواضيع أخرى وأبحاث أخرى .

كنت أحاول أن أؤجل البحث وكنت أحاول أن أؤجل الاجابة ، ولكن الاسئلة لم تصبر ، وزادت فى الحافها وفى الحاحها ـ لم تسكت ولم تنقطع ، وظلت تترى على ذهنى مرات كثيرة متوالية ، وظلت تمسك بتلابيبى ، وتلاحقنى فى كل مكان ، وأشاعت فى نفسى ضيقاً وقلقاً لاحد لهما ....

كانت حالتى مثل حالة المريض الذى تظهر عليه فى الأول أعراض خفيفة لايأبه لها ولا يلقى اليها بالا ، ثم لاتلبث أن تعاوده المرة بعد المرة

حتى يزداد خطرها ، ويقوى أمرها ، وإذا بالمريض يحس ويدرك أن المرض لم يكن توعكا هينا كما بدا لأول وهلة ، بل هو داء عياء خطر ، يسلبه كل راحته وكل سعادته ، وعندما يعمد الى محاولة ملافاته يجد نفسه ضعيفاً عاجزاً أمام عدو خطير يهدده بالموت ...

هذا تماما هو عين ماحدث لى، فقد أدركت أن مايواجهنى من الأسئلة ومن الاضطراب والانزعاج ليس أمراً عارضا ، لايؤبه له كما ظننت أولا ، ولكنه أمر خطير كله جد ، ووجدت أنه لابد لى من أن أبحث بهمة واجتهاد عن حل لأسئلتى ومشاكلى ، لأنقذ نفسى منها خصوصا وأنها تسلبنى وتحرمنى هنائى .

فبدأت البحث وحاولت الوصول سريعاً ، ولكنى وجدت أن الأسئلة ليست سهلة ولا بديهية مثل أسئلة الاطفال ، كما تبادر الى ذهنى أولا ، وليست هى عابثة ولا سخيفة تستحق الإهمال والاعراض عنها ، بل سرعان ماسلطت عقلى عليها، حتى بدت أنها تمس أهم مشكلة فى الحياة ، وأنها تتناول أعمق الأسرار البشرية ، وأنى عاجز عن الجواب عليها، رغم كل معلوماتى وأجهاد عقلى الطويل .

كنت وأنا مشغول بإدارة أملاكى وتربية أبنائى وبكتابة كتبى أرانى مضطراً إلى أن أسأل نفسى :ـ

« ما الذى يدفعنى الى القيام بكل هذه الأعمال ؟ ...... لماذا أقوم بها ؟...... »

وحين أدركت أنى غير مستطيع العثور على جواب مرضى قلت لنفسى:—

« لا .. لايجب اذن أن تقوم بأعمالك ، ولا أن تؤدى واجباتك ، إذ لا خير فيها ... ولا فائدة منها .. بل ولا خير فى وجودك على هذه الأرض ولا فائدة منه ...... »

بم كان يخطر لى ، وأنا قائم أفكر فى فى تدبير بيتى وأطيانى،التى كان لها المقام الأول فى ذلك الوقت السؤال الآتى :ـ

« عال .. عظيم .. أنا الآن أملك خيرات واسعة — ستة آلاف فدانا فى سمارا ، وخيولا وعبيداً و . و الخ ولـكن ما الفائدة . ؟! ... »

وفيما كنت منصرفاً إلى التأمل فى وسائل تربية أبنائى باحثاً عن خير الوسائل التى تؤدى إلى ترقيتهم ، وترقية الناس عموماً صرخت على الفور :

لماذا .... ؟ ما الذى يعنينى من هذا كله ؟ .... وماذا يهمنى فيه .... ؟ وما علاقتى به؟.... وما شأنى فيه .... ؟

ولما فكرت فى الشهرة التى تغمرنى قلت لنفسى « حسن وجميل.وماذا لوصرت أشهر من جوجول وبوشكين وشكسبير وموليير ، ومن أعظم كتاب العالم .... ؟

— ماذا بعد هذا .... ؟

— ماأنا .....؟ وما مصيرى ؟

لم أجد جوابا يهدىء من روعى ، والاسئلة لسوء الحظ لاتريد الصبر على، وإن نفسى تطلب منى حالا جواباً مباشراً وافياً .

وأمر من هذا، فقد تيقنت بأنى إن لم أصل إلى إجابة تقنعنى ، فإن الحياة ستصبح مستحيلة على حتماً ..

أين ؟... أين الجواب ؟ ...أين أجده ؟ ... لم أدر ...

أحسست ان الأرض تميد تحتى ، وليس فيها شىء ثابت أعتمد عليه، وانتهى بى الأمر إلى أنى شعرت بأن ماعشت لأجله حتى الآن كان « لاشىء .. » « لاشىء .. »

فلم يبق إذاً لحياتى من سبب أو معنى ، ويجب أن أموت ... إن الحياة هى « لاشىء » ....

حقيقة أنى كنت قادراً أن أتنفس ، وأن آكل وأن أشرب ، وأن أسير على أقدامى،وأن أنام فى فراشى ، ولكنى فى الواقع كنت أؤدى كل هذه الأعمال ، كما تؤدى الآلات الصماء حركاتها ، لأن الروح التى كانت تنعش آمالى وتحيى فى رجائى قد فارقتنى وهجرتنى ....

لم أعد أحس بأمنية واحدة تستحق أن أسعى إليها ، وكنت كلما رغبت فى غرض ما ، شعرت مقدما بأن تحقيقه أو عدمه سيان لدى ، وأن جميع المشتهيات ليست سوى أوهام باطلة ، ولو أن ملاكا ظهر لى ليمنحنى كل مبتغيات نفسى لما عرفت ما اطلبه منه ....

أما الحقيقة التى كانت لاتقبل نقضاً فى نظرى فكانت : إن الحياة كلها باطلة لامعنى لها ، وإن كل خطوة أخطوها كانت تدنينى من شعورى المزعج بأن ليس أمامى سوى هلاك وخراب ، ودمار ويأس...

لئن أتقدم للأمام خطوة كان مستحيلا ... ولئن أعود للوراء خطوة كان أيضا مستحيلا ... ولئن أغمض عينى لكى لا أرى ، ولا أفكر فى ما يتمثل أمامى ما آلام الحياة المختلفة والموت المؤكد وما بعده من الفناء المطلق كان ايضا مستحيلا

أنا ... أنا الفتى المحظوظ السعيد ... أنا القوى الجسم الصحيح العقل ، اصبحت خائفاً ... خائفاً من الحياة ، وأصبحت شقياً تعيساً بائساً ، لأن قوة جبارة عنيفة جرفتنى إلى اليأس، وألقت بى بعيداً عن موكب الحياة، وكانت هذه القوة اعظم وأعم من قوة أية رغبة دنيوية ، يمكن أن تجول بخاطرى لأقاوم بها هذا اليأس ...

لهذا فقد رغبت من كل قلبى أن أموت ، فبينما كان أولا حى للجهاد فى سبيل الوصول إلى كمال حياتى الشخصية ، هو رفيق آمالى وأحلامى ، فقد أصبح اليوم الموت، هو منتهى رجائى ودعائى.. كانت فكرة الانتحار

تهددنى بين يوم وآخر ، أو قل بين ساعة وأخرى، وكانت فكرة جذابة خطرة ، ولم يحملنى على التردد فى تنفيذها ، سوى أنى أردت من كل قلبى أن أزيل أولا هذا الغموض وهذا الإبهام والتناقض والخلط الذى يملأ رأسى ، وأردت أن أستخدم أولا كل قوى نفسى لأكتشف الآراء السديدة الحكيمة الواضحة ، عساها تخرجنى من هذه الظلمات....

أنا الرجل المغبوط ، كنت أخفى عن عينى حبلا ، كان معلقاً قريباً من المكان الذى كنت أخلع فيه ملابسى ، لئلا يغرينى أن أشنق نفسى به ! ثم خفت الصيد لأنى خشيت أن أجد فى البندقية وسيلة سهلة للقضاء على حياتى !

ولكنى فى وسط هذا كله ، كنت أحس أحيانا فى أعماق بحنين جميل خفى إلى شىء ... شىء عظيم سام ... شىء محبب إلى قلبى ... ولكنى لم اعرف ماهو ؟ ، ولا ما كنهه بالضبط ؟ ...

تلك كانت حالتى فى وقت كان كل ماحولى من الظروف يبعث على السعادة ، فلم أكن قد بلغت سن الخمسين بعد ، وكانت لى زوجة طيبة أحبها وتحبنى ، وكان لى أولاد أعزاء على نفسى ، وكنت واسع الثراء والجاه ، أملك الأراضى الشاسعة التى كانت غلتها تزداد وتنمو بغير أى تعب ، وأملك العبيد والخيل وسائر المقتنيات.

كنت محترما معظماً من أصدقائى ، ومن كل الناس ، الذين كانوا يضفون على الثناء والحمد والاعجاب ، ففزت بشهرة لم أحلم بأكثر منها فى كل العالم .

وفوق كل هذا ، فقد كان عقلى سليما ، وكنت متمتعاً بوافر الصحة مما لم يتوافر لغيرى من زملائى ، فكنت أستطيع أن أعمل عملا جسمانياً كأقوى الحصادين ، وأن أعمل بفكرى وأنا جالس على مكتبى ثمانى ساعات أو عشر بغير انقطاع أو ملل .

« إن حياتى كانت فى رأيى أضحوكة بليدة ، ولعبة شريرة خبيثة ، فرضت على فرضاً بمشيئة كائن جبار لم اعرفه ، ورغم أنى لم أحط بعد بهذا الكائن الذى يقولون عنه أنه قد خلقنى ، فان النتيجة التى وصلت اليها ـ والتى ظهرت لى أنها أصدق النتائج وأكثرها انطباقا على العقل والطبيعة ـ هى أن هذا الكائن الخفى الذى خلق الناس ، لم يخلقهم إلا ليلهو بوجودهم ويعبث بهم ، بغير تعقل ولا حكمة ولا رأفة من جانبه ... »

لقد لازمتنى هذه الفكرة وسيطرت على كل السيطرة ، فلم أستطع إلا ان أؤكد بان فى الوجود كائنا ما ، يراقب حياتى على الأرض ، ويراقب أعمالى فيها ، ولكن ليتفرج على كل ذلك ويسخر منى ، ويتسلى ويلهو على حسابى أنا ، وحساب غيرى من خلائقه ...

وصلت الخمسين من عمرى ، وقضيت أيامى فى الدرس والبحث ، ووصلت إلى القمة فى المعرفة والنضوج العقلى ، وإدراك الحياة، ومع ذلك فلم أجد فى الحياة شيئا نعيش من أجله ، ولا رجاء لنا يعمر قلوبنا ويهون علينا مصائبنا وآلامنا ......

قلت : كيف استطاع البشر أن يغلقوا أذهانهم عن هذا كله الذى يملأ اليوم ذهنى ؟... وكيف استطاعوا أن يعيشوا للان ؟؟...

أنا أفهم أن الحياة ممكنة جائزة لمن كان ثملا بخمرها ولهوها ، أما الآن وقد صحوت ووعيت فانى غير واجد فيها سوى الألم والشر ، وغير واجد فيها عزاء أو راحة أو أملا ، وحقا إنه قد يوجد عليها من يسكر بخمرها أحيانا نادرة ، ولكنه سرعان ما ينتبه ويفيق حتى يدرك من جديد أنها فراغ ووهم وخداع .....

لماذا نعيش ؟ !.

جاء فى إحدى القصص الشرقية القديمة ، أن وحشاً برياً مفترساً كان يطارد شخصاً،فوجد فى طريقه بئراً خالياً من الماء فلجأ اليه ، ولـكن لسوء حظه وجد فى قاعه تنيناً كبيرا فاغرا فاه مستعداً أن يبتلعه ، فأخذ الرعب والوجل بقلب الرجل ، ولم يستطع الخروج ، خوفا من الوحش أن يفترسه ، ولم يستطع النزول خوفاً أن يمزقه التنين ، ونظر فوجد غصناً من شجرة ثابتاً فى حائط من حوائط البئر ، فتعلق به ، ولـكنه بعد قليل أحس بالـكلال والتعب فى ذراعيه، فأدرك أنه لامحالة هالك ، وأن الموت لا بد متربص له فوق البئر أو فى قاعه ، ولـكنه ظل متعلقا بفرع الشجرة ، وفيما هو ينظر إذ رأى جرذين (فأرين) أحدهما أبيض والآخر أسود يقرضان جذع هذا الغصن ، فتيقن أنه حتما ساقط ، وأنه حتما هابط إلى فم التنين ، الذى كان يترقبه بفارغ الصبر ، ولـكن المسكين نظر فى الوقت نفسه فرأى بضع نقط من العسل على أوراق الغصن ، فمد لسانه وأخذ يلحسها متناسياً هذا المصير المزعج ...

هكذا كنت أتعلق أنا بغصن شجرة الحياة ،عارفا أن تنين الموت ينتظرنى فى آخرها ، وهو على اهبة الاستعداد فى كل وقت ليمزقنى إرباً إرباً ، وكنت كهذا المسافر ألهو أحيانا بامتصاص بعض نقط العسل، التى تعرض لى أثناء حياتى ، متناسياً مصيرى !! . .

لقد رأيت الجرذين وهما الليل والنهار، يعملان بهمة فى قرض شجرة حياتى،ولقد أبصرت التنين واضحا متمثلا ، ولم أستطع الهرب منه .....

إن هذه القصة لم تـكن فى نظرى واعتبارى أقصوصة خرافية ، بل كانت هى هى حياتى بعينها وبحقيقتها .

إن المسرات والأفراح والشهوات التى كانت تحجب عنى منظر الموت لم تعد قادرة أن تخفيه .

لقد فقد العسل حلاوته ...

« الموت » ... « الموت » ... هو مصيرى المؤكد ....

أمام هذه المتاعب الفكرية القاسية ، التى حطمت نفسى وأعصابى ، حاولت أن أقنع ذاتى بأنى عاجز عجزاً مطلقا عن إدراك معنى الحياة ، وانه لا فائدة من السعى وراء تلك المسائل العويصة الشائكة ، وحاولت أن لا أعود الى التفكير فيها ، ولكنى لم أستطع أبدا الخضوع لهذا العجز ، الذى عشت طويلا متمرداً عليه ، وقد أصبحت فى نفس الوقت غير قادر أن أغمض عينى قط عن رؤية الأيام والليالى تسير بى فى عجلة وسرعة الى هاوية الموت الذى لا سلطان لى عليه .....

إن نقطتى العسل الكبيرتين ، اللتين حجبتا عنى هذه الحقيقة فى وقت ما ، واللتين كان لهما من القوة والاثر أكثر من غيرهما ، كانتا هما « محبتى لاسرتى ومحبتى للكتابة (الفن !) ، ولكن لم يعد اليوم لهما نفوذ على قلبى ، لان ما فيهما من حلاوة قد أصبح مراً علقما ...

أما عن أسرتى فقد كنت أقول لنفسى « أفراد أسرتى » من هم ؟ .... أليسوا هم زوجتى وأولادى ؟.... أليست حياتهم مثل حياتى ؟.... لماذا هم يعيشون ؟.... ما الغاية من حياتهم ؟ .... إما أنهم سيقضون أيامهم فى الكذب والنفاق والوهم ويعجزون عن العثور على الحقيقة ، وإما انهم سيقفون عليها ، فيجدونها كما وجدتها أنا حقيقية مرعبة مزعجة كلها يأس....

ثم لماذا احبهم ، ولماذا اسعى إلى تثقيفهم وتربيتهم ، وأعنى بكافة أمورهم ؟... ألكى أصل بهم فى النهاية إلى هذا اليأس والبؤس الذى أنا غارق فيه الآن؟... أم لأضيف إلى جيوش الجهلة فى العالم عددا آخر؟...

ثم هل أستطيع وأنا أحبهم ، أن أتجاهل الحقيقة التى اقتنعت بها بأن كل

خطوة يخطونها فى طريق المعرفة ، إنما تدنيهم من اليأس والموت والفناء ؟!.....

أما « الفن والشعر !! » فرغم وثوق بأن عوامل الفناء ستقضى على حياتى وعلى كتاباتى كلها بما تحمله من ذكريات ومعان وفن ، إلا أن ما أصبته فى الكتابه من نجاح وزهو وإطراء ، كان يدفعنى دائما إلى المواظبة عليها والتمسك بها ، أما اليوم فقد انفتحت عيناى لأرى أن هذا الفن هو أيضا وهم باطل ، ولادرك أنى غير مستطيع أن أضع خيرا فى كتابتى ، بعد أن فقدت الحياة سحرها فى قلبى .....

كان إحساسى الأول بأن لحياتى أى هدف ما ، ولو كان خاطئا أو فارغاً أوسخيفاً ، يعمل على سرورى وعلى بهجتى وعلى تسليتى ، وكان كل مافى الحياة من جميل وقبيح ، ومن مخيف ، ومريح ، يعزينى أو يسلينى أو يلهينى ، أما وقد هالنى بعدئذ أن أرى الحياة شبحاً مزعجاً ، وأنها خلو من المعانى والأهداف الحقيقية ، فقد فقدت كل لذاتى الماضية وهجرت مسراتى وجميع سلوياتى ...

ولو وقف الأمر عند هذا الحال ، ووثقت بأن هذا هو نهاية الأمر كله ولا شىء بعده ، ولا رجاء فى الوصول إلى أكثر منه ، لكان الأثر أقل ثقلا ، ولقلت لنفسى فى بعض المرات ، بأن هذا هو كل قسمتى وكل نصيبى من الحياة ... ولو أنى كنت كهذا الرجل الذى يعيش فى غابة يعرف حدودها وغايتها ، لكانت الحياة أخف نوعا .

ولكنى كنت كهذا الانسان ، الذى ضل فى مسيره فى غابة فسيحة الأرجاء واسعة المدى لاحد لها ، فامتلأ بالخوف قلبه ، وظل يضرب فى الأرض على غير هدى ، يمينا وشمالا ، ومع أن الخطوة الواحدة كانت قد تزيد

من ضلاله ، إلا أنه كان يرى نفسه مضطرا ان يسير ، وأن يواصل السير بأقصى سرعة فى أى اتجاه ، عساه ينجو من تيهه ويجد طريقه ...

كان هذا هو حالى فى تلك الأيام السود ، ولكى أنقذ نفسى منها ،كنت فى كل وقت راغباً فى الانتحار ، لولا أنى شعرت بانزعاج آخر هائل من جراء ماقد ينتظرنى بعد الموت .... وخفت أن يكون الحال أكثر هولا وأكثره ظلاما ....

ومع ذلك فان صبرى على الحياة كاد ينفذ .....

٤

عدت وتساءلت : ـ ألا يمكن أن أكون ساهيا عن شيء ما ؟ ...
ألا يجوز أن أكون قد ضللت فى فهم شيء ما... ؟
ألا يجوز أنى جهلت أمراً من الأمور ؟ ...
ألا يجوز ان تكون حالة اليأس التى أنا فيها هى حالة كل الناس ؟ ...
من أجل هذا أخذت أعيد البحث فى كل فرع من العلوم البشرية ، على اصل إلى حل لتلك المسائل الخطيرة التى عذبتنى ... بحثت طويلا .. بحثت فى ألم وفى صبر ... ليس لمجرد حب الاستطلاع وقتل الوقت ـ لم أبحث بحث البليد الكسلان ... ولكنى بشغف وهمة كنت أسعى ...وفى نضال ومرار كنت أجد .. ليلا ونهارا كنت أفكر واتأمل .. نشدت المعرفة كما ينشد الرجل الذى على وشك الهلاك ، طريقه لإنقاذ نفسه ....
ولكنى لم اجد شيئاً .... ، ولم أعرف شيئاً . . .
كان يجول فى خاطرى أحيانا ، حين كنت أقرأ وأبحث أن العلم والمادة لادخل لهما فى حل قضايا الحياة ، ولكنى مااقتنعت بهذا ، لأنى كنت أخشى أن أكون قد ضللت فى نقطة من نقط البحث الهامة ، ولأنى كنت اظن أن العيب ليس فى العلم ، ولا فى قصور الأجوبة التى كانت تخطر لى ، او فى الأسئلة التى كنت أقدمها لنفسى ، بل ظننت أن العيب كله كان كائنا فى أنا ، وفى جهلى أنا ، ولهذا ظللت عاكفاً على دراستى وعلى تأملاتى العميقة ، أتذلل أمام المعرفة لتجود على بالحلول أو بالأجوبة ولكنها لم تجد ...
ـ لم أستطع أبدا التغاضى عن هذه الأسئلة ، لأنها لم تكن أبداً سخيفة ولا ساخرة ، بل أن أعظم الحكمة البشرية تتوق إلى الوصول فيها إلى حل ...

واصلت جهادى للاسترشاد ، وأفرغت كل جعبتى فى دراسة جميع أنواع العلوم ، ولكنى عبثاً حاولت ....

إن هذا السؤال « لماذا أعيش ؟ » الذى خطر لى وأنا فى الخمسين ، هو فى الواقع سؤال طبيعى عادى ، وهو قائم فى نفوس جميع البشر ، يتردد على ذهن الطفل الصغير ، كما يتردد على ذهن الرجل الحكيم ، لأن الحياة تصبح مستحيلة بغير حله .

كل انسان يتساءل مثلى :ــ

ــ ما مصير هذا الذى اعلمه اليوم أو ما سأتعلمه فى الغد ؟ ؟ ...

ــ مامصير حياتى كلها ؟ ؟ ...

ــ لماذا يجب أن أعيش فى هذه الدنيا ؟ ؟ ...

ــ لماذا تبقى وتوجد فى نفسى هذه الرغبات الوفيرة التى أحبها ؟ ؟ ...

ــ لماذا يجب أن أقوم بعمل كذا وكذا ؟ ؟ ...

ــ هل لحياتى من معنى يعجز عن القضاء عليه ، هذا الموت الذى يتربص لى فى كل وقت بفارغ الصبر ؟ ؟ ...

وكنت فى فجر شبابى راضيا قانعاً بالإجابات التقليدية المبهمة المصطنعة فكنت أقنع بالقول مثلا :ــ « إن كل شىء ينمو ويتغير ويتعرض للنقص وللكمال ، ولهذا النمو وهذا التغير قوانين ثابتة عامة ، وما دمت أنا جزء من هذا الكل ، فتى وقفت على قوانين التطور والنمو ، فانى لاشك واصل إلى إدراك مكانى من هذا الكل ، وإلى معرفة نفسى وحالى ومصيرى .. » .

ومما كان يزيد فى قيمة هذا الرأى عندى ، أنى أنا نفسى كنت أنمو ، فكانت عضلاتى تقوى وتكبر ، وكانت ذاكرتى تتحسن وتتسع ، وكانت كل قواى الفكرية تتقدم كل يوم ، فظننت أن شريعة نموى هذه هى شريعة الوجود كله ، وأنها قد تنير لى الأمر فيما بعد ، ولكن نجاء

الوقت الذى وقف فيه هذا النمو ، فقد ضعفت عضلاتى؛ووهن فى الكثير من أعضاء جسدى ، وبدأت أسنانى وأضراسى تسقط ، فأدركت بعد البحث الدقيق ، أنه من المستحيل أن يوجد فى العالم نمو دائم عام، يدنينى إلى معرفة سر الحياة — لهذا لم أرتح إلى الاجابات الماضية ، وحاولت البحث من جديد .

كنت أميل فى عهد الشباب إلى دراسة العلوم المجردة « البحث عما وراء الطبيعة » وكذلك الرياضيات والعلوم الطبيعية التى فتنتنى بسحرها ، فسعيت اليها بكل شغف انشير الاجابة ؛ ولكنى وجدتها تعجز عجزا مطلقا ، وتزداد غموضا وإبهاما وتعقيدا ؛وتفقد مافيها من السحر والروعة والعظمة والفائدة ، التى تنكشف عنها غالبا كلما عالجت امراً آخراً من الأمور المادية .

وإذا نظرنا مثلا إلى العلوم التى حاولت فعلا ان تجيب على سؤالى، مثل علم دروس اعضاء الجسم ووظائفها والنفس وانفعالاتها ؛ والحياة ونشؤها، والاجتماعيات وتطورها وشرائعها ، وجدنا القصور والغموض والابهام ، ووجدنا جدبا فكرياً شديدا ، ووجدنا الادعاء الكاذب والتناقص البين بين المشتغلين بهذه العلوم وبين انفسهم .

وإذا نظرنا إلى العلوم المبنية على الرياضيات ، فاننا نجدها تعرض عن الاجابة على مثل هذه المسائل وتتجاهلها ، ولا تعنى بقضايا الحياة ذاتها ولكنها تعنى كل العناية بالمسائل العلمية المحض ، فتخرج لنا نتائجا باهرة هائلة ، تدل على الذكاء البشرى الهائل وعظمة العقل الانسانى الرائع .

أما فى دائرة العلوم النظرية ، فكنت إعتقد بمبادىء الانسانية العامة التى تظهر فى بعض مظاهر الدين والعلم والفن وسائر النظم الاجتماعية والحكومية ، وكنت أظن أن هذه المبادىء ستسمو شيئا فشيئا ، ودرجة فدرجة ؛ وأن هذه الانسانية ستزهر جيلا بعد جيل ، حتى يصل الانسان

عن طريقها الى رقى حياته الشخصية .....

قلت : ـ « بما انى عضو فى الهيئة الاجتماعية البشرية ، وجزء من هذه الانسانية العامة ، فعلى أن أندفع فيها وأن أسير فى موكبها ، وأن أقوم بنصيبي فى إنشائها وفى تعميمها ، لانها ستؤدى فى النهاية الى ترقيتى والرفعة بنفسى وبشخصى ».

واعترف بكل أمانة ، أنى آمنت فى عهدى الماضى بهذه « الانسانية العامة » وكان لى فى هذا الشأن مبادىء عزيزة ، كنت أكيف بها أفكارى وقتئذ ، وطالما حاولت أن أؤلف من هذا التفكير ومن هـذه المبادىء نظريات خاصة .

كنت أرضى بهذه الأفكار العامة العائمة غير المباشرة ولا المحدودة ، أيام أن كنت ضعيف العقل والفهم ، ولـكن عندما واجهنى سؤالى المباشر عن قضيـــة حياتى أنا الشخصية وعن سرها وعلتها ومصيرها ، لم أقتنع بما يسمونه « الانسانية العامة » لأنى فهمت أن فى تعميمها ، وعدم تطبيقها على حياتى الشخصية هو سفسطة فارغة .

ووجدت أن المتمسكين بها لايستطيعون مهما جهدوا إلا أن يفهموا جزءاً صغيراً جداً من الانسانية ، ومع ذلك هم فى غرور يجعلون منه نتائج عامة هائلة ومبادىء إنسانية شاملة واسعة !!

هذا علاوة على التناقض العجيب بينهم على هذه الانسانية الهائمةوعلى تحديد مبانيها ومعانيها ...

وأعجب مافى الامر، أنهم يطلبون منك ان تهمل نفسك ، وهى أعزما تملك ، ولا تهتم بأمرها ، ولا تحفل بحياتك الشخصية ، وأن لاتسأل أو تجيب من أنا ؟... ولا لماذا أحيا ؟ ... ولا ماذا يجب أن أعمل ؟... بل أن تدرس وتظل تدرس الانسانية العامة من أولها إلى آخرها بسائر مايتخللها !!...

هذا هو منتهى السخف ، لاننا لن نصل من ذلك إلا الى العجز المطلق والجهل الفاضح ،إذ أننا لن نعرف مهما عرفنا سوى القليل التافه، لأن زمنى وزمنك وزمن أى انسان قصير محدود ، والموت لن يمهلنا حتى نستطيع أن نتعرف كل نواحى هذه الانسانية العامة الجامعة ! !

إذا فقد فشلت العلوم الطبيعية والعلوم النظرية على السواء ، فى هدايتى، وضلت بى السبل فى سائر المعارف البشرية ، فلم اجد حاجتى لا فى نور العلوم الرياضية التى كانت كل سبلها مفتوحة امامى ، ولا فى ظلام الفلسفة الدامس ، الذى كان يسير بى من سىء إلى أسوا ، إلى أن ثبت لى قطعا أنه لا يوجد ، ولن يوجد شىء فى الحياة مما أبحث عنه ، ولا يوجد أى جواب على سؤالى ......

جلت فى حقول العلم كلها ، وكلما كانت تتسع أمامى آفاقه ، وتتضح لى نتائجه ، وتتعاظم فتنته وقوته ، كلما وجدت نفسى غارقا فى الجهل ، وكلما تعمقت فى الاطـــلاع على اسرار العلوم ، والوصول إلى دقائقها ، كلما وجدت نفسى فى آخر الأمر قاصراً عن إدراك الاجابة على سؤالى ....

كل ما وصلت اليه كان : ـ

ـــ « ما معنى حياتى » ؟ ...

ـــ « لا معنى لها » ...

ـــ « ما مصير هذه الحياة» ؟ ...

ـــ « لاشىء » ...

ـــ « لماذا يوجد فى الوجود كل ما هو موجود ؟ »...

ـــ « لأنه موجود » ...

هذا هو اقصى ما وصلت اليه فى أبحاثى ....

عندما كنت مقبلا على درس أحد فروع العلوم الطبيعية ، وصلت إلى نتائج دقيقة فى أمور هامة ، لم تخطر لى على بال ، مثل التركيب الكيماوى للمواد التى تتألف منها النجوم ، ومثل حركة الشمس حول برج هيرقل ، ومثل أصل أنواع الأحياء التى منها الانسان ، ومثل الذرات الصغيرة التى يتكون منها الاثير ، أما عن حياتى الشخصيةفالاجابة العلمية التى كانت تعرض لى فهى : —

« أنت اتحاد مؤقت من الذرات المختلفة ، تجمع بينها الحركة المشتركة، وإن مجموعة هذه الذرات هى حياتك ، وهى تستمر وتبقى ما دامت هذه الحركة قائمة ، ومتى هدأت وسكنت ، وقفت معها الحياة وانتهت،وبانتهائها سيقضى إلى الأبد عليك ، وعلى كل ما يدور الآن فى خلدك ، أو مايشغل بالك ـ أنت كتلة ائتلفت اجزاؤها المجهولة بعضهامع بعض بطريق الصدفة، وهذه الكتلة تتجدد بين آن وآخر ، ويطلق عليها الناس اسم « الحياة » ، ولكن هذا التجديد لا بد ان يقف يوما ما ، ولا بدأن هذه الكتلة تتلاشى وتزول إلى الأبد ، وتزول معها كل أفكارك وكل أبحاثك وكل شكوكك»

هذا هو أحد الأجوبة التى يعطيها العلم ، ولكنه جواب مرير شنيع ، قضى على كل رجاء قلبى ، وقضى على جميع آمالى ، لانى فهمت منه أن حياتى لا هدف لها ولا معنى فيها ، ولا قيمة لها ، وأنها قطعةمن لحم وعظم ستتلاشى وتفنى بعد زمن قصير ! ! ......

أن العلماء لا يعنون بكمال الحياة الشخصية،ولا يدلونا على الهدف الذى نسعى اليه ونريده من وراء هذا التقدم ... لماذا نسعى الى هذا التقدم ؟

هم لا يجيبون ...

انى لأعترف أن للعلوم روعة وعظمة ، تدل على تفوق العقل البشرى تفوقا عجيبا ، وتدل على سمو الخيال والتصور ، ولكنها جميعا سواء فى

العجز والقصور ، حين تتعرض لمثل امحائى ، لأنها تقع فى خارج نطاقها.

من جميع ما تقدم رأيت فى وضوح أن الفلاسفة الذين لا يعنيهم المنافع أو الخسائر المادية ، والذين يقررون الحق والصدق ، لا يستطيعون بالأسف الا أن يجيبوا كما أجاب «سقراط» و«شوبنهور» و«سليمان الحكيم» وبوذا .

أما سقراط فقد قال وهو يستعد للموت : ـ « نحن نقترب من الحق كلما بعدنا عن الحياة ... انه خير لنا أن نبتعد عن الحياة ، وأن نسعى الى الموت ، وأن نطلبه ونحبه ، لكى نتحرر من هذا الجسد وآلام هذه الحياة وكذبها ـ إن هذا الحكيم كان ينشد الموت فى كل وقت ويكره الحياة

أما شوبنهور فيقول : ـ

« ان أساس كل ما هو موجود فى الحياة هو « ارادة الانسان » فى شتى منافع الحياة ، وفى جميع مظاهر الوجود ، سواء كانت من عمل قوات الطبيعة غير العاقلة ، أو كانت من عمل الانسان العاقل ، ولا نستطيع أن نرى أثراً لقوة أخرى غير قوة الارادة ، فان زالت هذه القوة ، زالت كل هذه المظاهر ، فان جميع الجهود وجميع العواطف تنتهى بانتهاء هذه الارادة ، وأن جميع ما فى العالم من كائنات حية أو غير حية ، يزول ويموت ويندثر عندما تموت هذه الارادة ، التى تريد كل هذه الأشياء وتحبها وترغب فى التمتع بها ـ العالم كله يصبح لا شىء عند ما نموت وعندما تصبح الارادة لا شىء ....

ولكن هذا المصير الى العدم ، حين نشعر أنه لا يرضينا ، وأنه يتعارض مع رغبتنا ، يزيد فى قوة تمسكنا بالحياة ، ويدفعنا بقوة الى المحافظة عليها ، وعلى بقاء هذا العالم الذى نحيا فيه ـ فكل الوجود اذا فى الحقيقة

ليس سوى هذه الرغبة ــ الرغبة فى الحياة والمحافظة عليها ــ الحياة هى التى تدفعنا الى الخوف من الموت والفناء ــ ولا تستطيع هذه القوة أن تفسر لنا من أسرار حياتنا أكثر من ذلك ، ولا تستطيع أن تمدنا بمعرفة شىء سوى أنه بعد انتهاء سائر رغباتنا وشهواتنا الكثيرة ، وبعدالقضاءالأخير على إرادتنا بالموت ، لا يبق لحياتنا من أثر ، وكل مافى هذا العالم من شموس وأقمار ومجرات يصبح أيضا لا شىء بعد زوال إرادتنا وحياتنا ، لأن جميع هذه الأشياء كائنة وقائمة وموجودة ، لأننا نحن نشعر أثناء حياتنا بوجودها وقيامها وكينونتها .

فان متنا ، ومات شعورنا معنا ، فهى غير موجودة وغير كائنة .

إن الحياة تسير على عكس ما يجب أن تكون ، فبدلا من أن يكون كل مافيها متجها للخير العميم ، فاننا نراه سائرا الى الشر العظيم... ، فخير لنا أن نهجر الحياة ، وأن نعبرها الى الفناء»....

فهذا الفيسلوف أيضا يطلب الموت ويكره الحياة ولا يؤمن بشىء بعد الموت .

أما «سليمان الحكيم» العبرى القديم، الذى كتب سفر الجامعة فى التوراة والذى يلقب نفسه « بالجامعة » أحيانا فقد كتب نفس المعنى فيما يأتى : ـ

« باطل الأباطيل ، الكل باطل ... ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ ....

ما كان فهو الذى سيكون ، والذى صنع فهو الذى سيصنع ، فليس تحت الشمس جديد ...

ليس ذكر للأولين الذين سبقوا ولا للذين سيأتون من بعدهم....

فى كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذى يزيد علما يزيد حزنا ....

عظمت عملى ، وبنيت لنفسى بيوتا ، وغرست لها كروما ، وعملت لها جنات وفراديس ، وغرست أشجاراً من كل نوع ثمر ، وأقتنيت عبيدا

وجوارى ، وكانت لى أيضا المواشى قنية وغنم ، أكثر من جميع الملوك الذين كانوا فى « أورشليم » قبلى ...

اتخذت لنفسى مغنين ومغنيات وسائر لذات بنى البشر، سيدة وسيدات، فعظمت وازددت أكثر من جميع الذين كانوا قبلى ، وبقيت أيضا حكمتى معى، ومهما اشتهته عيناى لم أمسكه عنهما ، ولم أمنع قلبى من كل فرح ...

ثم التفت الى كل أعمالى التى عملتها يداى ، وإلى التعب الذى تعبت فى عمله ، فاذا الكل باطل وقبض الريح،ولا منفعة منه تحت الشمس .....

فى الأيام الآتية كل شىء ينسى... ، وآسفاه يموت الحكيم كما يموت الجاهل ...

وشر مايحدث تحت الشمس، أن حادثة واحدة تحدث للجميع ، للصالح وللشرير ، للطاهر والنجس ، للصديق وللمنافق ....

كل شىء باطل ـ باطل الأباطيل الكل باطل !!

اما مايقوله الحكيم الهندى العظيم فهو يظهر من الحكاية الآتية :

إن« ساكيامونى » الأمير العظيم الوارث لعرش كبير، وقد منع عنه أن يرى المرض والشيخوخة والموت خرج مرة من قصره للنزهة فى عربته ، وفيما هو سائر،إذ أبصر شيخا محدودب الظهر،سقطت أسنانه وتغير شكله، وحطمته الأيام ، وقضت عليه ، وعلى هيئته السنون،فعجب الأمير من هذا المنظر الذى لم يره من قبل ، وسأل سائق المركبة عن سبب هذه الحالة المزعجة التى وجد عليها هذا الشيخ فأجابه هى : ـ « الشيخوخة ، يامولاى وهى أمر محتم يصيب كل الإشخاص ، وأن الأمير نفسه لابد أن يصل إليها فى حينها » ، فأمره بالعودة إلى قصره حالا ليجد متسعاً من الوقت، يفكر فيه فى هذا الأمر الجديد المزعج ، فدخل مخدعه حزيناً ، وأغلق بابه وظل وحيداً يفكر ويتأمل

ثم خرج مرة أخرى للنزهة،ولـكنه لم يلبث طويلا حتى وقع بصره على انسان مريض ، ذوت نضارة وجهه وأظلمت عيناه ، يئن ويتألم فى سيره ، فدهش الأمير ثانية لأنه لم ير المرض من قبل ، وسأل السائق عن سبب بلاء هذا الرجل فأجابه « إنه « المرض » مصير كل حى ، وأنه ضعف واختلال يطرأ على جميع الأجساد ، وعلى جميع الأشخاص ، وأن الأمير السعيد نفسه قد يقع فيه ، وقد يصل إلى مثل حالة هذا المسكين » ، فاغتم الأمير ، وحزن حزناً شديداً ، ولم يرد أن يواصل نزهته ، وعاد إلى القصر يفـكر ويبحث عن سلام نفسه وينشد عزاءه ...

ثم خرج للمرة الثالثة، ولـكنه فى هذه المرة رأى حالة أخرى جديدة : راى قوما يحملون نعشاً ويسيرون به فى الشارع فسأل سائقه : وما هذا أيضا ؟ » فأجابه : « رجل ميت يامولاى » فعاد الأميريسأل « وماذا تعنى بقولك«رجل ميت» ؟ فأجابه السائق « أن الميت هو رجل مثل هذا الشخص الذى يحملونه أمامك ويسيرون به » ، فنزل من عربته مندفعا إلى الرجال الذين يحملون الجثة ،وأمرهم أن يقفوا ، ودنا منها ، وكشف عنها الغطاء ، وإذا به يراها ولا حراك فيها ولا حياة ، فسأل : « وماذا سيصير إليه هذا الرجل الميت ؟ » فأجابوه بأنه سيدفن حالا فى التراب تحت الأرض، فقال لهم « ولماذا ؟ » فقالوا له « لأنه لن يحيا فيها بعد ، وإن لم يدفن فى التراب فسيخرج منه الدود والعفن » ...

فعاد الأمير يسأل:ـ « وهل هذا هو مصير الناس جميعاً ؟...وهل سأصير أنا أيضا إلى مثل هذه الحالة ؟ ... وهل سأدفن أنا أيضا فى باطن الأرض؟ ... وهل سيصبح جسدى مطعما للدود ومصدراً للنتن ؟... فقالوا « نعم » ... فصرخ فى السائق مذعورا منزعجا : ـ « عد بى إلى

الدار، فلن أخرج منه بعد اليوم، ولن أحاول الخروج الى عالم فيه «الشيخوخة وفيه المرض وفيه الموت .... »

لم يجد «ساكيامونى» فى آخر الأمر ، فى هذه الحياة سلاماً ولا أماناً ولا طمأنينة ، ولا عزاء ، بل وجد أن الحياة باطله يائسة ، وبذل قصارى جهده وكل قواه وتفكيره، ليتحرر هو وأصدقاءه منها، وليستأصلوها من جذورها ، بحيث لاتعود مرة أخرى بعد الموت كما يعلم جميع حكماء الهند ....

هكذا وجدت نفسى بعد تجوالى الطويل فى حقول المعارف البشرية ، أقوى شكا وأكثر يأسا ، ولم يكن كل هذا نتيجة ضعف فى عقلى ؛ بل بالعكس، كنت أشعر أنى أفكر تفكيرا صحيحا كما فكر أقدم وأحسن المفكرون السابقون ، وأنى قد وصلت إلى نفس نتائجهم .

بعد ذلك لم أعد أستطيع أن أخدع نفسى !! رأيت أن كل شىء باطل ، وأن كل مولود المرأة تعس وشقى — الموت خير من الحياة — الحكيم العاقل هو من يلقى عن كاهله عبء الحياة الثقيل ، فيستريح منها إلى الأبد . . .

لم أفشل أنا فقط ، ولكنى تيقنت أيضاً أن كل الذين بحثوا من قبلى ، فشلوا مثلى ، وبلغوا فى آخر الأمر ، كما بلغت أنا ، وكما يبلغ دائما أهل العلم والعقل ، الى الحقيقة الواحدة الممتلئة يأسا ، بأن الحياة لامعنى لها ....

٥

قلت فى نفسى :ـ «إنى الآن أصبحت عارفا وملماً بكل ماتستطيع أن تقدمه لى كل العلوم ، ومع ذلك فلم أهتد إلى معنى الحياة ، فلا بد لى من وسيلة أخرى غير العلم والفلسفة .

وتأكد لى أن العجز هو فى العلم ذاته ، لافى نفسى ، ووجدت أن العلم هو الذى يخدع ويكذب ، حين يدعى أن فى مناله الجواب والحل .

تركت العلم ، وفكرت أن أبحث عن ضالتى فى صميم الحياة نفسها ،وفى قلب العالم نفسه ، راجيا أن أوفق إليها فعلا ، عندما أدرس حياة غيرى من الناس ، الذين يعيشون حولى ، فشرعت فى مراقبة وملاحظة من هم مثلى ، وفى نفس مركزى ووسطى ، لأرى كيف يعيشون ، وكيف يحيون ويتصرفون حيال سؤالى هذا الذى حيرنى كل هذا الوقت ، والذى جلب على كل هذا اليأس ،فوجدت أنهم بالأسف يهربون منه هروبا ، وأن لهم طرقا أربعة للهرب ، لكى لايتعرضوا لمثل حالتى المزعجة .

وأول هذه الطرق هو « الجهل » فان أبناء هـــذا النوع أكثرهم من الشبان الصغار ومن النساء ، ومن بعض الأثرياء الذين يجهلون قضية الحياة ، ولا يعنون بدرسها وفحصها والنظر اليها .

هم لايذكرون الموت ولا يفكرون فيه ،ولا يشعرون بالليل والنهار طول الوقت ، يقرضـــان بنهم واستمرار غصن الحياة . انهم فقط لاهون مشغولون طوال المدة بلحس العسل الى أجل معين ، لأنهم لايلبثون أن يكتشفوا رغما عنهم ، مايشعرهم بالموت وبالأيام تعمل منجلها فى غصن حياتهم . . .

من أمثال هؤلاء لم أستطع أن أستفد شيئآ ، لأنى لم أكن جاهلا بالأمور ، فقد رأيت فعلا الموت ووثقت به ولم أستطع أن أحول ذهنى عنه . . .

أما الوسيلة الثانية فهى ليست الجهل بل «التجاهل» ، وهى وسيلة أصحاب

الأمزجة الشهوانية والاهواء الجامحة ، وهؤلاء يعرفون ان كل شيء باطل ويذكرون الموت جيداً ، ولكنهم يرون أنه يجب عليهم عمدا أن يغضوا عيونهم عنه ، وأن يجدوا فى السعى وراء العسل ، وأن يبحثوا عنه حيث يوجد الكثير منه ، لينسوا بطلان الحياة وهمومها ، فى غمار اللهو والفرح وكل أنواع الملذات والشهوات . كأنهم يقولون لأنفسهم ماقاله « سليمان » لنفسه : ـ « اذهب كل خبزك واشرب خمرك بقلب طيب . إلتذ عيشاً مع المرأة التى أحببتها كل أيام حياة باطلك . لأن ذلك هو كل نصيبك فى الحياة... ليس من عمل ولا اختراع ، ولا معرفة ولا حكمة، موجودة فى الهاوية التى أنت ذاهب اليها ...»

إن بلاهة هؤلاء الناس وبلادة تصوراتهم تدفعهم إلى أن يضعوا عمداً برقعا كثيفا أمام عيونهم ، ليبتعدوا عن الاحساس بأثر الشيخوخة والمرض والموت، التى لابد واقعة إن قريبا أو بعيداً .

ورغم مافى هذه الفكرة من غباوة واضحة ، فان أكثر أبناء هذه الأيام، لايريدون إلا أن يتصرفوا على مقتضاها، ويلهون عمداً بملذاتهم عن رؤية الخطر المحدق بهم .

أما أنا فلم أستطع أبدا أن أقتنع بهذه الفكرة ، ولم أستطع أن أقتفى خطوات هؤلاء الحمقى ، لأنه ليس لى بلادة تصوراتهم ، وليست لى سخافة خيالهم وغبائهم ، ولأنى أحب ان أحيا الحياة المصحوبة بالفهم والادراك.

وفوق ذلك فقد كان شنيعا على أن أرضى وأن أقنع بهذه اللذائذ المؤقتة ، التى لاتمنحنى إلا لذة ساعة أو ساعات . حتى أفيق بعدها أتأمل فى الأمر ، فارانى شقيا طوال الأيام ، معذبا بمصيرى فى حياتى وفى موتى، فضلا عما أشعر به شعوراً أكيدا حقيقيا، من أن هذه اللذات أن هى إلا نوع تافه بخس رخيص من السرور، لا يشبع إلا الجوانب الصغيرة من نفسى...

أما الوسيلة الثالثة فقوامها كله هو قوة الرأى وقوة العزيمة . فان أصحابها يرون أنهم مادامو قد أدركوا أن الحياة باطلة ، وأنها شر، فعليهم فى الحال أن يقضوا عليها ، وهؤلاء هم الذين يلجأون إلى الانتحار ، وهم قلة شاذة نادرة من الناس ، يملكون عزما خارقا غير طبيعى ، وعندما يدركون أن الحياة أضحوكة، خلقها بارؤها ليعبث بنا وليتسلى على حساب الأحياء منا ، وعندما يعلمون أن راحة الموت والفناء ، خير من تعب الحياة ، وعندما يفهمون أن العدم خير من البقاء ، يبحثون عن حبل حول العنق، أو سكين فى القلب ، أو مسدس فى الرأس ، أو قطار أو بحر يضعون به حدا نهائيا لشقائهم وآلامهم ، وهؤلاء وإن كانوا قليلين إلا أنهم يتزايدون يوما بعد يوم، بين رجال طبقتنا الاجتماعية من الشبان والشابات، الذين وصلوا إلى درجة كبيرة من العلم ، ولكنهم لم ينضجوا بعد فى أعماقهم من النواحى الاختبارية النفسية والروحية .

أما أنا فقد حكمت فى هذا الوقت ، بأن هذه الوسيلة معقولة ومنطقية، ولكن لم يكن فى طوقى أن أعمل بها ، لأنى لم أستطع فعلا الانتحار ، وعجزت فعلا عن تنفيذه لسبب ما .

أما الوسيلة الرابعة فأساسها الضعف والخور ، وخلاصتها ان أصحابها يعرفون أن الحياة باطلة وأنها شر ، ويشعرون بما فيها من ألم ويأس ، ويفضلون فى قرارة نفوسهم الموت على الحياة اليائسة ، ولكنهم لا يملكون من القوة مايدفعهم الى الانتحار فعلا ، فيواصلون المحافظة على حياتهم ،غير أنهم فى كل وقت يترقبون الموت ويطلبونه، لينقذهم من الحياة الباطلة ، والجبن وحده هو أساس تفكير أصحاب هذا الرأى ، لأنهم مادامو يعرفون أن الحياة عبث وأن الموت رائدهم ، وما داموا يعرفون جيدا السبيل اليه ، وما دام لايقف أمامهم فى هذا السبيل شىء ،

فلماذا لايسلكونه ؟ ! لماذا لايقتلون أنفسهم ؟ ؟ ...

تلك كانت حالته الطبقة التى كنت أنا أحد أبنائها المتمسكين بفكرتها، والتى وصفها «شوبنهور» و«سليمان»عندما علما بان الحياة أضحوكة مزعجة ، فرضت علينا مجرد فرض، وليس لنا فيها حيلة سوى الاستسلام لها ، وتوقع الموت بين آن وآخر ،كأن علينا فقط ان نقضى الحياة فى الأكل والشرب واللباس والنوم والكلام وتأليف الكتب والصحف و .الخ ...

حقيقة انى لم أقتل نفسى فى هذا الوقت ، ولم أدر فى ذلك الحين سبباً لهذا الامتناع سوى الجبن ، أما اليوم فقد أدركت ادراكا واضحاً بأنى ما أحجمت عن الانتحار إلا لأن شعوراً خفياً قوياً عزيزاً ، كان يوحى الى من أعماق نفسى فى غموض وابهام ، بأن آرائى ونتائجى لا بد مضطربة مشوشة ، وأن تفكيرى لا بد خاطىء ...

بعد ذلك حدثتنى نفسى ان الحياة مناقضة لعقلى ، بينما العقل هو أسمى وأعظم ما فى الوجود ، فهو الذى خلق لى الحياة ... فكيف يستطيع هذا الخالق ان ينكر ما خلق ؟ ....

ومن جهة أخرى كنت أقول :ـ لو لم تكن لى حياة لما كان لى عقل ، فالعقل إذاً هو ابن هذه الحياة وثمرتها ومع ذلك هو ينكرها ! ! فهل تنكر الشجرة ثمرتها ! ؟

ثم قلت : ـ

« هب الحياة خالية من كل معنى ، وأنها شر وأنها الحماقة بعينها،فكيف عشت فيها فعلا ، وقضيت ما قضيت من عمرى ؟ ...

ــ ولماذا لا أزال حيا حتى الآن ؟ ...

ــ لست أنا فقط، بل لماذا عاش الكثيرون غيرى ؟ ...

— بل لماذا عاش الجنس البشرى كله من قبلى ؟ ...

— ولماذا لازال البشر كلهم فى جميع أنحاء العالم يعيشون ؟ ...

— مامعنى هذا ؟ ...

— لماذا أرى جميع الناس اليوم أحياء ، بل هم يفضلون البقاء على الموت ؟ ...

— لماذا لم ينتحروا فعلا ؟ ...

— ولماذا امتدت الحياة الانسانية الطويلة ؟! ...

— هل أنا وشوبنهور وأمثالنا الذين منحنا وحدنا أسرار الفلسفة والفهم والحكمة ؟! ...

— وهل نحن فقط الذين أدركنا تفاهة الحياة وخلوها من المعنى ، وأنها باطلة وأنها شر ؟!...

أبداً . . إن المعانى التى اختلجت فى نفوسنا ، وقادتنا إلى الرأى ببطلان الحياة ، هى معان سهلة واضحة لكل إنسان ولأبسط البسطاء ، طرأت وتطرأ على كل عقل ، ومع ذلك فالناس قاطبة لم يحفلوا بها وعاشوا رغمها، وقضوا حياتهم كلها ، ولا زالوا يقضونها . . .

وأخيرا تأملت طويلا فى هذا ، ثم تذكرت أنى وجدت فى أثناء بحثى وتنقيبى ودراساتى المختلفة ـ وجدت أن هناك حكمة سامية فائقة تسيطر على كل مافى الأرض من كائنات حية أو غير حية ، وليس سوى حياتى أنا هى المتنافرة السخيفة الخالية من التنسيق والحكمة ..!!! ...

ان ملايناً وملايناً من عامة الناس وبسطائهم لايدرون شيئا مما أدريه أنا عن الكمياء والكائنات العضوية وغيرها ، إذ لايفهمون شيئا إطلاقا عن أصولها وحالاتها العلمية كما أفهمه أنا ، ولكنهم مع ذلك يدركون

ادراكا جيدا صحيحا واضحا ، الشرائع المعقولة الحكيمة التى تسير عليها حياتهم فى انسجام وطمأنينة ....

وجدت أن الانسانية كلها بجماعها عاشت العصور والقرون ، ولازالت تتمسك بالحيـاة ، ولا تفرط فيها كأنها تدرك كل الإدراك معناها وقيمتها ...

عاش كل أبناء آدم منذ الأزل . أما أنا اليوم فآتى لأقول لهؤلاء جميعاً إن هذه الحياة الهائلة ، ومن أولها إلى آخرها ، بأسرها لامعنى لها ، وإن هذه الإنسانية القديمة العهد ، المتسعة ، الوافرة ، الزاخرة ، لامحل لها ، وإنى غير مستطيع البقاء فيها !! ؟

ثم ماالذى منعنى من الانتحار مادمت قد انـكرت الحياة ؟... إن الذى ينـكرها عليه ، أن يسكت ، وأن يكف عن الـكلام والمناقشات ، وأن يقتل نفسه فعلا ... قلت لنفسى أنت تـكره الحياة فأقتل نفسك !

أنت تعيش ولا تفهم لمـاذا تعيش فضع حدا لحياتك !!

أنت فى وسط جماعة كلهم مختبطون راضون ، يعرفون مايعملونه ، وأنت وحدك مقطب الجبين حزين بائس شقى مضطرب الفـكر ثائر على كل شىء ، فلماذا لاتخرج من وسط هؤلاء الناس الراضين لتريح نفسك ، ولتريح غيرك !؟ ....

فهمت أننا نحن الذين شكـكنا فى قيمة الحياة لاتزيد على بضع أفراد ، أما الإنسانية بأسرها فلم تشك قط فيها وفى معناها ، فلا مرية أن الناس منذ أقدم الأزمنة قد عاشوا فعلا كل هذه الدهور حتى الآن ، رغم أنه قد جال فى خواطرهم مثلما جال فى خاطرى من الأفـكار ، ولـكنى أنا وحدى أنـكرت الحياة وجحدتها وكفرت بها !! اما هم فلم ينكروها بل كانت عزيزة غالية عليهم ، لها فى نفس كل واحد منهم معنى خاص وقيمة خاصة ....

وهم الأصل فى ولادتى ، وفى تربيتى وفى تثقيفى ، وهم الذين كشفوا عن الحديد فى الأرض ونزعوه منها ، وهم الذين علموا اولادهم قطع الأخشاب وتشذيبها ، وهم الذين اكتشفوا الزراعة وتربية البقر ، والخيل وتدجينها والخ .

وهم الذين اخترعوا الصناعات ، وعملوا على تقريب الناس من بعضهم ، وتنظيم علاقاتهم ومصالحهم بالقوانين العادلة والانظمة السليمة ، فجعلوا للحياة هيئتها الخاصة المنتظمة المرتبة ، وهم فوق كل هذا الذين علمونى كيف أفكر وكيف أتحدث .

أنا ابنهم وأنا صنع أيديهم ـ أنا ثمرة جهودهم ، وعنايتهم ورعايتهم ـ أنا جزء من تفكيرهم وأعمالهم ـ أنا قطعة منهم ... إلا أنى أقوم اليوم صارخا فى وجوههم جميعاً بأنه ماكان لوجودهم منذ الأذل أى معنى ! ! وأن كل ماسعوا إليه وكل ماعملوه وكل مااستقروا عليه ، هو فارغ تافه لاحكمة فيه !!! ..

على أثر هذا التأمل ، وثقت بأنى لاشك مخطىء فى تفكيرى ، ولكنى لم أكتشف بعد موضع الخطأ بالذات — فلم أعرف إن كان فى النتائج التى بلغتها ، أم فى الطريقة التى وضعت بها المسألة من أساسها .

عرفت أن عقلى مع قوة اقتناعه ببطلان الحياة، فانه لم يستطع أن يدفعنى إلى ازهاق نفسى فعلا ، كما أنى أدركت أن العقل ليس هو الذى حال دون انتحارى، رغم أنه كان دائم النشاط ، بل أقول الحق ، إن الذى أنقذنى من قتل نفسى عمدا ، هو قوة أخرى كانت تعمل بجانبه ، هى قوة شعورى بتمسك الانسانية كلها فعلا منذ الأذل حتى الآن بالحياة وبالرضاء بها .. فقد عملت هذه القوة حقاً فى اعماق بأقصى طاقتها ، وكانت هى فى الواقع التى تقرر مواقفى العملية وتوجهنى إليها ، وكانت هى دائما التى تكشف لى

عن أخطائى، وتمدنى بالآراء السليمة أعالج بها القضايا النظرية المشوشة ، التى كانت تطغى على ، والتى كانت تتعارض مع الحقائق الفعلية .

هذه القوة هى التى انتشلتنى من هوة اليأس الذى غرقت فيه ، وهى التى غيرت كل افكارى وآرائى ، وهى التى علمتنى بأنى لا أنا ولا المئات من العلماء والمفكرين أمثالى ، نستطيع ان نكون مثل هذه الإنسانية الهائلة، التى تتالت وعاشت على هذه الأرض بسلام كل هذه الحقب من الأزمنة ! !

خيل إلى قبل اليوم ان هذه الدائرة الضيقة المحدودة، التى تجمع بينى وبين أمثالى من الأغنياء والمتعلمين والكسالى والضعفاء ، هى التى تؤلف الإنسانية الحقة ، وما عداها من ملايين الناس الذين عاشوا راضين قبلنا ، والذين يعيشون الآن باطمئنان ليسو إلا بهائما لا بشرا ! !

ومهما بدا لى الآن هذا التقدير سخيفا غريبا خاطئا ، فانه بالحق كان رأيى فى الماضى، لأنى كنت معجباً بنفسى مزهوا مغروراً بعلمى وبأدبى ! !

لقد ظننت أنى أنا وسليمان وشوبنهور حين سألنا : « لماذا نعيش ؟ » كنا اقدر من الناس جميعا فى اكتشاف هذا السؤال بوضعه هذا، وأن ملايين الناس غيرنا عجزوا عن إدراك عمقه ! ! وانى أنا الوحيد الذى أغوص فى الأعماق أبحث بعناية وبدقة لا نظير لها عن معنى الحياة ! ! بينما هذا السؤال هو سؤال بسيط ، خطر على بال كل فرد ، وعرفه كل الناس ، حتى الأطفال ، منذ اقدم الأزمنة .

أعترف بأنى عشت وقتئذ زمنا طويلا مضطرباً معذبا بهذه الاخطاء ، كما عاش ويعيش اليوم أكثر الاحرار من المفكرين والمتعلمين، ولكنى عندما تأملت الحياة العامة الشاملة للناس جميعهم ، وجدت انى لكى افهم الحق ، يجب أن أهجر أولا هؤلاء القلة الضئيلة من الناس ، الذين يعتمدون على التفكير العلمى السقيم لوحده ، لانهم خسروا حياتهم فعلا ، فبعضهم جهلها،

وبعضهم تجاهلها ، وبعضهم راغب دوما فى الموت ، ولا يجرؤ على قتل نفسه ! ! .

ثم ألهمت بعد ذلك بأنه لا بد أمامى حتما ، معنى آخر صحيح هام فى متناولى أن أكتشفه، لأهتدى به بعيدا عن هذا النفر القليل من العلماء ، فرأيت أن أخرج إلى الآفاق المتسعة، وأن أبحث عن ضالتى وسط الطبقات العامة والعمال ، الذين كنت أميل إليهم بفطرتى ، والذين ما كنت أصدق فيهم تلك الغباوة التى صورها فيهم كبار المفكرين والكتاب ـ أولئك الملايين من الاحياء والاموات الذين أحبوا الحياة،والذين بنوها واسسوها وأقاموها على كواهلهم وحملوا اثقالها على أكتافهم راضين مغتبطين،حتى وصلت إلينا كما هى الآن نستمتع بها جميعاً ....

أخذت فى النظر إلى الحياة العامة الجامعة للبسطاء والفقراء وغير المتعلمين من الأموات والأحياء ، فوجدتهم يختلفون عن طبقاتنا الممتازة كل الإختلاف .

تأملت أمرهم ، وعرفت أن آراءنا الغريبة التى تسود لنا وجه الحياة وتعقدها ، لم تخطر على بالهم ، ومع ذلك فلم أستطع أن أقول عنهم إنهم جهلوا معنى الحياة،أولم يريدوا أن يفهموه أويبحثوه ، لأنى وجدتهم باحثين عارفين، ملمين بهذا المعنى بكل دقة وبكل وضوح وبكل اطمئنان .

كما انى لم استطع ان أحسبهم من ضمن الذين يتجاهلون ويتعامون عن (الموت) ، وينصرفون عنه إلى الشهوات واللذات ، لأنى وجدت حياتهم فائضة بالآلام ومليئة بالتضحيات وان نصيبهم من هذه اللذات قليل .

كذلك لم أجدهم بين الضعاف الذين يرون الحياة بغير معنى وبغير هدف ، ويرون شرها وبطلانها ومع ذلك يصبرون عليها مترقبين فى كل آن الموت الذى ينقذهم منها ، لأنى وجدتهم يحبون الحياة فعلا ، ويضعون الغايات

المعانى المدركة المفهومة الواضحة فى كل حركة يتحركونها وفى كل عمل يقومون به .

ولم أحسبهم من ضمن الراغبين فعلا فى الانتحار ، الذين يئسوا من كل معانى الحياة ، لأنى وجدتهم يعيشون على الرجاء ، ويحسبون أن قتل النفس هو شر الجرائم ، وأنهم لا يعمدون إليه إلا نادراً .

لذلك ثبت لدى ، أن المعرفة الصحيحة للحياة ومعانيها لا توجد إلا بين هذه الطبقات الغالبة من االسذج والبسطاء ، الذين كنت أحتقرهم وأستهين بأمرهم .

وثبت لدى قطعاً ،أن الفهم المبنى على العقل لوحده ، وهوفهم الحكماء والعلماء الفلاسفة ، ينكر معنى الحياة ويرفضه ولا يفهمه ويثور عليه،ويحكم على الحياة بالبطلان ، ويؤدى حتما إلى اليأس ، أما فهم الملايين من البشر فلا أثر لطغيان العقل فيه ، ولا سلطان لجوحه عليه ، وهو فهم يمنحهم معنى راضياً سامياً للحياة .

هذا الفهم الجميل ... هذا الفهم الوديع ... هذا الفهم الطبيعى ... هذا الفهم الذى يمنح أكبر القوى الروحية البشرية هو :—

الايمان .

عرفت هذا ، ولكنى لم أستطع بعد أن أستقر عليه ، لأن عقلى كان لا يزال نشيطاً عاملا مسيطراً على ، يدعى أنه لوحده دون غيره صاحب السلطان الأعلى ، وكان ينكر الإيمان ولا يعترف به ولا يفرض له وجوداً ، فكان موقفى من نفسى شديداً حرجاً مزعجاً ، فالعقل كان ينكر الحياة ،والإيمان كان يريد أن يتخلص من طغيان العقل...فأيهما أختار ؟... كلا الأمرين كان مزعجاً . وبالأخص الثانى ... لأنى لو اتخذت الإيمان

وحده ،وعشت به لوحده، لكان على أن ألقى بعقلى كلية، وأن أهمله. بينما هو القوة الوحيدة التى كانت تتطلب منى السعى وراء إدراك معنى الحياة ، الذى أحببت من كل قلبى أن أصل إليه .

ثم تساءلت وهل يمكن أن أفهم أسرار الحياة بدون العقل ؟ ...

أمام هذه الحيرة قلت :

إما أن يكون ما سميته معقولا هو غير معقول ، ولا أثر للعقل فيه ، وإما أن يكون ما سميته غير معقول هو المعقول والمفهوم ! !

لهذا بدأت أراجع طرق تفكيرى التى كان أساسها كلها العقل،ووجدت أنها عمليات عقلية صحيحة ، ووجدت أن النتيجة القائلة « بأن الحياة لا شيء » هى أيضاً على هذا الأساس صحيحة ومتفقة تماما مع التفكير العقلى ،ولا غبار عليها ، ولكنى وجدت أنى أهملت نواحى أخرى هامة من المسألة ، فعدت إليها وسلطت نور بصيرتى عليها ، فاكتشفت أمراً جديداً ... إن الخطأ كان فى محاولة الوصول إلى معنى الحياة الغير محدودة واللانهائية بواسطة عقلى المحدود ، وبواسطة مقاييسه المحدودة ، وبواسطة مقاييس الزمان والمكان المحدودة ، وبواسطة الاعتماد على منطق العلة والمعلول المحدود .

وقد وجدت أن المحدود لا يمكنه أبداً لوحده أن يحيط بهذه المعانى الفائقة متى كان بعيداً عن اللانهائى منفصلا عنه . فعرفت أنه لا بد من ربط الاثنين والجمع بينهما ، قبل أن ننتظر الحل الصحيح ـــ لا بد من قيام الصلة بين الله والانسان ...

لقد خيل إلى أن العلم والفلسفة قد أجابا إجابة قاطعة حاسمة ، عند ما قررا أن الحياة شر ، ولكن الحقيقة أن هذا الجواب هو جواب سلبى غير إيجابى وغير محدود ، ولم يفسر لنا معنى الحياة ، ولا الغاية منها ، لأنه يقول إن الحياة هى « لا شيء » .

لهذا كانت جميع الإجابات السابقة التي حصلت عليها، على أساس هذا الخطأ البين الفاضح ، هي إجابات حتما متناقضة مبهمة قاصرة ، لم تهدني إلى الحلول الصحيحة . رغم إجهاد عقلي وفكري ، ورغم انكبابي ومواظبتي على الدرس والبحث في كل فروع العلوم والأبحاث .

إنها لم ترشدني إلى أكثر من أن القوة هي القوة - والمادة هي المادة - والإرادة هي الإرادة - وغير المحدود هو غير المحدود - ولا شيء هو لا شيء .....

أن التفكير في هذه المسائل المبني على العقل لوحده ، والذي بنى عليه «ديكارت» مثلا فلسفته والذي يبدأ أولا بالشك في كل شيء ، ويعرض عن كل نتائج الإيمان ، ولا يتمسك إلا بكل ما يلمسه العقل والاختبار - لم يصل إلا إلى ما وصلت إليه أنا « وسليمان » « وشوبنهور » « وبوذا » وسائر الفلاسفة من الاجابات المبهمة العمياء المضطربة اليائسة .

بعد كل هذا ، وضعت المسألة على الصورة الآتية ، التي يؤمن بها عامة الناس : —

كيف يجب أن أقضي أيام حياتي على هذه الأرض ؟ ....

كما تقضي شريعة الله .

هل بعد الموت شيء ؟ .... وما هو ؟ ....

نعم ... بعد الموت حياة ... حياة خالدة ...

هل ثمة معنى سام في حياتي لا يقوى الموت عليه ؟ ....

نعم ... هو اتصالك بإله أبدي غير محدود في سمائه الأعلى .....

ولما تأملت هذه الأسئلة وهذه الأجوبة ، وجدت نفسي راضياً هادئاً مستريحاً .

سلمت ثانياً بأن هناك معرفة أخرى عظيمة هائلة غير معرفة العقل —

معرفة لا تخضع لسلطان الفكر ولا لمشيئته ولا تتقيد به لوحده .

معرفة منحت لكل إنسان ولا تزال توهب للجميع .

معرفة تساعد الناس جميعاً فى الحصول على الغبطة والراحة والاطمئنان .

معرفة يقاوم بها المرء كل ما يقف فى سبيل هنائه من عقبات وصعاب وهموم .

هى الإيمان .

حين كنت أعتمد على علمى القائم على العقل فقط ، كنت أحتقر حياتى وأستهين بها ، لأنى لم أجد لها مزاقاً ولا طعماً ، بينما كنت أجد جماهير الناس على عكسى فرحين جذلين بحياتهم ، ملمين بمعانيها المفهومة وبأهدافها الحكيمة ، وذلك بفضل الإيمان الذى منحهم كما يمنحنى الآن الإدراك والفهم الصحيح والصبر والرضى والسلام ، فى كل أحوال الحياة مرها وحلوها .....

وجدت أن هذا الإيمان هو السائد ليس فقط فى بلادى بل فى كل بقاع العالم ، وبين جميع الأقوام ، وفى جميع الأجيال والأزمان ، فالحياة منذ نشأت على هذه الأرض وهى تسير برفقته ، ملازمة له ؛ وهو الذى يصبغها بألوان الفرح والرضى والعزاء والصبر .

والإيمان فى كل صوره يجعل لحياة الانسان معنى غير محدود ... معنى أبدى ... معنى سام خالد ، لا يزول ولا يفنى...مهما قامت المصائب والبلايا والأمراض والوحدة والموت لتحاربه وتقاومه .....

بالإيمان وجد الناس الحياة وفهموا أغراضها ومراميها .

وليس الايمان هو محاولة كشف المستور الخفى عن أبصارنا وأفهامنا ، وليس هو وحده الوحى أو الالهام الذى يهدى قلوبنا وأرواحنا أحياناً إلى عمل الخير .

وليس هو مجرد الفهم والتسليم بوجود صلة بين الانسان والله ،
وليس هو الاذعان والخضوع للطقوس الدينية .

وإنما الايمان المنتشر فى كل مكان ، هو الذى يؤدى إلى الوقوف على معانى هذه الحياة الانسانية الحاضرة وتفهمها فهماً صحيحاً حقيقياً ، يدفع الانسان إلى حبها حباً سليما من كل القلب ، ومن كل النفس ، ويدفعه إلى العناية بها والمحافظة عليها ، والسعى فى سبيل غاياتها وأهدافها السامية ....

بغير الايمان لايقدر بشر أن يعيش ، لأن من لايؤمن بغاية عظمى أبدية ، يعيش من أجلها ويحبها هو فى الواقع ميت ....

أدركت أن الإيمان مهما تناقض مع العقل ، ومهما تمرد على شرائعه ومنطقه ، فإنه يتميز بأن يضع لكل سؤال جوابا مريحا ، يصل بين المحدود وغير المحدود (الله والإنسان) ، ويربط بينهما بروابط عدة ، بغيرها تصبح الحياة معقدة مستحيلة وشقية بائسة ...

« من أنا » ؟

« أنا جزء من غير المحدود (الله) ...

هذه الإجابة الوجيزة هى موضع السر كله ، وهى التى ملأت قلبى بالنور ، لأنها جمعت بين الله والانسان ، ووصلت بينهما ولم تفصلهما أبداً .....

فى هذه الكلمات القليلة السابقة الحل لقضية الحياة كلها ... إذاً أنا جزء من الله .

عندئذ عدت إلى أفكارى القديمة أقلبها وأتأملها فساءلت نفسى :

ماذا فعلت حين درست وأطلعت وبحثت فى أنواع العلوم الطبيعية والرياضية لمعرفة السبب الذى نعيش من أجله ! ؟

وجدت أنى درست كل شىء ماعدا شيئاً واحداً هو (نفسى)، وتعلمت أموراً كثيرة جداً ، عدا ما كان منها يهم أمر «روحى» .

ماذا فعلت عندما طلبت الحل من الفلسفة ؟ !

وجدت أنى درست أفكار الذين كانوا مثلى تماماً يجهلون الحلول ، فلم أتعلم منهم أكثر مما كانوا يعلمون ! !

حقاً إنه مما يدعو إلى السخرية ، أننا كنا فى عجبنا بأنفسنا ، وفى غرورنا وإدعائنا، كالأطفال والصبية الصغار، ندير ساعاتنا بأيدينا ، فنسير فى دقة ونظام ، ثم لا نلبث أن ننتزع بنفس أيدينا إحدى محركاتها، ونلعب بها ، ثم نعجب بعد ذلك لماذا لا تدور الساعة ولا تضبط الوقت ! !

عرفت أن جميع الآراء التى وصلنا بواسطتها إلى إيماننا بالحياة وبالخالق وبالحرية وبالصلاح ،لا تقبل أبداً تجارب العقل المادية الصرفة .

إن الحل الحقيقى الذى ننشده والذى له أبلغ الاهمية لنا ، هو الذى يفسر لنا الغاية من الحياة ، بحيث يصلنا بها ويقربنا منها ، ويجعلنا نحبها ونحرص عليها ، وهذا لن يكون إلا عن طريق واحد هو « الإيمان » الكائن فى كل زمان وفى كل مكان ، وبين جميع الامم وبين جميع الشعوب ، والذى وصل إلينا فعلا من أقدم الازمنة جيلا بعد جيل ، ولولا هذا الميراث المجيد العظيم ، لتعذر علينا أن نحصل عليه الآن لوحدنا .

لكن بعد أن حصلنا عليه ، عدنا نهمله ولا نكترث له ولا نهتم به ! ! بل ننصرف عنه إلى دراسة مسائل فلسفية لا طائل تحتها ، ولا فائدة منها ! !

إن الايمان الذى يقول بوجود إله لانهائى ، وبوجود نفس مقدسة خالدة ، والذى يقول بوجود علاقة معروفة بين الخالق والمخلوق ، والذى يرشد الانسان إلى الخير والشر ، كل هذا ميراث خالد ثمين خلقته لنا الإنسانية بعد جهادها فى سبيله أجيالا عديدة . . وبغير هذا الميراث ما كانت الحياة ، وما كنت أنا ... ومع ذلك فانى أنا الذى أنكرته ! وأنا الذى ثرت عليه ! وأنا الذى تمردت على الانسانية بأجمعها ! مدعياً أنى أنا

وحدى وقليلين مثلى، نستطيع بعقولنا أن نحل هذه القضية بغير الحل الدى وصلت إليه هذه الانسانية الهائلة ! !

وضحت لى هذه الآراء فبدأت أدرك جيداً أن الموقف الذى اتخذناه أنا «وشوبنهور» «وسليمان» بالرغم من كل حكمتنا كان موقفاً سخيفاً جنونيا... فما دامت الحياة كانت فى عقيدتنا شر، فلماذا لم نقتل ذواتنا ونخلص من شرها ؟ ! !

وبدأت أدرك وأشعر شعوراً واضحاً، بأن النتائج التى نستمدها من الايمان تتضمن أصفى وأنقى وأسمى ينابيع الحكمة البشرية، وأنه من الخطأ البين الشنيع، أن أرفضها لأن العقل ينكرها !

٦

رغم أنى فهمت كل هذا ، فلم أتخلص بعد من كل شقائى ، فقد فتحت قلبى حقيقة لقبول الإيمان ولكنى أردت أن أصل إلى إيمان من نوع خاص لا يتطلب منى إنكاراً ظاهراً مطلقاً لنتائج العقل ...

درست الأديان الهامة فى كتبها الأصلية وهى البوذية والاسلامية والمسيحية بصفة خاصة، ثم اتجهت بعد ذلك للبحث فى الأشخاص الذين يلقبون فعلا بكبار المؤمنين من أبناء بلادى ، وهم علماء الكنيسة الارثوذكسية وعظاء المفكرين من رجال الدين والرهبان والشيوخ ،فسعيت إليهم،واستوضحتهم ما استشكل على من أسرار الحياة وعن غايتها وأهدافها، ومع أنى كنت أقصد أن أتجنب الجدل والمناظرات ،ومع أنى كنت مستعداً أن أفهم الأمور بغير عناد ،فلم أستطع أبداً أن أقبل إيمانهم لأنه لم يكشف لى عن معنى الحياة الحقيقى ،بل بالعكس زاده ظلاماً وإبهاماً وتعقيداً ، فقد بنوه لا على أساس المحاولة النزيهة على حل مشكلات الحياة العملية وتفهم أغراضها والسعى فى سبيلها ، ولكنهم كانوا مدفوعين إليه بغايات ودوافع أخرى شخصية غير نزيهة ...

وإنى لازلت أذكر آلامى النفسية المريرة ، حين فشلت فى الاهتداء إلى ضالتى ، بين أولئك الذين كانوا يتزعمون الاديان ، والذين كنت على أيديهم أعلل النفس بالخلاص ، فلم أستفد منهم شيئاً، وعدت بسببهم إلى هوة يأسى الأول أكثر شقاء وأوفر تعساً ....

كلما كان هؤلاء الزعماء يبالغون فى التحدث والمجادلة عن تفاصيل ودقائق عقائدهم الخفية ، ليظهروا للناس عظمة إيمانهم وعمقه ، كلما كنت أزداد أنا إقتناعاً بضلالهم ،وبأن عقائدهم هذه كلها عاجزة عن أن تنير لى معنى الحياة ،

ثرت حقاً على ما أضافه هؤلاء الناس من الزوائد التافهة العمياء على الدين البسيط الجميل ، ولكن ثورتى هذه لم تكن شيئاً مذكوراً ، أمام عجبى البالغ وأمام دهشتى الفائقة من هؤلاء الناس، حين شاهدت حياتهم الشخصية وحين قارنتها بحياة غير المؤمنين، فوجدتهم لا يختلفون عنهم إلا بريائهم البالغ، وسلوكهم فى الحياة فعلا بعكس ما يقولون وبعكس ما يعملون !... انهم إنما ينافقون ويكذبون ويخدعون أنفسهم كما يخدعون الآخرين .... وأن غايتهم من الحياة ليست سوى التمتع بالطيبات والاستسلام للشهوات !!

ولو كان إيمانهم صحيحاً لما رأيتهم يرتعدون فزعا من المرض والشيخوخة والموت !!

سعيت ايضا إلى الذين يدعون الايمان من المثقفين أو الاغنياء فألفيتهم أيضاً مخادعين ، لا ترتفع قلوبهم إلى السماء ولكنها أبداً هابطة إلى الأرض ومقتنياتها وسائر مطالبها ، لا يعتمدون إلا على الجـــدل والسفسطة والنفاق ، وقد فشل هذا كله فى أن يقنعنى باخلاصهم فى عقيدتهم لانى أردت أن أشاهد الخير والصلاح والسلام فعلا فى حياتهم لا فى الفاظهم وأقوالهم ...

ثم عرفت أن إيمان هؤلاء المدعين ، لا يصلح أن يكون إيمانا لعامة الناس ، الذين لا يعيشون مثلنا بالنفاق على حساب الغير ، وعلى متاعبهم ، بل خلقوا وعاشوا ليبنوا الحياة بأنفسهم ، وليقيموها على كواهلهم ، فهؤلاء لابد لهم من إيمان أنزه وأخلص من هذا ...

لهذا شعرت بقوة فائقة تقربنى إلى طبقات الفقراء والمساكين والجهلة والبسطاء والفلاحين والرهبان والناسكين ،فاتجهت فى الحال إليهم أدرسهم وأدرس إيمانهم وعقيدتهم ، وأبحث عن ضالتى بينهم ، وكلما توغلت فى دراستى لهم ، وقربت منهم كلما ، ازددت ثقة ويقيناً بأن الايمـان الحق لا يوجد إلا بينهم وفى أعماق قلوبهم ....

هم كانوا يرون أن الايمان ضرورى لحياتهم ، وبدونه لايرون لبقائهم على الأرض معنى أو غاية ...

ومن الغريب ، أنى وجدتهم يعتقدون بنفس عقيدة الأغنياء والمتظاهرين بالدين ، وكلاهما كان يمزج الخرافة بالدين ، إلا أنه كان هناك فارق واضح كبير بينهما ، فمدعو الايمان من الزعماء والأغنياء ، كانوا يمزجونها عمداً ليضللوا بها البسطاء ويخدعوهم بها ، أما السذج والعمال فكانوا يعتبرونها بحسن نيه جزءا من إيمانهم الصحيح ...

كل ما وجدته فى هذه الطبقة العامة ، يناقض تماماً ما يوجد فى الطبقة الخاصة التى أنتمى إليها من أبناء الأشراف والاغنياء ، الذين يستغنون عن الايمان ولا يهتمون به ، ويرون أن حياتهم يمكن أن تنقضى بدونه ، ولم يكن بين كل ألف منهم أكثر من مؤمن واحد . أما الطبقات الساذجة البسيطة فلم يوجد بين كل ألف منهم رجل ملحد واحد .

وكان أبناء طبقتنا يصرفون حياتهم إما فى الكسل أو فى السعى وراء الملذات والشهوات ، أو فى التمرد والعصيان على الحياة ، أما العامة فأغلبهم يعمل ويعمل بجد واجتهاد وهو راض بدنياه وبحياته وبحظه منها .

كان الرجال والنساء من طبقتنا يضجرون بالحياة ويتبرمون منها وينزعجون من آلامها ومن أمراضها وسائر بلاياها ، بينما كان العامه يتصفون بالهدوء العجيب والعزاء الوفير ، تجاه المصائب والهموم التى يرونها أمرا طبيعياً ، وأنها تعمل مع بعضها فى النهاية إلى خيرهم وإلى رقيهم .

وكانت الفكرة الغالبة بيننا ، أن المرض والشيخوخة والموت هى من الأقدار الشريرة التى فرضت علينا بغير حكمة . أما أولئك السذج والفلاحون فلم تفارقهم بسمة الحياة ، ولم يفقدوا الثقة بإيمانهم فى شيخوختهم وفى أمراضهم وفى موتهم .....

حرم الفقراء من جميع الفرص والملذات التى تجعل للحياة عادة قيمة خاصة فى نظر الاغنياء ، والتى تمتع بها فعلا أمثال الملك « سليمان » ، ولكنهم مع ذلك يحيون فى غبطة وسعادة، لم يحلم بها هذا الملك فى كل مجده ولم يجدها أغنى أغنياء الارض ...

تأملت حولى فى أفراد الطبقة العامة ، وفحصت أيضاً حياة الذين ماتوا منهم ، فوجدت أن ليس واحداً ولا اثنين ولا ثلاثة هم الذين أدركوا معنى حياتهم ورضوا به ، بل إن المئات والالوف والملايين والبلايين عرفوا هذا المعنى بغير فلسفة وبصورة طبيعية عملية ، ساعدتهم على الحياة فى سلام ورضى ، وعلى الموت فى سكون وطمأنينة .

جميع هؤلاء الالوف والملايين الذين يختلفون عن بعض، فى الأوطان وفى العادات وفى الاخلاق وفى التعليم وفى التربية ، وفى مراكزهم الاجتماعية، وفى سائر أوساطهم ومختلف ظروفهم ، عاشوا راضين مغبوطين على عكس ما عشت أنا ، وكانوا على عكس ما كنت أنا ... هم وقفوا على معانى الحياة وعلى معانى الموت فأدوا أعمالهم فى صمت ، واحتملوا الفقر والمرض فى صبر ، وعاشوا وماتوا وهم يعتقدون بأن كل مافى الحياة من حلو ومن مر ، هو فى الحقيقة طيب وصالح ولازم ....

عند ما قمت بهذه المقارنات ، أحببت من كل قلبى هؤلاء الفقراء وتقربت إليهم واندمجت فى وسطهم ، وتعلمت منهم الدروس تلو الدروس وأحسست برغبة شديدة وشوق حار إلى اقتفاء آثارهم ، وإلى التمسك بأخلاقهم ...

شعرت أثر ذلك بتغيير كبير فى أفكارى ، وفى إميالى ، وأحسست بشعور خطير طالما كان يتحفز للظهور ، ولكنى لم أكن أدرى كيف ولا متى أظهره ؟ ، وهو أن حياة طبقتى من الاغنياء والمتعلمين أصبحت أمام

نفسى كريهة ممقوتة ، لم أعد أحبها ولم أعد أحتملها - إن جميع أعمالنا ومساعينا وجميع أفكارنا وفنوننا وعلومنا ظهرت لى بصور جديدة مختلفة ، هى صور اللعب التى يلعب بها الصبيان ، والتى لا تفيد إلا فى غير هذا الغرض الفارغ ... أما حياة العمال وحياة عامة الناس الذين يعملون بأذرعهم فى البناء وفى التعمير وغير ذلك فقد رأيتها الحياة الحقة الصحيحة ....

نعم لقد آمنت - آمنت بهذا - وارتضيته لنفسى بمسرة جزيلة ونعمة وفيرة ....

* * *

ثم تساءلت : - لماذا كرهت واحتقرت إيمان العامة فى الماضى ؟ لماذا حسبته قبلا خاليا من المعنى ؟

آه - لقد اكتشفت شيئاً آخراً هاماً وتأكدت منه ووضعت أصبعى عليه ، فلم يكن الخطأ كائن فى تفكيرى أو فى ذكائى ، ولم يكن فى عجز العلوم فقط ، ولكنه كان أيضاً فى فساد حياتى الشخصية - إن الحقيقة لم تحجب نفسها عنى إلا من أجل استسلامى لشهواتى ومن أجل حياتى الساقطة...

اليوم عرفت أنى عند ماكنت أصف الحياة بأنها شر لا معنى لها ، كان ذلك يعنى بحياتى أنا الشخصية، لا حياة الناس كلهم ولا الحياة بأجمعها ، كما هيء لى غرورى وكبريائى...

لقد آمنت الآن أن من يبغى الوقوف على معانى الحياة، عليه أولا أن يحاول أن يحيا الحياة الصالحة المستقيمة الحافلة بأنواع الفضائل ، ولقد فهمت الآن أن الذى يريد أن يتحدث عن الحياة بأسرها ، وأن يعطى رأيه فيها، عليه أن ينظر لها نظرة عامة شاملة لكل نواحيها ، ولكل أبنائها فى كل العصور ، لا أن يقصر بحثه على حياة حشرات دنيئة قليلة من أمثالى ممن يعدون على الاصابع !! ....

هذه حقائق واضحة ، ولكنها غابت عنى وقتئذ ، لان ظهورها كان يكشف عن شرى وعن فسادى ، أما اليوم وقد وضح كل شيء أمام عينى، وعرفت أنى كنت شريراً ضالا فقد وقفت على الحق وأحببته ...

لقد كان الامر فى غاية البداهة :ـ

إن سأل إنسان نفسه ـ وهو يقضى إيامه فى قتل الناس وقطع رءوسهم وتعذيبهم ، أو فى الخمر والفسق والقمار ـ ماهى الحياة ؟ فلا بد أن يكون الجواب الواحد هو أنها شر وحماقة ، ولا شك أن هذا جواب صحيح ، ولكن بالنسبة له فقط ...

بعد ذلك فكرت فى أمر آخر ، فقد راقبت الطير ووجدته مخلوقا على صورة تمكنه من الطيران ومن التقاط الحب للطعام ، ومن بناء عشه ، ليقضى فيه حياته ، وكلما كنت أراه يؤدى هذه الاغراض ، ويقوم بعمله الذى خلق له، كنت أرتاح وأرضى، وكذلك سائر الحيوانات فقد خلقت على نمط عجيب لتعمل وتتمكن من الحصول على الطعام ، ومن الدفاع عن حياتها والمحافظة على جنسها وتربية صغارها ، وهى فى كل هذا سعيدة راضية ، تحيا بغير قلق ولا انزعاج ...

وهكذا الانسان فهو كالحيوان تماما على صورة لابد معها من العمل والنشاط ليكسب خبزه بعرق جبينه ، ولكى يحافظ على نفسه وجنسه ، ويدافع عن حياته بغير ضجر ولا ملل ، ولكنه يختلف عنه فى أن الحيوان لايفكر إلا فى نفسه ، ولايعنى بشيء ما إلا ما يهم ذاته . أما الإنسان فهو يعيش وسط الجماعة ، ويقضى كل حيـــاته بينهم ويعمل معهم ، فإن ركز جهده وسعيه على ذاته فقط ، وإن قصد أن يكون أنانياً ، فهو لا يستطيع أبداً أن يحيا حياة طبيعية سعيدة ، لأن طبيعة الوجود تتطلب منه ان يعمل ايضا للغير وللانسانية قاطبة ، وأن يشعر بنوع من التضامن معها ، وهى

من ناحيةأخرى سوف تمنحه حتما ثمار اعماله ، وانتجزيه خيراً على سعيه، وسوف تهبه بكل تأكيد حياة راضية منسجمة ....

أما انا فبالأسف في الثلاثين سنة الأخيرة من حياتي الناضجة،فلم اقتصر على عدم معاونة غيري ، ولكني لم أعمل صالحا لنفسي ، لأني قد قضيت هذه الأعوام الطويلة كحشرة تافهة ، اصرف جهدي كله في العبث بحياتي وبحياة الآخرين ....

أجل إن حياتي أنا هي التيكانت شراً وضلالا ...

***

إن في الوجود إرادة كلية عظمى كل غايتها أن تديره بأكمله ، وان تعنى بحياته وبحياتنا كذلك ، ولكن قبل ان نطمع فيإدراكها ، وقبلأن يقفز فينا العقلإلى محاولة فهمها والتساؤل عنها واستقصاء غاياتها الدقيقة — قبل ذلك يجب أن نقوم بما علينا من الفرائض والالتزامات ، وأنا إذا لم أقم أولا بنصيبيمن العمل ، فلن اعرف شيئا هاما عن هذه الارادة ، ولا عن هذا الوجود الذى انا قطعة منه ، ولنأحظى بالنور الذى يضيء لى طريق المعرفة ... الامر تماما هو كما يأتي : ـ

إذا أخذ شخص مسكين متسول ، عارى الجسد ، تائه في الطرقات ، إلى دار كبيرة فسيحة بها حديقة واسعة،وأمر بأن يعطى الكساء والغذاء ، مقابل عمله وهوتحريك يد مضخة الماء ، ففيما يفكر ؟ ... وكيف يجب أن يتصرف ؟

ليس له فى أول الأمر أن يبحث عن السببالذى حمل صاحبالدار إلى استخدامه فى تحريك يد المضخة ، ولا أن يحاول أن يحكم عما اذا كانت النظم والترتيبات المعمول بهافى هذا المكان معقولة أم غير معقولة، ولا عما إذا كانت لها غاية أم لا .

عليه أولا وقبل كل شيء، أن يضع يده على الطلمبة فعلا،وأن يديرها فعلا،وهو عندما يقوم بهذا يجد أن المضخة تخرج الماء من باطن الأرض إلى خارجها ، ثم يلاحظ أن الماء يجرى فى الأرض فيسقيها بما عليها من نبات وأشجار ، ثم لايلبث أن يرى ثمارا شهية ناضجةجزيلة الخيروالنفع.

وبعد أن يظهر كفاءة فى عمله هذا ، ينقله صاحب الدار إلى عمل آخر مثل جمع الثمر والعناية بالشجر إلى غير ذلك من الأعمال ، حتى اذا انتقل من عمل الى عمل ،وقف بالتدريج على النظام الموضوع لتلك الدار وتلك الحديقة ، وحظى بنصيبه من الخير فيها بكل سهولة

فلولا العمل والاعتصام به والقيام بواجباته والمواظبة عليها،لما عرف شيئا ، ولو أنه اقتصر على الكلام وعلى السؤال والمناقشة والتفكير ، ولم يضع يده على المضخة ، لما كسب شيئا ولما عرف شيئا ...

أما نحن الحكماء وأهل العلم والفهم والفلسفة ، فاننا نتمتع بكل خيرات رب البيت ،ونأبى أن نؤدى الواجب الطبيعى المفروض علينا من الأعمال، ولا نكتفى بهذا ، بل نغتصب مراكز العاملين الحقيقيين ، ونستوى على مقاعدهم ننعم بملء راحتنا عليها ، ونتربع فوقها ، ثم نأخذ فى الكلام والبحث والجدل !! ونظل نسأل ونكرر السؤال : —

لماذا يجب أن نحرك يد الطلمبة ؟؟ ثم نجيب ونناقش ونختلف !!...

وبعد قليل نصل ، إلى أن هذا عمل بليد تافه ، لايليق بنا ولا يتفق مع كرامتنا !!

ثم نعيد البحث ونعيد المناقشة والجدل ، وبعد أن نفرغ من هذه الأبحاث والتأملات السخيفه نصل الى نتيجة أخرى عظيمة هى :—إن رب البيت نفسه هو البليد !!!

ثم نعود ونفكر ونتكلم ونناقش ونبحث، ثم نصل إلى أن رب

البيت هذا غير موجود اطلاقا ، وأننا نحن وحدنا الموجودون !!!...

حقا اننا نتحدث بذلك ونتصلف !! ، وندعى أننا لوحدنا الفلاسفة العظاء !! ، ونتفاخر بحكمتنا الوافرة !!، ولكننا فى نفس الوقت ننال من جراء هذا التبجح جزاء صارما شديدا ، هو شعورنا الدائم الذى لا ينقطع بفراغ الحياة وتفاهتها ، وشعورنا باليأس ، وبعدم صلاحيتنا لشىء مفيد عظيم عليها، وبأن الموت والانتحار هما خير الوسائل للتخلص منها !!!

بعد أن يئست من عقلى ومناقشاته ، وبعد أن يئست من علومى ومعارفى ، وبعد أن اكتشفت فساد حياتى ، وبعد أن اقتنعت باخطائى ، وبعد أن وقفت على الحقائق السابقة ، اعتزمت أن أخلع عنى هذه الحياة القديمة، حياة الترف الفاسدة ، وأن أحيا حياة هؤلاء الأشخاص العاملين الجادين ، الذين يقضون أيامهم فى بساطة ورضى وعزاء ، وأن لا أتمثل بحياة الحشرة الطفيلية العالقه بجسم غيرها تعيش على حسابه وتمتص دماءه، بل أن أقضى أيامى فى العمل المثمر الصالح لى ولغيرى وللعالم أجمع ، وأن أواظب عليه متمتعاً بنفس الرضى، الذى يستشعره هؤلاء الفقراء والفلاحين الامناء ، الذين يؤلفون بالفعل وبالحق الانسانية الصحيحة المنتجة ....

٧

ولعلى أستطيع أن ألخص الموقف بإيجاز فى العبارات الآتية :ـ

كنت فى الماضى أفكر بغير انقطاع وبلا توقف ، فى الحياة ومعناها ، وما أبهم على من غوامضها ومن أسرارها ، وكنت فى كثير من المرات أخرج بمساءلة نفسى بين دقيقه وأخرى ، عما إذا كان الأفضل لى أن أنتحر برصاصة أو بحبل حول عنقى ... وبينما كان عقلى مشغولا بكل هذا ، كان قلبى متألماً من أعماقه ، معذباً بشعور خفى غامض ، وعاطفة قوية جائمة تدفع بى إلى البحث عن شيء آخر . . . عن شيء لازم ضرورى . . . عن الله . . . .

كان هذا الشعور يشبه فى كثير من النواحى ، شعور اليتيم التائه فى مجاهل لا يعرفها ، ولا يعرف عنها شيئاً ، ومع ذلك يحس بالرجاء وبالامل فى مساعدة ما ، لا يفهم ما هى ولا يعرف مصدرها .....

وأسارع فأقول بكل ما فى من ثقة وتأكيد ، أن هذا الشعور لم يكن له أى صلة بعقلى الذى كان بالعكس ينكره ويعترض عليه ، وإنما كان إحساسا مصدره القلب وحده .

ومع أنى كنت قبل ذلك واثقا بأن الدليل على وجود الإله عن طريق العقل وحده مستحيل ، كما قرر « كانت » الفيلسوف ، إلا أنى رغم هذا ، وجدت نفسى ما زلت مدفوعاً إلى البحث عن الله ، مشوقا إلى الإهتداء إليه ، مجداً فى التفتيش عنه ، ممتلئا رجاء وأملا فى العثور عليه . . . .

كنت أحيانا أصلى له وأخاطبه ، ولكنى لم أجد من يصغى إلى .

كنت أحيانا أقرأ « كانت » و « شوبنهور » وأوافقهما أحيانا بأن البرهان على وجود الله مستحيل ، وأقتنع بذلك ، وأحيانا أخرى كنت

أثور عليهما وأفند أقوالها ، وأكشف ما فيها من أخطاء وضلال . . .

قلت مرة فى نفسى : ـ

ما دمت أنا موجوداً ، فلا بد من علة لوجودى ، ولا بد أن تكون هذه العلة هى أصل جميع العلل ، ولا بد أن تكون هى ما يقال عنه «الله».

لازمنى هذا الرأى طويلا ، وعمل فى بأقصى حد إلى الشعور فعلا والاحساس فعلا بهذا الإله ، حتى وفقت إليه ، وشعرت بهذه القوة العظيمة الفائقة التى تسمو على وترتفع على كل شىء .....

ولكنى مع ذلك عدت ثانياً أشعر بأن الحياة نفسها لا زالت مستحيلة على كما كانت من قبل ، لأنى سألت نفسى ما هى هذه العلة أو هذه القوة ؟...

كيف يجب أن أدير اتجاهات تفكيرى عنها ؟ ....

ما الصلة التى تربطنى بهذا الاله ؟ ....

فلم أجد غير الجواب القديم بأنه هو الخالق وهو البارىء لجميع الكائنات وكفى . . .

عدت إلى اضطرابى ، وعدت إلى مخاوفى وإلى شكوكى ، وأعوزتنى القوة التى تدفعنى إلى الاستمرار فى الحياة والمحافظة عليها ، فشرعت فى الحال أصلى رغم أنى لم أثق بالصلاة ... أصلى إلى هذا الاله الذى أبحث عنه ... أصلى له ليعيننى ولينجينى من شكوكى ومن يأسى . . . إلا أن افراطى فى الصلاة وقتئذ لم يزدنى إلا ثقة بأن صلواتى هذه لم يسمعها أحد ، ولم يصغ إليها أحد . . . وفهمت بأنه لا توجد قوة ما يستطيع الانسان أن يلجأ اليها ، ويعتمد عليها وقت محنته وابان شدته . . .

ملأ اليأس قلبى لعدم اهتدائى الى فهم ألوهية هذا الاله الذى أسعى اليه ... وفى يأسى العميق ، صرخت بغير ايمان : « يارب ارحمنى ... يارب انقذنى . . . يا الهى اهدنى وأرشدنى » .

ولـكن لم يرحمني أحد ، ولم ينقذني أحد ، ولم يهدني أحد ... وعدت الى يأسي ، ولـكني لم ألبث أن أخذت أقول : —

أنه من المستحيل ألا يكون لوجودي على هذه الأرض ، غاية معينة ومعنى خاص ، مستحيل .... مستحيل ...

لا يمكن أن أكون كهذا الفرخ من الطير ، سقط صدفة من عشه ، فوق عشب الحقل ، وأخذ يصرخ - وعلى فرض أني مثله، فلماذا أصرخ ؟...

وما هذا الذي يحملني على الصياح تلو الصياح ؟....

ولمن أصرخ ؟...

أليس هذا دليلا على أن هناك أما ولدتني ، وعنيت بتربيتي وأطعمتني وأحبتني ؟....

ولـكن أين هي ؟ ....

أين هي أمي ؟ ....

وان كان قد ألقى بي عمداً في هذه الحياة ، فمن الذي رماني ؟....

لم أستطع وأنا أردد كل هذا في نفسي ، الا أن أعترف بهذه الحقيقة وهي :

ان كائنا ما قد أحبني ، وكان هو السبب في وجودي ، وهو هو الذي أصرخ اليه ، وهو الله ، وهو لا بد يعرف أني أبحث عنه ، ويعرف أني أسعى اليه ، وأصلي له ، ويحس بيأسي ، ويحس بجهادي في سبيله ، ورجائي فيه فصحت في آخر الأمر : -

« انه بالحقيقة موجود ».

وكنت في كل الأوقات التي أؤمن فيها بوجوده ، تتجدد حياتي ، وتنتعش روحي ، وينهض رجائي .

أخذت بعد ذلك أتأمل في روابطنا وفي علاقاتنا نحن البشر مع هذا

الاله ، فوجدت بعض رجال الدين يفصلونه عنى وعن الناس وعن الحياة، ويقصونه عنها ، ويضعونه فى مكان ما .... مكان سحيق... مكان بعيد... فذاب عندى معنى هذا الاله ، وزال كل أثر لوجوده ولعظمته فى نفسى ، وعدت إلى حالى الأول المزعج المرير ، أفكر ثانياً فى الانتحار ...

ولكنى ألهمت إلهاما قوياً شديداً بأن لا أقدم على قتل نفسى ، لأنه عمل فظيع .. غاية فى الفظاعة والحمق ..

تناوبتنى بكل قسوة الآراء المتضاربة والمشاعر المتناقضة عشرات بل مئات المرات ، تدفعنى إلى الايمان تارة وإلى الالحاد أخرى ، إلى أن كنت مرة لوحدى فى أيام الربيع الجميلة، أسير فى غابة ساكنة صامتة، أصغى إلى صوتها وأفكر فى هذا الاله فقلت :ـ

حسناً ... ليس إله ... ليس فى الوجود شىء سوى شعورى الذى أحسه ، وليس فى العالم شىء سوى حياتى أنا ... لا إله ... لاتوجد قوة أو أعجوبة تستطيع أن تبرهن على وجوده .. لان العجائب والمعجزات لاوجود لها إلا فى مخيلة ضعاف العقول ! !

ولكن ماهذا الحنين وهذا الشوق إلى إله ؟ .

وماهذا الذى يستحثنى بالحاح وبغير امهال للبحث عنه ؟..

من أين جاءتنى كل هذه التصورات عن الله ؟..

رددت كل هذا بينى وبين نفسى طويلا ، فشعرت بالاطمئنان يعود إلى ، وأحسست بنوع من الايمان يتسرب إلى قلبى ، وتملكتنى موجة هائلة من السرور ، ولكنها سرعان ما تبددت ، وسرعان ماذوت ، وسرعان ما عادت الى فكرة الانتحار ، لأن عقلى عاد الى عمله يضللنى ويقول لى :

« ان هذا الشعور الذى يحملك على البحث عن الاله ، ليس هو الاله، بل هو مجرد احساس يعتمل فى أعماق نفسك ، ثم هو تحت سلطانك

واختيارك ، لك أن تظهره ، ولك أن تحجبه كما تشاء ، فهو ليس بالاله الذى تسعى اليه ....

عدت أقارن تطورات حياتى الماضية كلها ، ولاحظت جميع التقلبات، وذكرت هذه الحلقة من الافكارالتى تدور فى نفسى مئات المرات ، تجلب لى اليأس مرة وتهبنى الرجاء أخرى ....

فحصت حالتى الماضية بكل دقة ، وعدت بالذاكرة إلى أيام يأسى وبؤسى وأيام رجائى وهنائى .

كشفت دخائل نفسى وقلبى ، ووقفت على انفعالاتى الهامة التى مرت بى فى الماضى كله ، ووعيت جيدا تلك الايام الكثيرة ، التى اردت فيه القضاء على حياتى ...

أخيراً عثرت على السر العظيم ووثقت به كل الثقة :—

وجدت أن الايام الجميلة التى عشتهما بخير وسلام ورضى ، وأحسست فيها بالحياة الصحيحة والرجاء ، كانت هى الايام التى غمرنى فيها الايمان بالله ، وفيما عداها كنت أحس بفراغ الحياة وببطلانها ...

ماهذا اليأس عندما اعرض عن إيمانى ؟ .

ما هذا الرجاء ؟ وما هذه الحياة القوية المتدفقة بالمعانى عند ما يعمر الايمان قلبى ؟

لماذا كلما حاولت قتل نفسى، وجدت فى أعماقى بقية رجاء قوى يصدنى عن ذلك ، ويمنحنى املا فى الاهتداء إلى الله ؟ ...

لماذا ارتبطت حياتى الحقيقية السعيدة، بشعورى بالله وبوجوده وشوقى إلى الاهتداء اليه؟...

إن صوتا مدويا قوياً كان يهتف فى أعماقى قائلا :—

إن الله الذى تسعى اليه والذى تنشده فى تأملاتك ، هو قريب منك

غير بعيد ... مسيطر على مشاعرك وانفعالاتك ، ومتصل بك وبحياتك، وغير منفصل عنها ، وهى لاتوجد الا به ، ولا تقوم إلا به ، وإنك لكى تعرفه لابد أن تعيش وأن تحيا وأن تحب الحياة ، ولا بد لك لكى تعيش وتحيا الحياة الحقة ، أن تعرفه وأن تتصل به ... وأن تدرك ان الله والحياة واحد ... الله هو الحياة ... هما لا ينفصلان ... لنسعى اليه فى وسط الحياة ولنجده فى غمارها ... لن تكون الحياة بغير الله ...

آمنت كل الايمان بهذا الصوت وهدأت نفسى واستراحت روحى ، وعدت الى ما كنت أؤمن به فى فجر شبابى .

عدت الى ايمانى القديم بتلك الارادة العليا التى خلقتنى فى هذا الوجود ، والتى فرضت على أن أعمل باجتهاد، وأن أواظب على عملى من أجل نفسى ومن أجل غيرى .

عدت الى الايمان بالحقيقة العظمى وهى أن الواجب الأول والغاية الأولى فى الحياة ، انما تنحصر فى جهاد الانسان كى يصبح اليوم أفضل مما كان بالأمس ، ولكى يعمل الخير والعدل جهده ، طبق شريعة هذه الارادة العليا .

عدت الى الايمان بأن الله لا يكشف نفسه ولا يظهر ذاته الا للصالحين ، وعن طريق الصلاح . التى أجمعت الانسانية من قديم الزمان فى تقاليدها المختلفة ، على حبه وعلى تمجيده وعلى الاهتداء دائماً بنوره .

عدت الى ايمانى كله الذى كان لى فى عهد حداثتى، ولكن بفارق واحد هام ، هو أنى كنت أولا أقبل هذا الايمان بجهل وبغير فهم ، أما اليوم فإنى أؤمن بالله والخلود ايمانا مدركا ثابتاً قوياً صحيحاً ، لا أستطيع أن أتخلى عنه ولا أستطيع أن أحيا بدونه ....

وبهذا الايمان عشت وسط العامة من العمال والبسطاء ، وأنكرت نهائيا على نفسى وعلى أبناء طبقتى ، حياة البذخ واللهو ، لأن الرخاء

والنعيم الذى ينغمسون فيه ، يعمى بصائرهم ، ويظلم أفهامهم ، ويبلد أذهانهم وعواطفهم ....

خلق الله الانسان ليختار بين أمرين ، فإما أن يهلك نفسه الخالدة الابدية ويفسدها، واما أن يرقى بها ويرفعها ....

ولا شك أن الأمر الثانى هو هدف الحياة الأول ، وهو لا يتحقق الا بأن يحب كل منا الحياة ،

وأن يقوم بنصيبه فيها من العمل بهمة ونشاط ، وأن يواظب عليه ، وأن يسير فيه وفق شريعة الله ،

وأن نعمل جميعا لأنفسنا كما نعمل لغيرنا ،

وأن نعمل بقلوب تفيض رجاء بالله وبالأبدية ،

وأن نصبر ،

وأن نحتمل ،

وأن نكون ودعاء متواضعى القلب والروح والفكر .....

هذا هو إيمانى العزيز على نفسى الذى تمسكت به من أعماق القلب ومن أعماق الروح ، وأن نوره الذى أشرق على حياتى لم يخفت أبدا....

انتهى

تصويب

ص	س	الخطأ	الصواب
٤	١٢	عنه	منه
٥	٢٠	المعروف	المعروفين
١٠	٢	اجتماعى	اجتماعى لى
٢٣	٥	الابن	ابن
٤٦	١١	« اهزم أعداءه »	« أهزم أعداء القيصر »
٥٠	١٢	وقال أن	وقال بأن
٥٣	١٠	« بماذا يعيش الناس ؟ » التى	« بماذا يعيش الناس ؟ » الذى وضع ضمن ثلاث وعشرين قصة فى مؤلف
٦١	١٤	الكساه	الكساء
١١٥	٥	لاتقوم بالوطنية	لاتقوم إلا بالوطنيه
١١٧	١٦	دين واحد	دينا واحداً
١٤٠	٤	نفس	تعس
١٥٢	١٠	طبلية	(طبلية)
١٥٩	٤	لايجب	يجب
١٦٠	١	مخلص	مخلصاً
١٧١	١٩	زرع	دفن
١٧٩	١٧	للظهور	الظهور
١٩٥	٢١	آخر	آخراً
٢٠٠	٨	أنشير	أنشد
٢٠٨	٥	أصدقاءه	أصدقاؤه
٢٢٩	١٦	التى	الذى

